

الرسول محمد ﷺ

الجزء الثالث

الفصل الأول

إمام المتقين ﷺ

وأثر سنته في فهم القرآن الكريم

وإنك لعلى خلق عظيم

الرسول محمد ﷺ

الجزء الثالث

الدين الحق

بالأدلة القاطعة

وإنك لعلى خلق عظيم

إعداد وإشراف

الشيخ صفي الرحمن المباركفوري

شارك في الإعداد

أ ، د محمد إبراهيم عبدالرحمن

رحمه الله تعالى

الشيخ مصطفى بن العدوي

الشيخ مهدي بن إبراهيم المبجر

الشيخ عبداللطيف بن هاجس الغامدي

الأستاذ فؤاد محمد عبدالمنعم

مجدي عبدالباقي الشريف

باحث في الإعجاز العلمي للقرآن والسنة

الأستاذ / سيد سليمان الحلواني

الناشر

شركة كندة للإعلام والنشر

وإنك لعلى خلق عظيم

حقوق التوزيع والترجمة

بتفويض من الرواد للإعلام بجدة

ت ٦٧٠٣٣٣٦ فاكس ٦٧٠٣٣٣٦

يطلب من وكلاء التوزيع

مكتبة كنوز المعرفة بجدة

دار الخزامى للنشر والتوزيع – الأردن

دار رحمة بالأسكندرية

دار المحمدي للنشر بجدة

مؤسسة الرسالة بدولة الإمارات

المجلس العلمي للنشر بالهند

المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع بالقاهرة

ت: ٤٩٩١٢٥٤ – ٥١٠٨٠٠٤

ت: ٤٩٠٠٦٠٦ – ٤٩٠٠٨٠٨

WWW.ALislamiya 4 book.com

تطلب النسخة المترجمة من

المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد

وتوعية الجاليات بشرق جدة

تحت إشراف وزارة الشؤون الإسلامية

رقم الإيداع

٤٤٦٤ / ٢٠٠٦

رقم الإيداع الدولي

I. S. B. N

977-6195-00-8

تمهيد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

[آل عمران:١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١].

وبعد:

فهذا شيءٌ من الحديث عن رسول الله ﷺ وسنته المباركة الميمونة!

شيءٌ من مناقب هذا النبي الكريم وشيء من فضائله وبعض خصائصه.

ثم تذكيرٌ ببعض الوارد من الأوامر بطاعته ﷺ والحث على اتباع سنته والتحذير من مخالفته وعصيان أمره.

ثمَّ مزيدُ بيانٍ لأثر سنته في فهم القرآن، من إيضاح المجمل، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتفسيرُ ما أشكل، وإضافات في أبواب المباحات والمحرمات، ودفع الاشتباه وإيضاح القصص، إلى غير ذلك مما لا يكاد يُفهم ويتضح إلا بسنة رسول الله ﷺ.

فهذه رسالة تذكير بهذا كله، نسأل الله أن يجعلنا وقارئيها من المتذكرين المنتفعين بالذكرى الموقرين لنبيهم محمد ﷺ.

وهذه حقيقةٌ يجب أن تدرك، وإقرارٌ يتحتم الإقرار به:

إننا مهما كتبنا من كتب، ومهما سطرنا من سطور، ومهما تكلمنا من كلمات فلن نفي بحق هذا الرسول ﷺ علينا.

إن المِداد لينفد، وإن الأوراق لتنتهي وما أتينا على جزء من مائة جزء من فضائلِ هذا النبي الكريم وجميل خصاله وكريم فعاله وحسن سجاياه!!!

إن العقل ليعجز عن وصف هذا النبي الكريم، ووصف بعض محاسنه فضلا عن جلها فضلا عن كلها!!

إن اللسان يكلّ وإن العمر لينقضي، وما وفينا رسولنا الكريم جزءاً من حقه علينا.

فالعفو ياربنا والمعذرة يا ربنا فقد خلقتنا ضعفاء لا علم لنا إلا ما علمتنا، ولا قوة لنا إلا بك، ولا حول لنا إلا بك، فنسألك اللهم أن تغفر لنا تقصيرنا في امتثال أمرك بتوقير هذا النبي وتعزيره، وتسبيحك بكرةً وأصيلا.

نسألك يا ربنا يا من مننت علينا ببعثة هذا النبي الكريم فينا وإلينا أن تجازي نبينا محمداً ﷺ عنا خير الجزاء وأن تؤتيه الوسيلة والفضيلة وأن تبعثه المقام المحمود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد.

ونسألك يا ربنا فضلا منك ونعمةً ورحمةً منك بنا أن تحشرنا مع نبينا محمد ﷺ وأن تسقينا من حوضه شربة هنيئةً مريئةً لا نظمأ بعدها أبداً، كما نسألك اللهم أن تشفعه فينا.

ونسألك اللهم ربنا أن تثبتنا على سنته وأن تلزمنا هديه وطريقته وترزقنا من سمته الحسن سمتًا حسنًا، ومن هديه القاصد هديًا قاصداً، ومن خلقه العظيم خلقًا عظيمًا، وأن ترزقنا الإخلاص في القول والعمل وسلامة المعتقد.

ونسألك اللهم ربنا أن تحشرنا مع نبينا الكريم في أعلى جنة الخلد التي أعدت للمتقين.

وإلى موضوع بحثنا، وبالله التوفيق، وصلِّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

إن نبينا محمداً ﷺ هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي القرشي صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمه آمنة بنت وهب، أرسله الله عزَّ وجل للخلق بشيراً ونذيراً على فترة من الرسل(١)، كما قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٩].

ولقد اصطفى الله سبحانه وتعالى هذا النبي الكريم، وفضله على سائر الأنبياء والمرسلين:

قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من وَلَدِ إسماعيل، واصطفى قُريشاً من كِنَانة، واصطفى من قريشٍ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»(٢).

وأخرج الإمام أحمد بسندٍ حسنٍ عن ابن مسعود رضي الله عنه(٣) قال: إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئًا فهو عند الله سيئ.

إنه صلوات الله وسلامه عليه سيد ولد آدم(٤):

فقد قال عليه الصلاة والسلام: «أنا سيِّدُ ولد آدم يوم القيامة، وأوَّلُ من ينشق عنه القبر وأول شافعٍ وأول مُشَفَّعٍ»(٥).

(١) فقد كانت هناك فترةٌ زمنية لم يرسل فيها رسول ولم يبعث فيها نبي، تلك الفترة التي بين عيسى ونبينا محمد عليهما الصلاة والسلام ويسميها العلماء (زمن الفترة).

(٢) أخرجه مسلم (حديث ٢٢٧٦).

(٣) أحمد في المسند (١/٣٧٩).

(٤) وفي البخاري (حديث ٤٧١٢) ومسلم (١٩٤) (أنا سيد الناس يوم القيامة ...).

(٥) أخرجه مسلم (حديث ٢٢٧٨).

وفي رواية عن أنس أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بك أُمرت لا أفتح لأحدٍ قبلك»(١).

إنه شاهد ومبشر ونذير:

قال الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾** [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

أخرج البخاري(٢) من طريق عطاء بن يسار ـ رحمه الله تعالى ـ قال: لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجَل. والله إنه لموصوفٌ في التوراة ببعض صفته في القرآن: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأمِّيين، أنت عبدي ورسولي، سميتُك المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا سَخَّابٍ في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضهُ الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله ويفتح بها أعينًا عُميًا وآذانًا صُمًّا وقلوبًا غلفا».

إن الوسيلة منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله يرجوها رسولنا محمد ﷺ لنفسه:

أخرج مسلم(٣) في «صحيحه» من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليَّ فإنه من صلَّى عليَّ صلاةً صلى الله عليه بها عشرًا ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلةٌ في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلَّت له الشفاعةُ».

(١) مسلم (حديث ١٩٧).
(٢) البخاري (حديث ٢١٢٥).
(٣) مسلم (حديث ٣٨٤).



لقد كان هذا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس(١).

لقد كان أحسن الناس خُلُقًا(٢).

به ختم النبيون:

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

إنه صاحب الشفاعة العظمى:

لقد قال عليه الصلاة والسلام: «لكل نبيٍّ دعوةٌ فأُريد إن شاء الله أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»(٣).

وقال عليه الصلاة والسلام: «أُعطيت خمسًا لم يعطهن أحدٌ قبلي نُصرت بالرعب مسيرة شهرٍ، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاةُ فليُصل، وأُحلَّت لي المغانم ولم تحلَّ لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة»(٤).

إنه أول من يدخل الجنة وأول من تفتح له:

أخرج مسلم في «صحيحه» من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس يُشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعًا»(٥).

---

(١) أخرج ذلك البخاري (حديث ٢٩٠٨) ومسلم (٢٣٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) مسلم (حديث ٢٣١٠)، وكذا فانظر البخاري (حديث ٣٥٤٩) ومسلم عقيب حديث (٢٣٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٧٤٧٤) ومسلم (حديث ١٩٨).

(٤) البخاري (حديث ٣٣٥) ومسلم (حديث ٥٢).

وهذه الشفاعة المذكورة في الحديث يفسرها ما ورد في الحديث المتفق عليه البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: مسلم (١٩٤).

(٥) مسلم (حديث ١٩٦).

لقد شرح الله له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع الله له ذكره:

أما المراد بشرح الصدر؛ فمن العلماء من قال: إنه شق صدره ﷺ الذي تم - على ما سيأتي بيانه إن شاء الله - وهو صغير، وأيضًا ليلة الإسراء، ومن العلماء من قال: إن المراد بشرح الصدر توسيعه وجعله رحيبًا فسيحًا يسع التكاليف التي يكلف بها صلوات الله وسلامه عليه، ويقبلها بارتياح واطمئنان وهدوء، ويتحمل في سبيلها ما يصيبه من أذى وبلاء بصدرٍ رحبٍ وصفحٍ وعفوٍ ومقابلة الإساءة بالإحسان؛ ومن المعلوم أن الصدر إذا كان منشرحًا لشخصٍ مثلاً فإن كل أقواله تدخل فيه، وإذا كان الصدر متبرمًا متضايقًا من شخص فلا يكاد يصل أيُّ قول من قوله إلى الصدر، بل يرد الصدر كل ما يصدر من هذا الشخص فعليه إن كان الله سبحانه وتعالى قد شرح صدر شخصٍ للإسلام فتدخل كل التكاليف وكل الأوامر والنواهي إلى صدر هذا الشخص وهو مرتاح لها متسع لقبولها، كما قال عز وجل: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ**﴾ [الأنعام:١٢٥].

وبدء طريق الهداية يكون بشرح الصدر، ومن ثم دعاء موسى ﷺ لما كلفه الله بالذهاب إلى فرعون أن دعا الله فقال: ﴿**... رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي**﴾ [طه:٢٥، ٢٦]

وقد شرح صدر رسول الله ﷺ مرتين:

الأولى منهما: وهو صغير يلعب مع الغلمان كما في «صحيح مسلم»(١) من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم

(١) أخرجه مسلم (ص ١٤٧).

لأَمَـــهُ(١) ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني: ظئره)(٢) فقالوا: إن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون(٣).

قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره.

والثانيـة: ليلة المعراج كما في «صحيح البخاري» و«صحيح مسلم» من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فُرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا فأفرغه في صدري ثم أطبقه...» الحديث(٤).

أما قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ :

فهي كقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ...﴾ [الفتح:٢].

أما رفع ذكر النبي ﷺ فذلك من وجوه، منها ما يلي:

إيتاؤه القرآن وإنزاله عليه وبعثه لخير أمة أخرجت للناس، فقد قال تعالى عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤] أي: شرف لك ولقومك.

ولا ينعقد لأحد إسلام إلا بالاعتراف برسالته ﷺ والإقرار بها بقوله: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فجاء ذكر النبي ﷺ والشهادة برسالته من أركان الإسلام.

ويُدوِّي هذا الاسم الكريم اسم محمد ﷺ خمس مرات في اليوم والليلة في الأذان، وكذلك عند إقامة الصلاة.

---

(١) لأَمَهُ: ضمه وجمع بعضه إلى بعض.

(٢) ظئره: أي: مرضعته.

(٣) منتقع اللون: أي متغير اللون.

(٤) أخرجه البخاري (حديث ٣٤٩) ومسلم (حديث ١٦٣).

ورب العزة سبحانه وملائكته يصلون على هذا النبي الكريم محمد ﷺ، قال الله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾** [الأحزاب:٥٦].

وكرر اسمه في القرآن في عدة مواطن ﷺ، بل وجعلت في القرآن سورة باسمه عليه الصلاة والسلام، وكما أسلفنا فالقرآن كله نزل عليه؛ قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾** [الحجر:٨٧].

وبَشَّرت به الكتب المنزلة على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

واسمه يُذكر في كل خطبة وفي خطبة النكاح والتشهد في الصلاة كذلك.

وفي الجملة: فقد ملأ ذكره الجميل السموات والأرضين، وجعل الله له لسان صدق في الأولين والآخرين، وجعلت أمته - كما أسلفنا - خير الأمم وأكثر أهل الجنة، فصلوات ربي وسلامه عليه آناء الليل وأطراف النهار في الدنيا وفي الآخرة عليه أفضل صلاة وأتم تسليم وأزكاه، وما أجمل وأحسن هذه الأبيات المنسوبة إلى حسان رضي الله عنه حيث قال في وصف النبي ﷺ والثناء عليه:

أغرُّ عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي مع اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من إسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

لقد وجده الله يتيمًا فآواه وضالاً فهداه وعائلاً فأغناه:

أما كونه كان يتيمًا فآواه، فوجه ذلك: أن الله سبحانه وتعالى قيَّد له عمه أبا طالب يحوطه ويرعاه ويمنعه ممن أراده بسوء، ويحنو عليه ويدافع عنه.

وكذلك قيَّد الله له غير أبي طالب أيضًا، فقيَّد الله له المطعم بن عدي فنزل النبي ﷺ في جواره.

وقيَّد الله له العموم من حفظه بإذن الله، صلوات الله وسلامه عليه.

أما كونه كان ضالاً فهداه الله، فلأهل العلم في ذلك جملة أقوال، ذكر الرازي منها عشرين، وأشهر هذه الأقوال ما يلي:

القول الأول: أنه عليه الصلاة والسلام كان ضالاً عن معالم النبوة وأحكام الشريعة لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، كما قال تعالى: **﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾** [الشورى:٥٢]، وكما قال تعالى: **﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾** [يوسف:٣].

القول الثاني: أنه عليه الصلاة والسلام كان قد ضل في شعاب مكة وهو صغير فرده الله سالمًا.

القول الثالث: أنه سبحانه وجده في قومٍ ضلال فهداهم الله به. والله تعالى أعلم.

أما كونه كان عائلاً فأغناه الله:

فمن العلماء من قال: إن هذا الغنى يتمثل فيما فتحه الله عليه من الفتوحات والكنوز، وما منَّ الله به عليه من الغنائم وتحليلها له، لكن هذا القول قد ردَّه بعض العلماء متعللين بأن السورة مكية والفتوحات إنما كانت بعد الهجرة.

ومن العلماء من قال: إن المراد بالغنى هنا: غنى النفس والقناعة، فقد قنعه الله بما آتاه.

ومن أهل العلم من قال: إن الله عز وجل أغناه بما وهبته له خديجة بنت خويلد وأعطته من مالها، والله أعلم.

لقد أعطاه الله الكوثر ومنَّ عليه بالحوض المورود:

أما الكوثر، فقد ذهب أكثر أهل العلم إلى أن المراد بالكوثر: نهر في الجنة أعطاه الله لنبيه ﷺ، وستأتي الأحاديث صريحة في ذلك.

ومن العلماء من قال: إن الكوثر هو حوض رسول الله ﷺ وهذا القول قوي أيضًا ويجمع بينه وبين الأول أن النهر حوض[١] كما في «صحيح مسلم» من حديث أنس رضي الله عنه.. وفيه أن النبي ﷺ قال: «أتدرون ما الكوثر؟». فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم...». الحديث[٢].

وقد صحح القرطبي - رحمه الله - القول القائل بأن الكوثر هو النهر أو الحوض، قال: لأنه ثابت عن النبي ﷺ نص في الكوثر.

وقال الطبري في «تفسيره» بعد أن ذكر جملة أقوال للعلماء في الكوثر:

وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي قول من قال: هو اسم للنهر الذي أعطيه رسول الله ﷺ في الجنة، وصفه الله بالكثرة لعظم قدره، وإنما قلت ذلك أولى الأقوال في ذلك لتتابع الأخبار عن رسول الله ﷺ.

قلت: وقد ذكر بعض العلماء أقوالاً أُخر في الكوثر[٣]، فمنهم من قال: إن الكوثر هو الخير الكثير الذي أعطاه الله لنبيه ﷺ فيدخل فيه النهر والحوض والنبوة والقرآن وكثرة الأتباع والأصحاب والأمة وتخفيف الشرائع و... إلى غير ذلك، والأولى هو ما قدمناه وهو الذي عليه جماهير العلماء أن الكوثر هو النهر، وهو الذي فسره به رسول الله ﷺ.

قال صديق حسن خان في «فتح البيان» - بعد أن أورد جملة أحاديث تبين أن الكوثر نهر أُعطِيَه النبي ﷺ في الجنة -: فهذه الأحاديث تدل على أن الكوثر هو

(١) وقد جمع الرازي بأن قال: ووجه التوفيق بين هذا القول وبين القول الأول أن يقال: لعل النهر ينصب في الحوض أو لعل الأنهار إنما تسيل من ذلك الحوض فيكون ذلك الحوض كالمنبع.

(٢) أخرجه مسلم (حديث رقم ٤٠٠).

(٣) ذكر القرطبي منها ستة عشر قولا.

النهر الذي في الجنة فيتعين المصير إليها وعدم التعويل على غيرها، وإن كان معنى الكوثر هو الخير الكثير في لغة العرب، فمن فسره بما هو أعم ما ثبت عن النبي ﷺ فهو تفسير ناظر إلى المعنى اللغوي.

لقد أنزل الله عليه خير كتاب، كتابًا مهيمنًا على سائر الكتب من قبله.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

كتاب يهدي للتي هي أقوم، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

بخير لغةٍ، ألا وهي لغة العرب.

قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣].

وبعثه في خير قرن.

قال رسول الله ﷺ: «خيرُ أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...»(١).

وفي «الصحيحين» أيضًا من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...»(٢).

وفي رواية عند مسلم(٣): «خير أمتي القرن الذين بعثت فيهم ثم الذين يلونهم...».

---

(١) البخاري (حديث ٣٦٥٠) ومسلم (حديث ٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) البخاري (حديث ٣٦٥١) ومسلم (حديث ٢٥٣٣).

(٣) مسلم (حديث ٢٥٣٤).

وذلك في خير البلاد، ألا وهي مكة المكرمة.

فقد قال رسول الله ﷺ لمكة: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إليَّ، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت»(١).

عند خير البقاع، وذلك عند المسجد الحرام.

إن هذا النبي الكريم أمنة لأصحابه:

أخرج مسلم(٢) في «صحيحه» من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء! قال: فجلسنا. فخرج علينا فقال: «ما زِلتُمُ ها هُنا». قلنا: يا رسول الله! صلينا معك المغرب ثم قلنا نجلس حتى نصلِّي معك العشاء قال: «أحسنتُم: أو أصبتُم» قال: فرفع رأسه إلى السماء، وكان كثيراً ما يرفعُ رأسَه إلى السماء فقال: «النجومُ أَمَنَةٌ للسماءِ فإذا ذهبت النجومُ أتى السماء ما تُوعَدُ، وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يُوعدون، وأصحابي أمَنَةٌ لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يُوعدون»(٣).

إن هذا النبي دعوة إبراهيم عليه السلام وبشارة عيسى عليه السلام:

«ورأت أمه نوراً خرج منها أضاءت له قصور الشام»(٤).

وإنه دعوة إبراهيم عليه السلام؛ إذ قال: **﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [البقرة: ١٢٩].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٣٠٥) وعبد بن حميد في المنتخب (حديث ٤٩٠).

(٢) مسلم (حديث ٢٥٣١).

(٣) قال النووي رحمه الله (شرح مسلم ص٣٩١): (وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون): معناه: من ظهور البدع والحوادث في الدين والفتن فيه وطلوع قرن الشيطان وظهور الروم وغيرهم عليهم، وانتهاك المدينة ومكة وغير ذلك، وهذه كلها من معجزاته ﷺ.

(٤) انظر مسند أحمد (٥/٢٦٢) فقد ورد ذلك بإسناد يُحسن لشواهده.

إنه بشارة عيسى عليه السلام؛ إذ قال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

إن أمته خير الأمم، وأصحابه خير الأصحاب:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ [آل عمران:١١٠].

قال أبو هريرة رضي الله عنه في تفسير الآية: «خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «إنكم توفون سبعين أمة أنتم آخرها وأكرمها على الله عزَّ وجل»(٢).

وقال ﷺ: «نحن الآخرون، ونحن السابقون يوم القيامة»(٣).

وفي رواية: «نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق»(٤).

لقد زكَّى الله لهذا النبي الكريم فؤاده، فقال سبحانه: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم:١١].

وزكَّى له عقله، فقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ﴾

[الطور:٢٩]

وزكَّى الله له لسانه، فقال سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣، ٤].

---

(١) البخاري (٤٥٥٧).

(٢) صحيح، أخرجه عبد بن حميد في المنتخب (حديث ٤٠٩) وأحمد (٥/٣، ٥).

(٣) البخاري (حديث ٣٤٨٦) ومسلم (حديث ٨٥٥).

(٤) مسلم (حديث ٨٥٦).

وزكّى له بصره، فقال: سبحانه: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:١٧].

وزكّى له سمعه؛ إذ قال سبحانه: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦١].

وزكّى الله له خُلُقه، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

لقد نفى الله عنه كل سيئ وقبيح، وأثبت له كل جميل وكريم:

وأقسم ربنا على ذلك، إذ قال سبحانه: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:١-٤].

أخرج مسلم(١) في «صحيحه» من طريق هشام بن عامر قال: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن خُلُق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خُلُق نبي الله ﷺ كان القرآن.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى:

ومعنى هذا: أنه ـ عليه السلام ـ صار امتثال القرآن ـ أمرًا ونهيًا ـ سجية وخلقًا تطبَّعه، وترك طبعه الجِبلِّي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جَبَله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم، والشجاعة والصفح، والحلم، وكل خلق جميل، كما ثبت في «الصحيحين»(٢) عن أنس قال: خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط. ولا قال لشيء فعلته: لِمَ فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟ وكان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا، ولا مسست خزًّا ولا حريرًا ولا شيئًا كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكًا ولا عطرًا كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ.

---

(١) مسلم (حديث ٧٤٦).

(٢) انظر البخاري (٦٠٣٨، ٦٩١١)، ومسلم ٠حديث ٢٣٠٩).

وقال البخاري[٢]: حدثنا أحمد بن سعيد أبو عبد الله، حدثنا إسحاق ابن منصور، حدثنا إبراهيم بن يوسف، عن أبيه، عن أبي إسحاق، قال: سمعت البراء يقول: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا وأحسن الناس خَلْقًا، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير.

والأحاديث في هذا كثيرة، ولأبي عيسى الترمذي في هذا كتاب «الشمائل».

وقال الإمام أحمد[٣]: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهدي، عن عروة وعن عائشة، قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا له قط، ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئًا قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خُير بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثمًا، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله، فيكون هو ينتقم لله عز وجل.

إنه منة وتفضل من أعظم منن الله علينا:

قال تعالى: **﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾**

[آل عمران: ١٦٤]

لقد أرسله الله لتزكيتنا وتطهيرنا!!

لقد أرسله الله لتعليمنا الكتاب والحكمة وإنقاذنا من الجهالات والضلالات.

قال تعالى: **﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾** [البقرة: ١٥١].

(٢) البخاري (حديث ٣٥٤٩).

(٣) صحيح، أخرجه أحمد (٦/ ٢٣٢).

لقد أرسل هذا الرسول الكريم رحمة للعالمين:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

إنه بأمته رؤوف رحيم:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

ولقد أثنى الله سبحانه وتعالى على هذا النبي خير ثناء، ودافع عنه خير دفاع:

نفى الله عنه الجنون، فقال: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم:٢].

ونفى الله عنه الكهانة، فقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ﴾ [الطور:٢٩].

ونفى عنه الوصف بأنه شاعر؛ إذ قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس:٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة:٤١-٤٢].

لقد نفى الله عنه الكذب والافتراء: فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾

[الإسراء:٧٣-٧٥]

ولقد نفى الله عنه التهم، فقال: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير:٢٤] قيل: المعنى ليس هذا النبي ﷺ بمتهمٍ فيما يُخبر به عن الله عزَّ وجل.

وقيل: وما هو ببخيل أي: لا يضن بالإخبار عن الله عزَّ وجل بكل ما يقرب منه سبحانه ومن جنته، وأخبر بكل ما نتجنب به النار إلى غير ذلك مما كُلِّف به عليه الصلاة والسلام.

ولقد أكرم الله نبيه ﷺ إكرامًا حسنًا وأنزله منزلة حسنة:

فمن صور هذا الإكرام ما ذكره العلامة الشنقيطي حيث قال:

وقد دلت آيات من كتاب الله على أن الله تعالى لا يخاطبه في كتابه باسمه، وإنما يخاطبه بما يدل على التعظيم والتوقير، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة:٤١]، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١]. مع أنه ينادي غيره من الأنبياء بأسمائهم كقوله: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ﴾ [البقرة:٣٥]، وقوله: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الصافات:١٠٤]. وقوله ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:٤٦]. ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا﴾ [هود:٤٨]. وقوله: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف:١٤٤]. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران:٥٥] وقوله: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ [ص:٢٦].

أما النبي ﷺ فلم يذكر اسمه في القرآن في خطاب، وإنما يذكر في غير ذلك كقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤]. وقوله: ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [محمد:٢]. وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح:٢٩]

وقد بين تعالى أن توقيره واحترامه ﷺ بغض الصوت عنده لا يكون إلا من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، أي: أخلصها وأن لهم بذلك عند الله المغفرة

والأجر العظيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات:٣].

وقال بعض العلماء في قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ [الحجرات:٢] أي: لا ترفعوا عنده الصوت كرفع بعضكم صوته عند بعض.

ومن ذلك الإكرام:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:١-٣].

ومن صور هذا الإكرام والثناء الحسن:

أن الله عز وجل يصلي على هذا النبي وكذا ملائكتُهُ، ويأمرنا ربنا بالصلاة عليه والتسليم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

واقرأ هذه الآيات وانظر إلى ما فيها متدبراً متأملا، واستمع قوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ [طه:١، ٢].

وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات:٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٢١٧ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٧-٢١٩].

كذلك فتدبر قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣].

وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦].

وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:٢].

وقـــوله: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم:٤].

ولما زعم المشركون أن الله عزَّ وجل قد قلى رسول الله ﷺ وهجره أقسم الله تبارك وتعالى على أنه ما وَدَّعه وما قلاه قال تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى:١-٥].

أما سبب نزولها هو: ما أخرجه البخاري(١) ومسلم من حديث جندب ابن سفيان رضي الله عنه قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا؛ فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثًا؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:١-٣].

ولقد أقسم الله عزَّ وجل بحياة رسول الله ﷺ، وفي هذا مزيدٌ من الإكرام والتعظيم:

قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢].

قال القاضي عياض في كتاب «الشفا»: اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد ﷺ، وقال: ومعناه وبقائك يا محمد. وقيل: وعيشك. وقيل: وحياتك.

وهذه نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما خلق الله تعالى وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم عليه من محمدٍ ﷺ، وما سمعت الله تعالى أقسم بحياة أحدٍ غيره.

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٩٥٠) ومسلم (١٧٩٧ ص١٤٢٢).

وانظر إلى جميل الخطاب وجميل الملاطفة: في قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣].

وكذا جميل الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

وانظر إلى هذا الإكرام والحفظ:

في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧].

وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة:٤٠].

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة:٤٠].

وقوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر:١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧].

ولقد خصَّه الله بخصائص، فقد أوتي جوامع الكلم، وكان يرى من وراء ظهره في الصلاة، وكذا فعيناه تنامان ولا ينام قلبه، وقد كانوا يتحدثون أنه صلوات الله وسلامه عليه أوتي قوة ثلاثين في الجماع، وكذلك قوله: «إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني..». إلى غير ذلك من خصائصه صلوات الله وسلامه عليه.

وكلُّ ما اختص به ﷺ فلابد وأن يكون بنصٍّ.

وكذلك فانظر إلى توقير صحابة رسول الله ﷺ لرسولهم الكريم، يصف هذا التوقير رجلٌ كان عند وصفه كافراً ا وهو عروة بن مسعود الثقفي الذي أرسل من قبل قومه ناصحًا لهم ومشيراً عليهم، فانظر إلى كلماته بعد أن رجع من عند رسول الله ﷺ، وهو ينقل لقومه خبر ما رأى ففي الصحيح(١): أنه (أي: عروة بن مسعود الثقفي) قال لأصحابه: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على

(١) البخاري (حديث ٢٧٣١، ٢٧٣٢).

قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت مَلِكًا قط يُعظمه أصحابه ما يُعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً، والله إن يتنخم نُخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له.

وانظر إلى عظيم حق هذا النبي الكريم ﷺ على أمته:

في قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦].

ومن صور الإكرام والإجلال والتقدير: النهي عن التقدم بين يديه ورفع الصوت فوق صوته:

فالتقدم بين يديه ورفع الصوت فوق صوته صلوات الله وسلامه عليه مؤذنٌ بإحباط الأعمال وذهاب ثوابها.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾

[الحجرات:١، ٢]

لقد أرشدت هذه الآيات الكريمة إلى أدبٍ نتأدب به مع نبينا ﷺ.

أدب مع رسول الله ﷺ: فلا نتقدم بين يديه بأمرٍ، ولا نرفع شيئًا فوق سُننه، ولا نرفع صوتًا فوق صوته، ولا نقدم شرعًا على شرعه صلوات الله وسلامه عليه.

أدب مع رسول الله ﷺ في ندائه كما قال ربنا: ﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات:٢].

أدب مع رسول الله ﷺ استُفيد من قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات:٧] فيُلزمنا ذلك بأن نتهم آراءنا دائمًا،

ونقدم قول رسولنا محمد ﷺ في كل وقتٍ وحينٍ فهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بالمؤمنين رؤوف رحيم.

أدب مع رسول الله ﷺ في ترك المن عليه بإسلامنا، بل يجب علينا أن نثني عليه ونصلي عليه ونسأل ربنا له أعلى الدرجات وأفضل المقامات؛ إذ جعله الله سببًا في هدايتنا صلوات الله وسلامه عليه.

أما عن معنى الآية الكريمة: **﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** [الحجرات:١] فللآية الكريمة جملةُ معانٍ:

الأول: لا تعجلوا بقضاء أمرٍ من الأمور قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله.

الثاني: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة.

الثالث: لا تتقدموا بقولٍ أو بفعلٍ ولا تعجلوا به حتى تعلموا قول الله وقول رسول الله ﷺ.

الرابع: لا تقدموا رأيًا حتى تطَّلعوا على الكتاب والسنة وتعلموا هل فيهما شيء بخصوص الأمر الذي تريدونه أم لا؟

لقد نزلت هذه الآية الكريمة في الشيخين الكريمين الجليلين المُبشرين بالجنة صاحبي رسول الله ﷺ، أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وليس في سبب النزول أنهما خالفا رسول الله ﷺ، ولا أنهما عصيا أمره، وإنما تناقشا فيما بينهما بأمرٍ وأشار كل واحد منهما بأمرٍ واختلفا وارتفعت أصواتهما في حضور النبي ﷺ والنبي ﷺ لم يتكلم، ففيهما نزل ما نزل.

أخرج البخاري(١) من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: «قدم ركبٌ من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أَمِّر القعقاع بن معبد بن زرارة،

---

(١) البخاري (حديث ٤٣٦٧).

فقال عمر: بل أمِّر الأقرع بن حابس، قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، قال عمر: ما أردتُ خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات:١]، حتى انقضت».

وأخرج البخاري(١) أيضًا من طريق ابن أبي مليكة(٢) قال: كاد الخَيِّران أن يهلكا - أبو بكر وعمر رضي الله عنهما - لما قدم على النبي ﷺ وفد بني تميم أشار أحدهما بالأقرع بن حابس التميمي الحنظلي أخي بني مُجاشع، وأشار الآخرُ بغيره، فقال أبو بكر لعمر: إنما أردت خلافي. فقال عمر: ما أردتُ خلافك. فارتفعت أصواتهما عند النبي ﷺ، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ [الحجرات:٢، ٣].

قال ابن أبي مليكة: قال ابن الزبير: فكان عمر بعدُ - ولم يذكر ذلك عن أبيه يعني أبا بكر - «إذا حدَّث النبي ﷺ بحديث حدَّثه كأخي السِّرار، لم يُسمعه حتى يستفهمه».

ولقد طمأن الله نبيه ﷺ وأراح له باله:

لقد كان النبي ﷺ يُقلِّب بصره في السماء راجيًا الله عزَّ وجل أن يوجهه إلى الكعبة يصلي إليها بدلاً من توجهه إلى بيت المقدس.

فسبب نزول قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة:١٤٤].

---

(١) البخاري (٧٣٠٢).

(٢) وهذا صورته صورة المرسل، وقد ورد عند الترمذي (٣٢٦٦) من طريق مؤمل بن إسماعيل: حدثنا نافع ابن عمر بن جُميل الجمحي، حدثني ابن أبي مليكة، حدثني عبد الله بن الزبير.. فصرح ابن أبي مليكة بتحديث ابن الزبير له فاتصل السند بذلك، لكن مؤمل في حفظه شيء إلا أن الحديث تشهد له الرواية الأولى التي قدمناها. والله أعلم.

ما أخرجه البخاري(١) في «صحيحه» من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: أن النبي ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت وأنه صلى - أو صلاها - صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه فمرَّ على أهل المسجد وهم راكعون قال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قِبَل مكة فداروا كما هم قِبَل البيتْ وكان الذي مات على القبلة قبل أن تُحوَّل قبلَ البيت رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣].

وصدقت عائشة رضي الله عنها إذ قالت للنبي ﷺ: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك وذلك عند نزول قول الله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ [الأحزاب:٥١].

أخرج البخاري(٢) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كنتُ أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب:٥١] قلت: ما أرى ربك إلا يُسارع في هواك.

إنه لا ينعقد لأحد إسلام إلا بالشهادة لهذا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه بالرسالة:

لقد أخذ الله ميثاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يؤمنوا بهذا النبي ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١].

---

(١) البخاري (حديث ٤٤٨٦).

(٢) البخاري (حديث ٤٧٨٨).

إنه شهيد على أمته يوم القيامة وأمته شهداء على سائر الأمم:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

أخرج البخاري(١) ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلّغ ويكون الرسول عليكم شهيدًا، فذلك قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]. والوسط: العدل.

لقد أذهب الله الرجس عن أهل بيته وطهرهم تطهيراً:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

ولقد أيَّد الله سبحانه وتعالى هذا النبي الكريم بطائفة من الآيات والمُعجزات الدالة على صدقه وصدق نبوته، وأنه رسولٌ من عند الله عزَّ وجل:

وكان ولا يزال القرآن الكريم أعظم معجزةٍ أوتيها نبيٌّ من الأنبياء.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم الفيامة»(٢).

---

(١) البخاري (مع الفتح ٣/٢٢٨) ومسلم (مع النووي ٧/١٨).

(٢) صحيح أخرجه البخاري (حديث ٤٩٨١) ومسلم (١٥٢).

ولقد أيدّ الله هذا النبي الكريم بمعجزات أخر:

كالإسراء والمعراج وانشقاق القمر، والبركة في الماء القليل والشراب القليل، وحنين الجذع له وأدب الحيوان معه، وإتيان الأشجار إليه، وتسليم الأحجار عليه، وشفاء عدد من الأمراض على يديه بدون دواء حسيٍّ، وتحقُّق ما أخبر به ﷺ، والانتقام ممن عانده وخالف أمره، إلى غير ذلك من المعجزات دلالة على صدقه وصدق نبوته عليه الصلاة والسلام.

ولقد أنزل الله على هذا النبي الكريم خير كتاب وأمره بالبلاغ:

إذ قال سبحانه: **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾** [الأنعام:٦٧].

فبلَّغ الرسول خير بلاغ وأدى حق أداء وأشهد أصحابه على ذلك بقوله: «ألا هل بلَّغت؟» فشهدوا له بالبلاغ فأشهد ربه على ذلك بقوله: «اللهم فاشهد»[١].

وصدقت عائشة رضي الله عنها، إذ قالت[٢]: من حدثك أن محمداً ﷺ كتم شيئًا مما أُنزل عليه فقد كذب، والله يقول: **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾** الآية [الأنعام:٦٧].

وأخرج البخاري[٣] من حديث أنس رضي الله عنه قال: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: «اتق الله وأمسك عليك زوجك». قال أنسٌ: لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذه.

ولقد امتنَّ الله على هذا النبي الكريم بهديٍ هو خير الهدي وأكمله وأجمله وأحسنه وصدق النبي ﷺ فقد كان يقول إذا خطب: «.. وخير الهدي هدي محمد ﷺ»[٤].

---

(١) انظر البخاري (حديث ١٠٤، ١٠٥).

(٢) البخاري (حديث ٤٦١٢).

(٣) البخاري (حديث ٧٤٢٠).

(٤) أخرجه مسلم (حديث ٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعًا.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «إن أحسن الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ(١) وشر الأمور محدثاتها، وإن ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين».

وهذا مثله مع الأنبياء من قبله ﷺ:

أخرج البخاري ومسلم(٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجلٍ بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلاَّ وُضعت هذه اللبنة؟». قال: «فأنا اللَّبنة، وأنا خاتم النبيين».

وأخرجا أيضًا من حديث جابر(٣) رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كرجلٍ بنى داراً فأكملها وأحسنها، إلا موضع لبنةٍ فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون لولا موضع اللَّبنة!».

وكما أن الرسل عليهم الصلاة والسلام أُرسلت لتطاع كما قال تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** [النساء:٦٤]. فكذلك أمرنا الله بطاعة هذا النبي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه، في جملة من المواطن من كتاب ربنا؛ قال الله تبارك وتعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾** [الأنفال:٢٠]

وقال سبحانه: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾** [محمد:٣٣].

---

(١) البخاري (أثر ٧٢٧٧).

(٢) البخاري (حديث ٣٥٣٥) ومسلم (٢٢٨٦).

(٣) البخاري (٣٥٣٤) ومسلم (٢٢٨٧).

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦]

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١].

والآيات في هذا الصدد كثيرة.

ولقد قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر:٧]

وقد أخرج البخاري ومسلم(١) من طريق علقمة قال: لعن عبد الله(٢) الواشمات والمتنمصات والمُتفلِّجات للحسن المُغيرات خلق الله. فقالت أم يعقوب: ما هذا؟ قال عبد الله: وما لي لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ وهو في كتاب الله. قالت: والله لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدته. فقال: والله لئن قرأتيه لقد وجدتيه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر:٧].

وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دَعوني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم - وفي رواية بكثرة سؤالهم - واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيءٍ فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»(٣).

وهذا مثل رسول الله ﷺ مع من أطاعه أو عصاه:

أخرج البخاري(٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين

(١) البخاري (مع الفتح ١٠/ ٣٧٧) ومسلم (٤/ ٨٣٦) وغيرهما.

(٢) هو ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٧٢٨٨) ومسلم (حديث ١٣٣٧) ومطلعه أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ: «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا»، فقال رجلٌ: أكُلّ عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت: نعم؛ لوجبت ولما استطعتم ثم قال: ذروني ما تركتكم...» الحديث. لفظ مسلم.

(٤) البخاري (حديث ٧٢٨١).

نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلا، فاضربوا له مثلا، فقال بعضهم: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبَعثَ دَاعِيًا، فمن أجاب الدّاعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة. فقالوا: أوِّلوها له يَفقهها. فقال بعضهم: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: فالدار الجنة والداعي محمدٌ ﷺ، فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله، ومحمد فرق بين الناس».

وأخرج مسلم[١] هذا الحديث عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجَنَادبُ[٢] والفرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا، وهو يَذُبُّهُنَّ عنها، وأنا آخذُ بحُجَزِكُمْ عن النار، وأنتم تفلَّتُون[٣] مِنْ يَدي».

وفي «الصحيحين»[٤] من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: «إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه، فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعينيَّ، وإني أنا النذير العُريَان[٥] فالنجاء[٦]، فأطاعه طائفة من قومه، فَأَدْلَجُوا[٧] فانطلقوا على مهلتهم[٨]، وكذّبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم

(١) مسلم (حديث ٢٢٨٥).

(٢) قال بعض أهل العلم: الجنادب هذا الصرار الذي يشبه الجراد، وقيل: له أربعة أجنحة كالجرادة وأصغر منها يطير ويصرّ بالليل صرًّا شديداً.

(٣) أي: تهربون مني.

(٤) البخاري (حديث ٧٢٨٣) ومسلم (حديث ٢٢٨٣) واللفظ له.

(٥) (أنا النذير العريان) قال العلماء: أصله: أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيداً عنهم ليخبرهم بما دهمهم. وأكثر ما يفعل هذا ربيئة القوم. وهو طليعتهم ورقيبهم.

(٦) (فالنجاء) أي: انجو النجاء، أو اطلبوا النجاء.

(٧) (فادلجوا) معناها: ساروا من أول الليل. يقال: أدلجت أدلج إدلاجًا، كأكرمت أكرم إكرامًا والاسم الدَّلجة. فإن خرجت بالليل قلت: ادْلجت أدّلج ادّلاجًا بالتشديد. والاسم الدُّلجة بضم الدال.

(٨) (على مهلتهم) هكذا هو في جميع نسخ مسلم.

الجيش فأهلكهم واجتاحهم(١)، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذَّب ما جئت به من الحق».

وعندهما أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال(٢): قال رسول الله ﷺ: «إنما مثلي ومثل أُمتي كمثل رجل استوقد نارًا، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه، فأنا آخذٌ بحُجَزِكُمْ(٣): وأنتم تَقَحَّمُون(٤) فيه».

ومن شأن أهل الإيمان إذا دُعوا إلى الله ورسوله أن يقولوا: سمعنا وأطعنا.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١].

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦].

ثمَّ فليُعلم إن طاعة هذا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه من طاعة الله عزَّ وجل:

قال الله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء:٨٠].

وطاعته سبب الهداية والفلاح:

قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور:٥٤].

وفي طاعته حياة القلوب:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤].

---

(١) (اجتاحهم) استأصلهم.

(٢) البخاري (حديث ٦٤٨٣) ومسلم (حديث ٢٢٨٤).

(٣) الحجزة: هي معقد الإزار والسراويل.

(٤) تقحمون: التقحم هو الإقدام والوقوع في الأمور الشاقة من غير تثبت.

وطاعته سبب للرحمة:

قال تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ...**﴾ [براءة: ٧١].

وطاعته سبب لدخول الجنة:

قال تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [النساء: ١٣].

وفي «الصحيح» أن النبي ﷺ(١) قال: «كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى».

إن طاعته سبب الفوز العظيم:

قال تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٧١].

وإن اتباعه ﷺ فيه كلُّ خير، وكل فضل وكل بركة:

فنحظى بمحبة ربنا باتباعنا رسوله ﷺ، وتغفر لنا ذنوبنا؛ قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾ [آل عمران: ٣١].

وصدق أهل العلم الذين قالوا: إن هذه الآية حاكمةٌ على من ادعى محبة الله عزَّ وجل، فلا يُتصور أن شخصًا يحب الله عزَّ وجل ثم هو يعصي نبي الله ﷺ ويخالف أمره.

وصدق الشاعر في قوله:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

---

(١) البخاري (حديث ٧٢٨٠).

وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وقال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨].

التحذير من إيذاء النبي ﷺ أو مشاقته:

إن الذين يؤذون هذا النبي الكريم ويطعنون فيه مُرتكبو كبيرة من أعظم الكبائر بل هم كفارٌ ملعونون.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [النساء:١١٥].

إن الذلَّة والصغار يلازمان من خالف أمر رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة:٢٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة:٥]

وإن عصيان هذا النبي الكريم ومخالفة أمره مُؤذِنٌ بالعذاب الأليم:

قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

وعصيانه سبب الضلال المبين:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦].

وعصيانه سبب دخول الجحيم عياذًا بالله منها:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء:١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾

[الجن:٢٣]

ولقد نفى الله الإيمان عمَّن لم يُحكِّموا رسول الله ﷺ فيما شجر بينهم، وأقسم بنفسه على ذلك:

قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

لقد توعد الله سبحانه وتعالى من عاند نبيه ﷺ بأليم العقاب:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال ١٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ...﴾

[التوبة:٦٣]

وأذكِّر بعقوبة من عاند رسول الله ﷺ وخالف أمره:

أخرج البخاري(١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رجل نصرانيًّا فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكتب للنبي ﷺ، فعاد نصرانيًّا فكان يقول: ما يدري محمد إلا ما كتبت له. فأماته الله، فدفنوه فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه.

(١) البخاري (حديث ٣٦١٧).

فحفروا له فأعمقوا فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم فألقوه خارج القبر. فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا فأصبح قد لفظته الأرض، فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه.

ثم بعد هذا الموجز عن نبينا محمد ﷺ وشيءٍ من فضائله ومناقبه والأمر بطاعته والتحذير من معصيته ومخالفة أمره، نردف ذلك ببيان آخر ألا وهو:

إن قول رسول الله ﷺ وحي يوحى:

قال تعالى: **﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾** [النجم: ٣-٥].

لقد قال عليه الصلاة والسلام: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه[١] ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلالٍ فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه..».

وقال عليه الصلاة والسلام: «من رغب عن سنتي فليس مني»[٢].

وعند أبي داود بسندٍ صحيح[٣] من طريق سفيان عن أبي النضر عن عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه، عن النبي ﷺ: «لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرتُ به أو نهيتُ عنه فيقول: لا ندري، ما وجدناه في كتاب الله اتبعناه».

ولقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالتأسي بهذا النبي الكريم:

إذ قال سبحانه: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾** [الأحزاب: ٢١].

---

(١) صحيح وأخرجه أبو داود (٤٦٠٤) والترمذي بنحوه (٢٦٦٤).
وعنده من الزيادة وإن ما حرَّم رسول الله ﷺ كما حرَّم الله.

(٢) البخاري (حديث ٥٠٦٣) ومسلم (حديث ١٠٤١).

(٣) أبو داود (حديث ٤٦٠٥) وإسناده صحيح.
وقد رواه سفيان عن ابن المنكدر مرسلا، كما عند الترمذي.

فخيرُ أسوة لنا هو نبينا محمد ﷺ، نتأسى به في أقواله! كما نتأسى به في أفعاله!

نتأسى به في هديه ودلِّه وقصده، كما نتأسى به في عموم سيره وسلوكه!!

نتأسى به في كلامه كما نتأسى به في سكوته!!

إنّ سنة رسول الله ﷺ خير السنن، وهديه أكمل الهدي، وسيرته خير السِّير!

ولقد حث رسول الله ﷺ على اتباع سنته وبيّن أنها من أعظم المخارج من الفتن وحذّر عليه السلام من محدثات الامور

فقد قال ﷺ في موعظته البليغة التي ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشيًّا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضُّوا عليها بالنواجز، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة»(١).

وقال صلوات الله وسلامه عليه في الحديث المتفق عليه: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»(٢).

وفي رواية لمسلم(٣): «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

* * *

---

(١) صحيح بشواهده، وقد أخرجه أبو داود (٤٦٠٧).

(٢) البخاري (حديث ٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨).

(٣) مسلم (عقب الحديث السابق).

السنة والقرآن

إن سنة رسول الله ﷺ تبين كتاب الله عز وجل خير بيان وتوضحه خير إيضاح وتُجلّيه خير تجلية، وتفسره خير تفسير.

إن نبيًّا كريمًا أُنزل عليه القرآن هو بلا شك أعلم الناس بتأويله وتنزيله، وحلاله وحرامه ومحكمه ومتشابهه.

إن سنة رسول الله ﷺ تبين ما أُجمل وتوضح فَهْمَ كتاب الله عزَّ وجل.

إنها أحيانًا تُقيّد المُطلق، وتخصص العام.

إنها تستثني أموراً، وتضيف أموراً أُخر.

ولقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [النحل:٤٤].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: فالرسول ﷺ مبينٌ عن الله عزَّ وجل مراده مما أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة وغير ذلك مما لم يُفصله.

قلت[١]: ويجدر بي هاهنا أن أسوق أمثلةً دالةً على أهمية السنة لفهم كتاب الله عزَّ وجل، وكيف أنها تضيف أموراً وتستثني أموراً أُخر، وتوضح المشكل وتزيل الالتباس.

فنقول وبالله التوفيق:

(١) القائل هنا هو مصطفى ....

إن سنة رسول الله ﷺ توضح ما أجمل في كل الأبواب :

ففي باب قضاء الحاجة : كيف نقضي حاجتن؟، فلا نستقبل القبلة أو نستدبرها ولا ستعمل اليمين، وكيف نستجمر؟ وكوننا نستتر عند قضائها، والتحذير من ارتداد البول إلى غير ذلك، كله بينته سنة رسول الله ﷺ .

وكذا الوضوء الذي أُمرنا به عند القيام للصلاة :

هل نتوضأ عند كل قيام لكل صلاة، أم نتوضأ إذا قمنا إلى الصلاة ونحن على غير وضوء؟

وهل تسبق الوضوء نية؟ وهل فيه تسمية؟ والمضمضة والاستنشاق؛ فهل نتمضمض ونستنشق، وما الذكر عقب الوضوء، وما نواقض هذا الوضوء؟

وكذا توابع الوضوء : من المسح على الخفين، والمسح على الجورب وتوقيت ذلك المسح، فكل ذلك مفصلٌ في سنة رسول الله ﷺ .

وكذا الغُسل الذي أُمرنا به في مواطن : كيف نغتسل؟ ومن أي شيءٍ نغتسلِ؟ جلٌّ ذلك مبينٌ بسنة رسول الله ﷺ .

وكذا الأذان الذي يُنادى به للصلوات : كيف الأذان؟ وما وقته؟ وما ألفاظه وأحكامه وفضائله وآدابه؟ كل ذلك مبينٌ بسنة رسول الله ﷺ .

وكذا الصلاة : فقد أمرنا الله عزَّ وجل أمرًا عامًّا بالصلاة إذ قال : **﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾** [البقرة:٤٣] .

وقال سبحانه : **﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ﴾** [العنكبوت:٤٥] .

لكن كيف نُصلي؟ وبم نفتتح الصلاة، وبم نقرأ، وكيف نركع؟ وماذا نقول في الركوع، وماذا نقول في السجود؟ وكم سجدة في كل ركعة؟ وكيف نتشهد؟ وكيف نخرج من الصلاة؟ والظهر كم ركعة والعصر كم ركعة، وكذا المغرب والعشاء والصبح؟!!!

لقد قال ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي».

وكذا فقد قال تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة:٩] **فكيف نصلي الجمعة**، وكيفية الخطبة، وعلى من تجب، وعلى من لا تجب؟ وكذا كل ما يتعلق بالجمعة.

فصفة صلاة الجمعة: بيّنتها سنة رسول الله ﷺ وعموم ما يتعلق بالجمعة بينته سنة رسول الله ﷺ.

وصفة صلاة العيدين: بيّنتها سنة رسول الله ﷺ.

وصفة صلاة الاستسقاء: بيّنتها سنة رسول الله ﷺ.

وصفة صلاة الكسوف: بيّنتها سنة رسول الله ﷺ.

والجنائز وما ورد فيها من أحكام: بيّنتها السُّنة المباركة، فغسل الميت لم يرد صريحًا في كتاب الله، ومن ثم كيف يُغسّل؟ وكذا كيفية الصلاة على الجنازة.

وكيفية الكفن وكيفية الدفن، وفضل الدعاء للميت، وكيفية الصفوف في الصلاة على الجنازة.

وكذا النهي عن النياحة ولطم الخدود وشق الجيوب والنهي عن الدعاء بدعوى الجاهلية كل ذلك بيّنته سنة رسول الله ﷺ.

وكذا أمرُ الزكاة، كيف نُزكي؟ وكم نزكي؟ وما مقدار النصاب؟ وما وقت الزكاة؟ وممن تؤخذ؟ وأين تصرف؟

كل ذلك مُجمل في كتاب الله مفصلٌ في سنة رسول الله ﷺ.

وكذا الصيام، ما المحظور علينا فيه؟ وما المباح لنا؟ وصوم أيام معلومة معينة غير الفريضة لم يرد ذكر صريح في كتاب الله عزَّ وجل، ولكن السنة بينت ذلك، كصوم يوم عاشوراء وصوم يوم عرفة وكذا صوم الاثنين والخميس والثلاثة البيض من كل شهر، وفضل كل ذلك مبينٌ في السنة.

وكذا النهي عن صوم يوم النحر وأيام التشريق ويوم الفطر وإفراد الجمعة بالصوم.

وكـــذا الحــجُّ، فقد أجمل ذِكره في كتاب الله عز وجل وفصلته سنة رسول الله ﷺ تفصيلاً.

فلم تُبين في كتاب الله مواقيتُ الحج المكانية ولا الزمانية وبيّنت في سنة رسول الله ﷺ.

ولم تُذكر تفصيلاً أقسام الحج (الإفراد، والقران والتمتع) وذُكر ذلك في السنة.

ولم يُذكر في كتاب الله ما يلبسه المحرم وما لا يلبسه، وذكر ذلك في السنة.

وكذا الحائض ماذا تصنع في حجها وعمرتها؟ فقد بُيّن ذلك في السنة.

وكيف الطواف؟ ومن أين نبدأ؟ وإلى أين ننتهي؟ وكم شوط نطوف؟ وكم شوط نسعى بين الصفا والمروة؟ والجمع بين الصلوات بعرفات ومزدلفة والصلاة بمزدلفة ورمي الجمار وطواف الوداع وغير ذلك من التفاصيل، كل ذلك مبينٌ بسنة رسول الله ﷺ.

وكذا البيوع ما يحلُّ منها وما يحرم، وبيع الغرر والملامسة والمنابذة والنجش، وبيع الثمر قبل بُدوّ صلاحه والغرر في البيوع وبيع التصاوير وتحريم التجارة في الخمر وبيع الميتة والأصنام وثمن الكلاب، فأحكام ذلك كله مبينة في سنة رسول الله ﷺ.

وكذا أنواع الربا: كربا الفضل وربا النسيئة، كل ذلك أوضحته سنة رسول الله ﷺ.

وكذا الوكالة في البيوع وفي غيرها، كل ذلك بينته السُّنة.

والديون وأحكامها والمزارعة والحرث والشرب والمساقاة.

وأحكام الصُّلح وأحكام اللقطة وأحكام الوقف والوصايا.

وكذا الجهاد وأحكامه، والغنائم وقسمتها والأسرى وما يتعلق بهم وأنواع التحالفات والعهود والجزية والموادعة، كل ذلك مبينٌ بسنة رسول الله ﷺ.

وكذا الصحابة وفضائلهم والمغازي والسِّير، كل ذلك مبينٌ في السُّنة.

وكذا أبواب النكاح والطلاق والخلع والنشوز والخطبة، ما يتعلق بذلك فتفصيلاته أوضحتها سنة رسول الله ﷺ.

والمحرمات من الرضاع والنسب، كل ذلك موضح بالسنة، والمعاشرة الزوجية بتفصيلاتها وحق الزوجة على زوجها والزوج على زوجته.

والعِدد والإحداد والإيلاء والهجران، كل ذلك بُينت أحكامه بالسنة المباركة.

والأطعمة والأشربة وما يتعلق بهما من أحكام، وكذا الذبائح والصيد والأضاحي والعقائق، كل ذلك وضحت أحكامه بالسنة المباركة الميمونة.

وكذا أحكام المرضى والرقى والتعاويذ، وأحكام اللباس وأبواب الأدب والسلام والاستئذان والشفاعات والهدايا والرشوة، كل ذلك مبينٌ بسنة رسول الله ﷺ.

وكذا صيغ الأذكار والدعوات، والمستحب والمكروه والمحرم والواجب، وكذا التعاويذ والحروز، كل ذلك مبينٌ بالسُّنة.

والتفصيلات في أبواب الأيمان والنذور والكفارات، كل ذلك أوضحته السُّنة.

والمواريث والدّيات والحدود والقصاص والأحكام والغصب والإكراه والحيل، كل ذلك أوضحته السنة وبينت المحظور والجائز.

وثمّ مثال من أبواب الحدود: ألا وهو قول الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨].

فمن أين تقطع اليد؟ وفي كم تقطع اليد؟

إن اليد تقطع في ربع دينارٍ فصاعداً[١] كما ورد عن رسول الله ﷺ.

وأبواب الفتن وأشراط الساعة، وأبواب التوحيد، وما يتعلق به، كل ذلك أوضحته السنة المباركة الميمونة.

ففي الجملة، نقول: إن سنة رسول الله ﷺ توضح ما أُجمل في الكتاب العزيز وتبينه بياناً شافياً وتُفصله تفصيلاً:

فصلوات ربي وسلامه على نبيه وآله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

فكيف يتسنى لشخصٍ بعد هذا البيان أن يهجر سنة نبيه محمد ﷺ أو يتخلى عنها أو يزهد الناس فيها؟! إنه لا يتجاسر على ذلك إلا زنديق يريد الانفصام من الدين والتخلي عنه والطعن فيه.

وكما أن سنة رسول الله ﷺ تبين ما أُجمل من آي الكتاب العزيز، فإنها أيضاً أصلٌ من أعظم الأصول لتفسير آياته، فكتاب الله يُفسِّر بعضه بعضاً، وكذا تفسره سنة رسول الله ﷺ.

وها هي آيات فسرها رسول الله ﷺ:

قد ورد عن رسول الله ﷺ في تفسير المغضوب عليهم بأنهم اليهود، والضالين بأنهم النصارى[٢]:

فقد ورد ذلك في حديث يحسن إسناده على أقل الأحوال بمجموع طرقه كما يصحح لشواهده أخرجه أحمد[٣] والترمذي[٤] وغيرهما[٥].

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٩) و(٦٧٩٠).

(٢) مع أن الكفار عموماً مغضوب عليهم وضالون، ولكن اليهود اختصوا بمزيد من الغضب والنصارى وصفوا بالضلال.

(٣) أحمد في المسند (٤/ ٣٧٨ - ٣٧٩).

(٤) الترمذي (٢٩٥٤).

(٥) انظر سنن سعيد بن منصور (١٧٩) وتفسير الطبري وغيرهما.

وكذلك توضيح الفدية التي هي من صيام أو صدقة أو نسك :

فالصيام هنا لم يبن قدره، ولكن أوضحت السُّنة أنه صيام ثلاثة أيام، وكذا الصدقة فهي إطعام ستة مساكين، والنسك ذبح شاة.

أخرج البخاري ومسلم(١) من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: وقف عليَّ رسول الله ﷺ بالحديبية ورأسي يتهافت قملاً، فقال: «يؤذيك هوامُّك؟». قلت: نعم. قال: «فاحلق رأسك» - أو قال: «احلق» - قال: فيَّ نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ...﴾ [البقرة:١٩٦] إلى آخر الآية. فقال النبي ﷺ: «صم ثلاثة أيام أو تصدَّق بفَرَقٍ بين ستة أو انسك بما تيسر».

وكذلك تفسير اعتزال النساء أثناء المحيض هل هو اعتزال كل شيء منها، بل واعتزالها مطلقًا أم أنه قد استثنيت من ذلك أمور؟

أوضحت سنة رسول الله ﷺ المراد بالاعتزال.

فقد أخرج مسلم(٢) في «صحيحه» من حديث أنسٍ رضي الله عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوهن في البيوت(٣)، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ(٤)﴾ [البقرة:٢٢٢] إلى آخر الآية. فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيءٍ إلا النكاح». فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه. فجاء أُسيد بن حُضير وعبَّاد بن بشر، فقالا: يا رسول الله، إن اليهود تقول كذا وكذا، فلا نُجامعهن؟ فتغير وجه رسول

---

(١) البخاري (حديث ١٨١٤) ومسلم (١٢٠١).

(٢) مسلم (حديث ٣٠٢).

(٣) (ولم يجامعوهن في البيوت) أي: لم يخالطوهن ولم يساكنوهن في بيت واحد.

(٤) (المحيض) المحيض الأول المراد به الدم. والثاني قد اختلف فيه: قيل: إنه الحيض ونفس الدم. وقال بعض العلماء: هو الفرج. وقال آخرون: هو زمن الحيض.

الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما(1)، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ، فأرسل في آثارهما، فسقاهما، فعرفا أن لم يجد(2) عليهما.

وكذا ما ورد في تفسير الصلاة الوسطى في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة:٢٣٨] **بأنها صلاة العصر:**

أخرج مسلم في «صحيحه»(3) من حديث عبد الله(4) رضي الله عنه قال: حبس المشركون رسول الله ﷺ عن صلاة العصر، حتى احمرت الشمس أو اصفرت، فقال رسول الله ﷺ: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً». أو قال: «حشا الله أجوافهم وقبورهم ناراً».

وعند مسلم(5) من حديث علي رضي الله عنه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ، يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً». ثم صلاها بين العِشَاءين، بين المغرب والعشاء.

وكذا توضيح مفاتيح الغيب: في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩] **فقد بين النبي ﷺ المراد بها:**

وذلك فيما أخرجه البخاري(6) في «صحيحه» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس: **﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**». [لقمان:٣٤].

وكذلك الآية التي إذا أتت: ﴿لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨] أوضحتها سنة رسول الله ﷺ.

---

(١)، (٢) (قد وجد عليهما) أي: غضب عليهما. ولم يجد عليهما أي: لم يغضب.

(٣) انظر صحيح مسلم (حديث ٦٢٨).

(٤) هو ابن مسعود.

(٥) في طرق (حديث ٦٢٧).

(٦) البخاري (حديث ٤٦٢٧).

أخرج البخاري ومسلم[١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها». ثم قرأ الآية.

وعند مسلم[٢] من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال يومًا: «أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «إن هذه الشمس تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت. فترجع، فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، ولا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت. فترجع، فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئًا حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك، تحت العرش، فيقال لها: ارتفعي، أصبحي، طالعة من مغربك. فتصبح طالعة من مغربها». فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون متى ذاكم؟ ذاك حين **﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾** [الأنعام:١٥٨]».

وكذلك فسَّر النبي ﷺ الأشهر الحرم، المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة:٣٦]:

أوضحها النبي ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي بكرة[٣] رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعةٌ حرم، ثلاث متواليات ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مُضر[٤] الذي بين جمادي وشعبان».

---

(١) البخاري (حديث ٤٦٣٦) ومسلم (١٥٧).

(٢) مسلم (حديث ١٥٩).

(٣) البخاري (حديث ٤٦٦٢) ومسلم (حديث ١٦٧٩).

(٤) أي: شهر رجب المعروف، وقد كانت قبيلة مُضر تعظمه وتعتقد حرمته ولا تؤخره ولا تُقدمه.

وكذا في تفسير التثبيت بالقول الثابت، في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧].

فقد فُسر التثبيت(١) هنا بتوفيق المؤمن للنطق بالشهادتين عند سؤال الملكين له في القبر.

أخرج البخاري(٢) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «المسلمُ إذا سُئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧]».

وكذلك تفسير السبع المثاني بالفاتحة:

وذلك فيما أخرجه(٣) البخاري في «صحيحه» من حديث أبي سعيد بن المعلي قال: قال رسول الله ﷺ: «.. الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

وأخرج البخاري(٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمُّ القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم».

وكذا إيضاح المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ [الإسراء:٧٨]:

بأن ملائكة الليل والنهار يشهدونه:

وذلك فيما أخرجه الترمذي(٥) من طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ [الإسراء:٧٨] قال: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار».

---

(١) وإن كان التثبيت بالقول الثابت يدخل فيه أيضًا أكثر من ذلك.

(٢) البخاري (حديث ٤٦٩٩). (٣) البخاري (حديث ٤٧٠٣).

(٤) البخاري (حديث ٤٧٠٤). (٥) الترمذي (حديث ٣١٣٥)، وقال هذا حديث حسن صحيح.

وهذا سند صحيح(١).

وكذا الوارد عن رسول الله ﷺ في تفسير المعيشة الضنك المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤] بأنها عذاب القبر:

أخرج ذلك ابن أبي حاتم وكما نقله عنه الحافظ ابن كثير رحمه الله.

قلت(*): وسنده هنالك حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «فإن له معيشة ضنكًا» قال: «عذاب القبر»(٢).

وقد قال الحافظ ابن كثير أيضًا: إسناده جيد(٣).

وكذلك فسر النبي ﷺ مستقر الشمس: في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس:٣٨] بأن مستقرها تحت العرش.

أخرج البخاري ومسلم(٤) في «صحيحهما» من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: **﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾** [يس:٣٨] قال: «مستقرها تحت العرش».

وقد ورد هذا الحديث في «الصحيحين» بلفظ آخر، فأخرج البخاري ومسلم(٥) من طريق إبراهيم التيمي عن أبيه، عن أبي ذر قال: دخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالسٌ، فلما غابت الشمس قال: «يا أبا ذر! هل تدري أين تذهب

(١) وقد أخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «فضل صلاة الجمع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل والنهار في صلاة الصبح» يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

(*) القائل هو: مصطفى...

(٢) مع أن العيشة الضنك قد تكون في الدنيا والآخرة أيضًا.

(٣) وأورد له الحافظ ابن كثير طرقًا أُخر مع بيان وجوه إعلالها.

(٤) البخاري (٤٨٠٣) ومسلم في طرق حديث (١٥٩).

(٥) البخاري (حديث ٧٤٢٤) ومسلم في طرق حديث (١٥٩).

هذه؟». قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتستأذن في السجود، فيؤذن لها وكأنها قد قيل لها: ارْجعي من حيث جئتِ. فتطلع من مغربها». قال: ثم قرأ في قراءة عبد الله: «وذلك مستقرٌّ لها».

وكذلك بيان كيفية شهادة الأركان على الإنسان يوم القيامة: وذلك في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:٢٠]:

فقد فسر النبي ﷺ كما بصحيح مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: «هل تدرون ممَّ أضحك؟». قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب! ألم تُجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى. قال فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني. قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه[2]: انطقي. قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام. قال: فيقول: بُعداً لَكُنَّ وسحقًا، فعنكن كنت أناضل[3]».

كذلك تفسير الغيبة: في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات:١٢]:

فقد أخرج مسلم[4] في «صحيحه» عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه، فقد بهتّه[5]».

(١) مسلم (حديث ٢٩٦٩).
(٢) الأركان هي الجوارح (اليد والرجل.. ونحو ذلك).
(٣) أناضل أي: أُدافع وأجادل.
(٤) مسلم (حديث ٢٥٨٩).
(٥) البهتان: الباطل.

وكذا السنة في بيان معاني بعض الكلمات كالوارد عن رسول الله ﷺ في تفسير الصور: بأنه قرنٌ ينفخ فيه:

أخرج الترمذي(١) بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «قرنٌ يُنفخ فيه».

وقد فسَّر النبي ﷺ الكوثر: بأنه نهرٌ في الجنة أعطاه الله إياه(٢):

ففي الحديث الذي أخرجه مسلم من حديث أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «.. أتدرون ما الكوثر؟». فقلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي عزَّ وجل، عليه خيرٌ كثيرٌ، وهو حوضٌ تردُ عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم..». الحديث(٣).

وقد فسر النبي ﷺ الغاسق إذا وقب: بالقمر(٤):

في حديثه لعائشة رضي الله عنها إذ قال لها وقد نظر إلى القمر، فقال: «يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا؛ فإن هذا هو الغاسق إذا وقب»(٥).

إن هناك نصوصًا من كتاب الله عز وجل قد تفهم على غير وجهها فتوضح سنة رسول الله ﷺ المراد منها:

---

(١) الترمذي (حديث ٢٤٣٠).

(٢) وإن كان من العلماء من فسَّر الكوثر بالخير الكثير، فالنهر من الخير الكثير الذي أعطاه الله نبيه محمداً ﷺ، وذلك كقوله ﷺ الحج عرفة، فالوقوف بعرفات من أعمال الحج بلا شك، بل هو أعظم أعماله، إلا أنه لا ينفي ما عداه من الأعمال.

(٣) أخرجه مسلم (حديث ٤٠٠).

(٤) وإن كان من أهل العلم من فسَّر الغاسق إذا وقب بالليل إذا دخل، وهو تفسير عام يدخل فيه ما يذكره النبي ﷺ من أن الغاسق إذا وقب القمر (أي: إذا ظهر). فإن دخول الليل يستصحب ظهور القمر، وهذا وذاك يُتعوذ بالله مما يكون معهما في الليل من شرور وآثام.

(٥) أخرجه الترمذي (٩/٣٠٢) مع التحفة، وأحمد في مسنده (٦/٦١، ٢٠٦، ٢٣٧) وقد حسن الحافظ ابن حجر إسناده في الفتح (٨/٧٤١).

فالذي أُنزل عليه القرآن أعلم بتأويله من غيره بلا شك، فعلى سبيل المثال:

قد يُفهم قول الله عزَّ وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٧، ٨] **مع قول النبي ﷺ**: «ليس أحدٌ يحاسب إلا هلك».

لقد أوضح رسول الله ﷺ المراد بالحساب اليسير وبيّن أنه العرض:

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة[١] رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد يحاسب إلا هلك». قالت: قلت: يا رسول الله جعلني الله فداءك أليس يقول الله عز وجل: **﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾** [الانشقاق:٧، ٨] قال: «ذاك العرض، يُعرضون، ومن نوقش الحساب هلك».

وللعلماء في تفسير العرض أقوال منها؛ أن المراد بالعرض عرض الناس على الميزان، ومنها: أن ينظر في أعماله فيغفر له سيئها ويجازى على حسنها.

وأصحها: عرض أعمال العبد عليه بين يدي الله ثم مغفرتها له، ودل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم[٢] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: «يُدنى المؤمن يوم القيامة من ربِّه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول هل تعرف؟ فيقول أي رب أعرف. قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم. فيُعطى صحيفة حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيُنادى بهم على رءوس الخلائق: الذين كذبوا على ربهم».

وكمثال آخر في هذا الصدد ما فهمه صحابة رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم من قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ

(١) وأخرجه البخاري (حديث ٤٩٣٩) ومسلم (حديث ٢٨٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٢٤٤١) ومسلم (حديث ٢٧٦٨).

وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]، ففهم بعضهم أن الظلم هنا على عمومه ومن ثمَّ سألوا أيُّنا لم يظلم نفسه يا رسول الله؟

فأوضح لهم رسول الله ﷺ أن المراد بالظلم هنا هو الشرك:

ففي «الصحيحين»[1] من حديث عبد الله[2] رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لأبيه: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]».

وكذا دفعُ ما قد يردُ من اشتباه على البعض من قوله تعالى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ [مريم:٢٨] وقد كان بين مريم وهارون زمنًا طويلاً.

فقد يقول قائل: كيف ومريم ابنة عمران وأخت هارون، وموسى بن عمران وأخو هارون، وقد كان بينهما مئات السنين فما وجه الجواب؟ فنقول، وبالله التوفيق: إن سنة رسول الله ﷺ دفعت هذا الإشكال وأزالت هذا الغموض.

ففي «صحيح مسلم» من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: لما قدمت نجران سألوني، فقالوا: إنكم تقرءون: يا أخت هارون وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك، فقال: «إنهم كانوا يُسمّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»[3].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء:١٠١].

---

(١) البخاري (حديث ٣٣٦٠) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (حديث ١٢٤) واللفظ له.

(٢) عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) مسلم (حديث ٢١٣٥).

فظاهر الآية الكريمة يفيد أن القصر فقط يكون عند خوف الفتنة من أهل الكفر.

لكن سنة رسول الله ﷺ أوضحت أن القصر لعموم المسافرين:

أخرج مسلم(1) في «صحيحه» من طريق يعلي بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب: ﴿**فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ فقد آمن الناس!.

فقال: عجبتُ مما عجبتَ منه، فسألتِ رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته».

وعند البخاري(2) من حديث حارثة بن وهب، قال: صلى بنا النبي ﷺ آمن ما كان بمنى ركعتين.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾ [البقرة:١٥٨].

فالآية الكريمة قد يظهر منها أن من سعى بين الصفا والمروة لا إثم عليه، وفقط، ولكن السعي بين الصفا والمروة دائرٌ بين الركنية والوجوب كما هو معلوم.

أخرج البخاري ومسلم من طريق عروة عن عائشة قال: قلت: أرأيت قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾ [البقرة:١٥٨]؛ قلت: فوالله ما على أحد جناح أن لا يتطوف بهما فقالت عائشة: بئسما قلت يا بن أختي؛ إنها لو كانت على ما أوّلتها عليه كانت، فلا جناح عليه ألا يطوّف بهما، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل، وكان من أهلَّ لها

(١) مسلم (حديث ٦٨٦).

(٢) البخاري (١٠٨٣).

يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية. فأنزل الله عز وجل: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾ [البقرة:١٥٨]، قالت عائشة: ثم قد سنَّ رسول الله ﷺ الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما(١).

كذلك سنة رسول الله ﷺ تستثني من الآيات أموراً، وتضيف إليها إضافات:

فعلى سبيل المثال:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾ [الأعراف:٣٢].

بيّنت سنة رسول الله ﷺ أن هناك مَلابِسَ مستثناةً وحُليًّا مستثناة، فقد قال رسول الله ﷺ في شأن الذهب والحرير: «إن هذين حرام على ذكور أمتي حلٌّ لإناثها»(٢).

وكذا الوارد في نهي المرأة على لبسة الرجل، ونهي الرجل عن لبسة المرأة، والنهي عن تشبه بعضهم ببعض.

وقوله تعالى: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ**﴾ [المائدة:٣].

استثنى من الميتة ميتتين، فهما لنا حلال ألا وهما السمك والجراد، واستثنى من الدم الكبد والطحال، كما في الأثر عن ابن عمر رضي الله عنهما(٣)، وكذا

(١) البخاري (حديث ١٦٤٣) وفي غير موضع، ومسلم (حديث ١٢٧٧).

(٢) صحيح بمجموع طرقه، وقد أخرجه ابن ماجه (٣٥٩٥)، والنسائي ببعض (٥١٤٤) (٨/١٦٠) وأحمد (١/١١٥).

(٣) الطبري بإسناد صحيح موقوفًا على ابن عمر رضي الله عنه وله حكم المرفوع (أثر ١٢٧٠٠).

أُحلَّت لنا ميتة البحر؛ لحديث النبي ﷺ: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»(١).
وذلك في شأن البحر.

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام:١٤٥].

فأضيف إلى هذه المحرمات محرماتٌ أُخر وذلك بسنة رسول الله ﷺ، فإن النبي ﷺ حرَّم كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير(٢).

فحرِّمت بذلك الكلاب والسباع والصقور والنمور والعقارب والحيات.

وكذا فقد نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الإنسية(٣).

وكذا قضاء رسول الله ﷺ بالشاهد مع اليمين، إضافة إلى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة:٢٨٢].

ففي «صحيح مسلم»(٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قضى بيمين وشاهد.

وكذلك فالسنة توضح ما أجمل من القصص القرآني:

ومن ذلك إيضاح الإجمال المذكور في قوله تعالى: **﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾** [ص:٤١].

(١) صحيح، أخرجه أبو داود (حديث ٨٣) والترمذي (حديث ٦٩) وغيرهما.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا. وأخرج البخاري (٥٥٣٠) ومسلم (١٩٣٢) من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه نهى النبي ﷺ عن كل ذي مخلب من السباع.

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٤٢١٦) ومسلم (حديث ١٤٠٧).

(٤) أخرجه مسلم (حديث ١٧١٢).

فقد أوضح ذلك رسولنا محمد ﷺ فيما أخرجه ابن حبان[3] وأبو يعلى والطبري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أيوب نبي الله لما لبث في بلائه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين. فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة لم يرحمه الله فيكشف ما به. فلما راح إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقول، غير أن الله يعلم أني كنت أمرّ على الرجلين يتنازعان فيذكران الله وأرجع بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق، قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه **﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾** [ص:٤٢] فاستبطأته فبلغته فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء فهو أحسن ما كان. فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى والله على ذلك، ما رأيت أحدًا كان أشبه به منك إذ كان صحيحًا. قال: إني أنا هو، وكان له أندران أندر القمح وأندر الشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاضت، وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاضت».

ونحوه ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩].

فقد ورد في تفسير ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حييًّا ستيرًا لا يرى

---

(٣) إسناده صحيح، أخرجه ابن حبان (٢٠٩١) موارد ص٥١١ وقال الحافظ ابن كثير في تفسير سورة الأنبياء ورفعه غريب جداً.

(١) البخاري (حديث ٣٤٠٤) وفي عدة مواطن ومسلم (٣٣٧) وهو عند مسلم في موطنين.

من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة وإما آفة. وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يومًا وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر. حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون: وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربًا بعصاه. فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا، فذلك قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾**».

وكذا في أمر الزكاة، إذ الله قال: **﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾** [الأنعام: ١٤١].

بينت سنة رسول الله ﷺ: «أن لا صدقة فيما دون خمس أوسق»[١].

* * *

(١) البخاري (حديث ١٤٠٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا (لي فيما دون خمس أوسق صدقة..) ومسلم (حديث ٩٧٩).

وأخيراً

فهذه سنة رسول الله ﷺ مع كتاب الله عزَّ وجل فكيف يزعم شخصٌ أنه قرآنيٌ ثم يهجرُ سنة نبيه ﷺ ؟!

إن هذه الدعوة التي يدّعيها أقوام فيزعمون أنهم قرآنيون ثم هم يهجرون سنة نبينا محمد ﷺ إنها دعوة كاذبةٌ في أصلها، فالقرآني المتبع للقرآن مُلزم - بنص القرآن الكريم - باتباع هذا النبي الكريم، كما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر:٧].

وكما تقدم من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١] إلى غير ذلك من الآيات.

ثم فضلاً عن أنها دعوة كاذبة، فهي أيضًا ستارٌ للانسلاخ من الدين وغطاءٌ للتحلل من التكاليف الشرعية!!!

ألا ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

[النور:٦٣]

* * *

وبين يدي الختام

فهذا رسولنا قد تقدم بيان بعض مناقبه وبعض فضائله، وبيان بعض ما له علينا من الحق، وبيانِ أثر سنته في فهم القرآن وسائر الأحكام، ثم هذا مزيدُ بيان لحق خير الأنام عليه الصلاة والسلام، فنقول وبالله التوفيق وابتداءً:

فحقٌّ لله علينا أن نشكره على ما امتن علينا به من بعثة النبي ﷺ فينا وإلينا، فلله الحمد حمداً طيبًا مباركًا فيه، لله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

وصلوات الله وسلامه على نبي الله إبراهيم إذ دعا لنا فاستجاب الله دعاءه، لقد قال الخليل عليه السلام: **﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾** [البقرة:١٢٩].

فجزى الله خليل الرحمن خيراً على دعوته، الحمد لله رب العالمين.

أما حق نبينا محمد ﷺ فلن نستطيع حصره والإتيان عليه، فصلوات ربي وسلامه عليه، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله، فنقول وبالله التوفيق: -

إن من حق هذا النبي الكريم علينا أن نؤمن به ونرضى به نبيًّا ورسولاً.

إن من حق هذا النبي علينا أن نتبعه حق الاتباع ونتأسى به حق التأسي ونقتدي بهديه حق الاقتداء؛ امتثالاً لأمر الله تبارك وتعالى، إذ قد أمرنا بطاعته وحثنا على التأسي به، كما قد تقدم.

من حقه علينا أن ندافع عن سنته ونكون أنصاراً له ولدينه وسنته وشريعته، فديننا دينه وشرعنا شرعه، رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً.

من حقه علينا أن نحمل عنه ما علمناه ونبلغه الناس؛ إذ النبي ﷺ قد قال: «بلغوا عني ولو آية»(١).

وقال: «نَضَّرَ الله امْرَأً سمع مقالتي فوعاها ثم أداها كما سمعها»(٢).

من حق هذا الرسول علينا أن نقدم محبته على محبة أهلينا، وأبنائنا وبناتنا، وآبائنا وأمهاتنا، بل على محبة أنفسنا.

أخرج البخاري من حديث عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ: «لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك». فقال له عمر: فإنه الآن، والله لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي. فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر»(٣).

إن آراءنا وأقوالنا لو اختلفت مع قول رسول الله ﷺ لا يسعنا إلا أن نقدم قول الرسول على أقوالنا ورأي الرسول على آرائنا، فاختياره لنا خيرٌ من اختيارنا لأنفسنا، ويكفينا ما تقدم ذكره من كتاب الله عزَّ وجل إذ قال عن نبيه ﷺ: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

ولنعلم أن اختياره لنا خيرٌ من اختيارنا لأنفسنا قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات:٧] أي: لنزلت بكم المشقة ولحلَّ بكم العنت.

وانظر إلى ما كان من عمر رضي الله عنه يوم الحديبية، وهو يرقب قضية الصلح بين رسول الله ﷺ والمشركين وينظر بنود الاتفاقية ويرى فيها تنازلات كثيرة من

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٤٦١).

(٢) صحيح متواتر.

(٣) البخاري (حديث ٦٦٣٢).

المسلمين للمشركين، مع أن أحوال المسلمين الحربية والعسكرية آنذاك كانت أحسن بكثير من أحوالهم من قبل من ناحية العَدد والعُدد.

إن عمر ينظر إلى تعنت سهيل بن عمرو وهو يقول: لا تكتب بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب باسمك اللهم!! ينظر عمرُ إليه كذلك وهو يقول: لا تكتب محمد رسول الله ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فإننا لا نقر لك بالرسالة!! ينظر إلى الاتفاقية وفيها: أنه لا يأت أحدٌ من المشركين مُسلمًا إلى رسول الله ﷺ إلا ويرده النبي ﷺ للمشركين وإن أتى أحدٌ من المسلمين إلى المشركين مرتدًّا فلا يرجعوه إلى المسلمين، فيرى عمر من وجهة نظره أن هذه التنازلات لا ينبغي أن تكون، ويراجع النبيَّ ﷺ في ذلك، ويراجع أبا بكر في ذلك، ولكن كان رأي رسول الله ﷺ هو الأسَدُّ والأرشدُ والأقوم والأصح!!

فكم من شخصٍ قد أسلم بعد هذا الصلح، لقد أسلم آلاف من المشركين ودخلوا في دين الله أفواجًا.

ومن هؤلاء الذين أسلموا وحسن إسلامهم جداً سهيلُ بن عمرو نفسه، وقد أبلى بلاءً حسنًا في الإسلام بعد ذلك!!

لقد حُقنت دِماءٌ، وأُنقذ أقوام من النار، كانوا سيدخلونها إذا ماتوا على الشرك.

وهذا شيء عن هذا الصلح وما كان فيه:

أخرج البخاري[1] من حديث المسور بن مخرمة ومروان قصة صلح الحديبية وفيه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابًا. فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل: أما «الرحمن» فوالله ما أدري ما هِي؟ ولكن اكتب «باسمك اللهم» كما كنت

(١) البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم». ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب «محمد بن عبد الله». فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله». قال الزهري: وذلك لقوله: «لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها». فقال له النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به». فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنّا أُخذنا ضُغطة، ولكن ذلك من العام المقبل. فكتب، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله، كيف يُردّ إلى المشركين وقد جاء مُسلمًا؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليّ. فقال النبي ﷺ: «إنّا لم نقض الكتاب بعد». قال: فوالله إذًا لا أُصالحك على شيءٍ أبدًا. قال النبيُّ ﷺ: «فأجره لي». قال: ما أنا بمجيره لك. قال: «بلى فافعل». قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بل قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أُردُّ إلى المشركين وقد جئت مسلمًا؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عُذِّب عذابًا شديدًا في الله. قال فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله ﷺ، فقلت: ألست نبي الله حقًّا؟ قال: «بلى». قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فَلِمَ نُعطى الدَّنيَّة في ديننا إذًا؟ قال: «إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري». قلت: أوليس كنت تُحَدِّثُنا أنَّا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟». قال: قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوِّف به. قال: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقًّا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فَلِمَ نُعطى الدنية في ديننا إذًا؟

قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق. قلت: أليس كان يحدثنا أنَّا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومُطوِّف به. قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً.

ومن حق هذا النبي الكريم علينا أن نمتثل أمره بعدم الغلو فيه: إذ قد قال عليه الصلاة والسلام: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»(١).

فهو صلوات الله وسلامه عليه بشرٌ كسائر البشر كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [فصلت:٦].

وكما قال عليه الصلاة والسلام: «إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر..»، وقال أيضًا: «وأنسى كما ينسى البشر...».

فلا يجوز لنا أن ننزله منزلة الرب سبحانه وتعالى، فنبينا محمد ﷺ عبدٌ لله مطيعٌ له، ثم إنه رسول الله عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم:١٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣].

فرسولنا عبد لله كسائر عبيد الله؛ إذ قال الله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

إننا كمسلمين ولله الحمد، يختلف موقفنا من نبينا ﷺ عن موقف الكفار منه.

إننا نقرّ لهذا الرسول ﷺ بالرسالة ونفتخر بذلك ونسأل الله الثبات على ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٤٤٥).

ومن ثمَّ فنحن نعتقد صحة كل ما فعله نبينا ﷺ فكلُّ ما فعله صحيح ونتهم آراءنا، وندفع في وجه خصومنا بكل قوة.

فجوابنا الأصيل على كل ما يثار حول هذا الرسول الكريم من شبهات يطرحها أهل الباطل، أن تقول: إنه رسول الله ولا يعصي ربَّه عزَّ وجل، كما قد قال الصديق أبو بكر لعمر رضي الله عنه.

فهذا جوابنا الأصيل، وإن كانت ثمَّ أجوبة أُخرى تُلتمس!!

فرضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً.

ومن حقه علينا صلوات الله وسلامه عليه أن نوقره عند ذكره، فلا نذكره باسمه المجرد بل نذكره بكل جميل؛ نذكره بقولنا: رسول الله ﷺ، نذكره بنبي الله ﷺ، نذكره بـ سيد ولد آدم، نذكره بـ خاتم النبيين ﷺ... إلى غير ذلك من جميل الألفاظ، إذ الله قال: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣]

من حق هذا النبي الكريم علينا أن نكثر من الصلاة والسلام عليه امتثالاً لأمر الله عزَّ وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦]. ويتأكد حقه في الصلاة عليه عند ذكره صلوات الله وسلامه عليه.

من حقه علينا أن نسأل الله له الوسيلة والفضيلة.

من حقه علينا أن نذب عنه وندافع عن سنته، فحقه علينا أعظم من حق والدينا، ومن تمام الإيمان أن نقدم محبتنا له على محبتنا لأنفسنا.

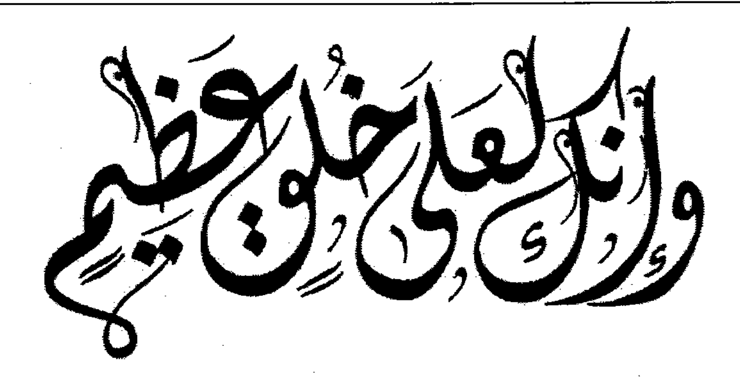
من حقه علينا أن نقدم قوله على قول غيره من البشر؛ فلا يُقدم قول ولا فعل ولا رأي صاحب مذهب ولا شيخ ولا عالم، ولا رئيس ولا ملك ولا وزير على قول رسول الله ﷺ.

ثم إن من حقه علينا أن نخلفه في أهل بيته بخير، إذ قد أوصى فقال: «أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»(١).

إن حقه علينا لا يأتي عليه الحصر، فنسأل الله أن يتجاوز عن تقصيرنا في توقير هذا النبي الكريم، وعن تقصيرنا في نصرة سنته، وعن تقصيرنا في الصلاة عليه وعن تقصيرنا في عموم حقوقه صلوات الله وسلامه عليه وعلى آل بيته وعلى صحبه ومن سلك طريقته واتبع سنته واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

* * *

(١) مسلم (حديث ٢٤٠٨).



الرسول محمد ﷺ

الجزء الثالث

الفصل الثاني

العلماء يشهدون

تمهيد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ ..

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٣].

سيريكم الآية بعد الآية فتشاهدونها وتعرفونها في كتاب الله فتكون الدلالة والحجة البينة نوراً لمن اتبعها وحجة على من جحدها .. ولكل نبأ في كتاب الله تحقيق بميقات أقّته الله له، كما قال سبحانه: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٦٧]

وهذه الدلائل يريها الله للناس في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أن هذا القرآن العظيم هو رسالة خالقهم إليهم كما وعد سبحانه في كتابه المجيد: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

ولقد أنزل الله سبحانه هذا الوعد المجيد، قبل أن يفكر الإنسان في غزو الآفاق أو التعرف على أسرار نفسه، حتى إذا رأى الإنسان آيات الله في الكون، ثم عرفها في كتاب الله؛ يعلم أن الذي أنزل القرآن المجيد هو الله الخالق لهذا الوجود، وأن سعادتنا في الدنيا والآخرة؛ بحسن اتباعنا لتعليمات الخالق سبحانه، وقد فطرنا عليها.

وفي هذا الفصل:

بعض ما رآه الناس حديثاً وعلموه يقيناً ..

وآيات من القرآن تحكي ما علموه تفصيلاً ..

فيتأكدوا أن القرآن هو الحق المبين ..

وما يطلبه هذا من وقفة يقفها المسلم للخالق سبحانه ..

- يمكنك مشاهدة أقوال العلماء بالصفحات التالية بالصوت والصورة في شريط فيديو «إنه الحق» إنتاج هيئة الإعجاز العلمي بالقرآن والسنة بمكة المكرمة وفي أسطوانة برنامج «الأدلة القاطعة» إنتاج شركة خليفة بالقاهرة.

- وعلى الموقع الإلكتروني:

www.islam-guide.com/truth

هدية إلى علماء الإسلام:

قال رسول الله ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر»(١).

ولما كان النبي محمد ﷺ هو آخر الأنبياء، فقد أعطاه الله من الآيات التي يؤمن على مثلها الناس إلى قيام الساعة..

ومادة هذا الفصل شيء من ذلك.. ..

فالناس عندما يعرفون الحقائق العلمية ويفرحون بها ,فإن هذه الحقائق هي التي تقودهم إلى الله سبحانه ..

فمن كل طريق وفي أي مجال؛ الأدلة القاطعة التي تقود إلى الله.. ..

من العلوم الحديثة باختلاف مجالاتها .. من كتب الأولين وفي التوراة والإنجيل؛ الدليل إلى الإسلام .

(١) صحيح البخاري ٦٧٣٢ .

لذلك فإن علماء الإسلام يكونون مسرورين، عندما يبينون للناس أن الذي يرونه ويصلون إليه من حقائق موافقٌ لما أُنزل إليهم من ربهم..

وهكذا كان النبي ﷺ مسروراً عندما رأى الناس ما أوحي إليه من ربه سبحانه؛ كما في صحيح مسلم ٥٢٣٥ عن تميم الداري من رؤية الجساسة والدجال: «........ فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته جلس على المنبر وهو يضحك، فقال ليلزم كل إنسان مصلاه ثم قال: أتدرون لم جمعتكم؟ ..... لأن تميماً الداري الذي كان رجلاً نصرانيًّا فجاء فبايع وأسلم، وحدثني حديثاً وافق الذي أحدثكم عن المسيح الدجال».

وإن رؤيتنا لكلمات الله وكلمات النبي ﷺ أمرٌ قد وعدنا الله تعالى به، كما قال سبحانه:

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾(١).

ذلك لنعلم أن وعد الله حق، وأن ما توعدون لآت.

والحمد لله الذي أوحى لرسوله ﷺ: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزًّا يعز الله به الإسلام وأهله وذلاً يذل به الكفر»(٢).

هذا وليت المخلصين يسمعون.. ما في صحيح مسلم ٤٩٦٧

«اذهب إلى أرض كذا وكذا، فإن فيها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم .. ..» فينبغي لمن عرف الحق، وأراد التوبة أن يجدكم لتعينوه على طاعة الله . . . .

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما؛ في تفسير قول الله تعالى ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾. قال: لكل خبر وقوع، ولو بعد حين.. قال الله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ تفسير ابن كثير.

(٢) رواه أحمد، السلسلة الصحيحة رقم٣.

ظواهر في السماء

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام ١٢٥].

لماذا ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾؟؟ ..ماذا في السماء؟؟

الحمد لله الذي كشف عن آياته، فرأى الإنسان بعلم اليقين، انخفاض ضغط الهواء ونسبته كلما ارتفعنا عن سطح الأرض وأن من يصَّعَّد في السماء يكون تنفسه ،وحيث تضغط عضلة الحجاب الحاجز (الموجودة بين البطن والصدر) على الرئتين فتنقبضان بشدة، وهنا يضيق صدر الإنسان، من أجل ذلك كان من الضروري عمل ملابس خاصة بالفضاء. . .

فمن أخبر النبي ﷺ بهذا ؟؟

إنه الله سبحانه الذي أنزل القرآن بعلمه، ويسوق عباده لوعده المجيد: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

وعندما ترجمت هذه الآية : ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ إلى «يوشيدي كوزان»(١) اندهش بشدة وأخذ يستمع إلى آيات وآيات تشير إلى ما يعرف جيداً من العلوم الحديثة، ثم قال: «إن المتحدث بالقرآن يعلم كل شيء وبكل دقة وتفصيل ..».

وصدق الله العظيم: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦].

(١) مدير مرصد طوكيو.

وبعد .. ..

ففي الحديث القدسي؛ قال الله عز وجل:

«يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم»(١).

ولذلك يخبرنا القرآن عن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام:٧٧].

فاللهم اهدنا إليك صراطًا مستقيمًا، آمين.

---

(١) رواه مسلم ٤٦٧٤.

تطورات الجنين في بطن أمه

قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج: ٥]

وهكذا أراد الله للإنسان أن يعلم هذه التطورات، فكانت المفاجأة العجيبة لعلماء التشريح والأجنة، وعلى رأسهم كيث. إل. مور الكندي[١] وهو من أشهر علماء الأجنة، فلم يكن يصدق أن هذه الكلمات هي آيات القرآن الكريم.. وعندما تأكد له أن هذه هي آيات القرآن، ذهب يبحث عن إمكانية أن يكون هذا مصادفة.. فلما رأى خمسة وعشرين نصاً عن تفاصيل تطورات الجنين في بطن أمه لم يتردد في أن يكون عالمًا شجاعًا معلنًا عن رأيه بوضوح حيث قال: «إن هذه الأدلة حتمًا جاءت لمحمد ﷺ من عند الله، وإن هذا يثبت لي أن محمداً رسول الله..».

وبعد .. ..

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣-١٤].

أي: لماذا لا تعظمون ربكم سبحانه؟!!

---

(١) رئيس قسم التشريح بجامعة تورنتو بكندا، ورئيس الاتحاد الكندي الأمريكي لعلماء التشريح والأجنحة، وكتابه: Developing Human والذي ترجم لثمان لغات، قد حاز على جائزة أحسن كتاب ألفه مؤلف واحد.

والحمد لله طبع من هذا الكتاب طبعات عديدة بالإضافة الإسلامية بعنوان:

Developing Human with Islamic Additions وينتشر الآن بين يدي العلماء.

وهكذا يمكن لكل إنسان أن يرى بعينيه آيات ربه سبحانه يرى النطفة، ثم يرى الجنين وهو متعلق بسقف الرحم..

ثم يرى بعد ذلك - كما يصف كيث. إل. مور - كأنك أمسكت بقطعة من الطين الصلصال ووضعتها تحت أضراسك، حيث يشبه الجنين شيئًا ممضوغًا .. ويرى هذه المضغة مخلقة وغير مخلقة.. ..

فسبحان القائل: **﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ....﴾** والقائل سبحانه: **﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾** [فصلت:٥٣].

سبحانك يا ربنا ولك الحمد .. ..

بل إن الله تعالى قد يسَّر للإنسان ليرى منشأه من تراب ..

(بتحليل جسم الإنسان وجد أنه يتكون من عدد من العناصر، كلها ضمن مكونات القشرة الأرضية .. (تراب) (.. من تراب..) فيعلم الإنسان عظيم قدرة الله سبحانه الذي خلق كل هذا البشر من قطعة تراب: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾** [الروم:٢٠].

وهنيئاً لمن تدبر هذا الوعد المجيد:

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

[النمل:٩٣]

أي سيريكم دلائل وحدانيته .. لتعلموا أن الأمر كله لله، فهو سبحانه الذي وعد، وهو سبحانه الذي يسوق عباده لوعده؛ يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أن القرآن هو الحق المبين..

فنعلم يقينا أن القوة لله جميعًا، وأن الأمر كله لله، فلا نجعل أي شيء ندًّا مساويًا في صدورنا لله ربنا سبحانه خالقنا وخالق كل شيء، سواء بفتنة رغبة، أو بفتنة رهبة.

الجنين في مرحلة المضغة:

قال الله سبحانه في وصف المضغة: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج:٥].

وعن هذا الإعجاز المجيد: وقف مارشال جونسون(١)، وهو يشرح ما بداخل المضغة بعد إجرائه تشريحاً لها، ويقول: إن الجزء رقم (١) قد تخلقت فيه بعض أجهزة الجسم، أما الجزء (٢) فلم يتخلق فيه شيء .ومن هنا؛ عندما نصف هذه المضغة، أنها مخلقة فقط أو غير مخلقة فقط، فهذا وصف غير علمي.

إذن لا يمكن أن أصفها وصفاً علميا إلا بما وصفه الله في القرآن: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾.

ولذلك لم يبق إلا أن نقول: إن محمدا ﷺ رسول من عند الله.

وبعد .. .. في كل آية نرى أن القرآن العظيم لا تنقضي عجائبه .. فالمضغة في نفسها؛ مخلقة وغير مخلقة ..

وإن تمت أو سقطت؛ فحالتاها مخلقة وغير مخلقة..

الجنين بعد ٤٢ ليلة:

قال رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكًا فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال أي رب أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء»(٢).

سبحان الله، وسبحان الله.. ..

الحمد لله الذي علم الإنسان وبين له، أن ما ينطق به رسول الله ﷺ هو الوحي من عند الله سبحانه؛ فلا يظهر الشكل الآدمي في الجنين إلا مع بداية الأسبوع السابع.. .. وهنا نعرف معنى قول النبي ﷺ: «فصورها ..».

(١) مدير معهد دانيال.

(٢) رواه مسلم ٤٧٨٣ .

ولقد اهتم «جولي سيمبسون»(١)، وكذلك «تي في إن بارسان»(٢) اهتما بهذا الحديث، وبحديث آخر؛ «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما»(٣). وبقول الله سبحانه: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس:١٩] أي أن الإنسان مقدر بكل صفاته في هذه النطفة؛ فمثلاً لون الشعر ولون الجلد محدد في الجينات التي تحملها الكروموسومات. . .

وبعد دراستهما المتأنية وقف الأول في أحد المؤتمرات قائلاً: «إن بإمكان الدين أن يقود العلم قيادة ناجحة، وإن هذا مما يدل على أن القرآن هو كلام الله».

أما الثاني فكان من تعليقه ما يلي: «إن محمداً ﷺ الأمي والذي يصرح بتصريحات علمية مدهشة، لا يمكن أن يأتي بهذا مصادفة، ولكن لابد أن يكون هذا إلهامًا ووحيًا قاده إلى هذه البيانات».

وفي هذا الموضوع أحب أن أنبه إلى ملاحظة مهمة: هل معنى قول الله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ [لقمان:٢٤] أنه لا يعلم ما في الأرحام إلا الله؟؟

يقول الرسول ﷺ: «فيقول ملك أي ربّ أذكرٌ أم أنثى، فيقضي ربك ما شاء»(٤). أي إن الملائكة الموكلين يعرفون ما في الأرحام، ومن شاء الله من خلقه(٥).

إذن ما هو الشيء الذي يخص الأرحام ولا يعلمه إلا الله؟؟

إنه ما تغيض الأرحام، كما بالحديث: «مفاتيح الغيب خمسة. . .» إلى قوله: «ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله. .» أي ما تسقطه(٦).

(١) أستاذ أمراض النساء والولادة بجامعة نورث بوسطن بشيكاغو.

(٢) رئيس قسم التشريح بمينيتوبا بكندا، ومؤلف مشهور في علم أمراض النساء.

(٣) البخاري (٢٩٦٩).

(٤) مسلم٤٧٨٣ .

(٥) ابن كثير.

(٦) رواه البخاري ٦٨٣١ .

وقوله: ما تسقطه هو قول ابن عباس رضي الله عنهما.

فلا يعلم ما يكون في الأرحام وما تغيضه الأرحام إلا الله.

وتتجلى هذه المعجزة لكل أطباء العالم، الذين يعرفون أن الرجل حين يأتي أهله، فإن حجم الرحم ينقص، ليعود كما كان وقد اكتسب ما شاء الله له من نُطَفِ الذكورة أو نُطَفِ الأنوثة.. .. وهنا لا يمكن لأحد أن يعرف أيّ النُطَفِ تستقر في الرحم، وأيّ النُطَفِ يُسقطها .. وقد جعل الله ذلك من الحركات اللاإرادية ..

فسبحان الذي يُقِرّ في الأرحام ما يشاء ..

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: « ماء الرجل أبيض و ماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا، فعَلا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله و إذا عَلا مني المرأة مني الرجل أنثا بإذن الله »(١).

فقد يفتح الله سبحانه على الإنسان معرفة ما يؤثر به ماء المرأة على النطفة وما يؤثر به ماء الرجل في النطفة، ولكن ليس للإنسان أن يحدد على سبيل القطع ما يمسكه الرحم أو ما يسقطه من النُطَفِ.. .. فكثيراً ما تغوص النطفة في الرحم ثم لا يرى لها وجود أو أثر..

(١) صحيح الجامع الصغير ٥٥٠٠.

الشعور بالإحراق إنما يكون بالجلد

قال الله سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾

[النساء:٥٦]

وبعد أكثر من أربعة عشر قرنا من نزول هذه الآية فإليك بيان «تاجاثات التيلاندي»(١) من أشهر علماء العالم في علم التشريح حيث يبين أن شعور الإنسان بألم الإحراق يزول بمجرد أن ينضج الجلد الخارجي وذلك لأن الجلد إذا حرّق بالنار (وكان الحرق عميقاً) دمّر عضو الإحساس بالإحراق..

وقبل أن يدّعي ملحد أن شعوره بألم النار من عذاب الله يزول بعد لحظات، فإنهم يفاجئون بهذه الآية تصفع وجوههم: ﴿**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ**﴾.

وهنا كانت الدهشة العجيبة للبروفيسور تاجاثات لهذه الآية وبعد دراسته لمعجزات القرآن ـ والتي استمرت لمدة سنتين ـ وقف في أحد المؤتمرات وهو يشرح دقائق عجيبة مما وصل إليها العلم الحديث موجودة في كتاب الله سبحانه، ثم اختتم كلمته قائلاً: «إن هذا يثبت لي يقيناً أن آيات القرآن جاءت لمحمد ﷺ من الخالق العليم بكل شيء، وأرى أنه قد آن الوقت لأن أعلن أنه: لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وقد أصبحت مسلماً من الآن».

(١) تاجاثات تاجاسن: عميد كلية الطب بجامعة تشان ماي بتيلاند.

وبعد .. ..

فمن يخشى الله ؟؟ قبل أن يفوت الأوان، ويأتي يومٌ يقال فيه للمجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ وتأمل ماذا قالوا: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾.

ولو أنهم كانوا من المصلين ؛ لنالوا الجزاء العظيم، كما قال النبي ﷺ: « خمس صلوات كتبهن الله على العباد فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئا استخفافا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة »(١).

(١) صحيح الترغيب ٣٧٠ .

البحر العميق.. وما البحر العميق ؟؟

قال الله سبحانه : ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ [النور : ٤٠] .

ما هذا ؟! . . إنه حديث عن البحر العميق !!

بحر لجي : أي بحر عميق(١)

لقد اكتشف علماء البحار، البحر العميق تحت البحر السطحي على أعماق مختلفة تصل إلى مئات الأمتار عمقاً، تحت المحيطات الكبيرة ..

والبحر العميق له موجٌ يغشاه .. ومن فوق هذا الموج؛ موج آخر (وهو موج البحر السطحي)، ثم من فوق الموج العلوي السحاب .. وظلمة البحر العميق تامة تامة .

ومن فوقها طبقات من الظلام : ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ .

فأول طبقة من المياه تمتص اللون الأحمر وما تحته فيحدث في الضوء ظلمة .. ثم الطبقة الثانية تمتص البرتقالي فتكون الظلمة أشد، ثم الطبقة الثالثة تمتص الأصفر، فتكون الظلمة أشد، ثم يُمتص الأخضر فتكون الظلمة أشد وأشد، وهكذا حتى تكون الظلمة تامة تامة في البحر العميق .. فتأمل !!

وهنا نجد ما يشهد به علماء البحار :

« لابد وأن يكون القرآن الكريم من الله »(٢) .

---

(١) بحر لجي : أي بحر عميق (قاله قتادة رضي الله عنه .. تفسير ابن كثير) .

(٢) من أقوال البروفيسور هيل، وهو من أكبر علماء البحار .

وبعد .. ..

بهذا الإعجاز العجيب يصف الله تعالى أحوال الكافر، حيث أنه يخالف فطرته وصوت عقله وضميره فيقع في ظلم فوق ظلم حتى يصير في ظلام تام، كما قال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

فإن عاد إلى ربه وآمن فله هذه الآية: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

وبالاستغفار وذكر الله مثل قول (لا إله إلا الله) تبدد كل ظلمة في القلب، ويجلى كل صدأ عليه ..

برازخ البحار المالحة

قال الله سبحانه: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:١٩-٢٢].

ولأن المرجان لا يخرج إلا من البحار المالحة، علمنا أن الحديث هنا عن كل بحرين مالحين يلتقيان يكون بينهما برزخ، وأن البحرين لا يبغي أحدهما على الآخر.

والبرازخ بين البحار المالحة لا ترى بالعين المجردة، وإنما التقطتها الأقمار الصناعية بالاستشعار الحراري.

والبرزخ لا يسمح لمياه أحد البحرين أن تنتقل للآخر إلا بعد تخليها عن صفات البحر الأول واكتسابها صفات البحر الآخر.

وهذه البرازخ تذهب وتجيء وتضطرب مع حركة المياه

وكل ما سبق يدخل في المعنى اللغوي لكلمة (مرج) فتأمل !!

وعندما ترجمت هذه الآية للبروفيسور «هيل»[1] قال: «إنه من المثير جداً أن أجد مثل هذا النوع من المعلومات موجوداً في آيات القرآن الكريم، لهذا أعتقد أنه لا بد وأن يكون القرآن الكريم من الله».

وبعد .. ..

قال رسول الله ﷺ: «إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام»[2].

---

(١) من أكبر علماء البحار.

(٢) متفق عليه.

ومن اتقى ؛ نال رضوان الله سبحانه وفاز بنعيم ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] .

وفي الحديث : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به بأس »(١) .

وملخص التقوى :

١ ـ أن يكون حبك لله تعالى أشد من أي شيء، لأنه لا جميل ولا فضل لأحد عليك في نعمة الحياة أو مقوماتها إلا لله سبحانه خالق كل شيء (فتحب طاعة الله أشد من كل شيء) .

٢ ـ وأن يكون خوفك من الله أشد من أي شيء، لأن الله سبحانه هو النافع والضار (فتفعل الطاعات وتجتنب المحرمات وتجعل بينك وبينها وقاية) .

(١) ابن ماجه والترمذي وحسنه الألباني .

يا أيها الناس

يقول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر:٥].

فكما ترون بأعينكم آيات الله وموعوداته حقاً، كذلك ترون غداً بأعينكم الجنة وأهل التقى والإيمان يتنعمون، وترون النار وأهل الفجور والكفران يتعذبون.

ويا لها من حسرة على المكذبين.. فقد قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:٣١،٣٢].

والله؛ إن الذي يجحد نعم الله عليه، بدءاً من نعمة الحياة ومقوماتها؛ من مأكولات بأنواعها، ومشروبات بأنواعها، وأنفاس يستمر بها حيًّا، وأعضاء يتحرك بها، وكل متعة ينعم فيها ...... إلخ؛ لا يمكن أن يكون من الذين يعقلون..

ولذلك يخبرنا الله سبحانه عن أولئك: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:٤٤].

وبعد.. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً﴾ [الفرقان:١٥-١٦].

فالجنة الجنة، لمن كان دينه خالصاً لله رب العالمين، ولم يتولَّ عن دين الله بعرَض من الدنيا قليل.. فقد أمرنا الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر:١١].

ودينك ؛ هو إخلاص العبادة لله وحده سبحانه، ودعوة الناس لذلك دونما جاهلية أو عصبية لأشخاص أو أوطان كما يخبرنا الله سبحانه : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ...﴾ وليس لغير الله .

فلنستقم إلى الله، كما أمر الله سبحانه، لا كما في تصور أو تخيل أي إنسان ، كما قال الله تعالى : ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ..﴾ . نعم كما أمرت ..

ولا يكون ذلك إلا بالتعلم « .. ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة »(١) .

والعلم لا يؤتي ثمرته إلا إذا اقترن بالعمل ..

ويعين العبد على العمل الصالح ملازمة جماعة المسجد، كما قال الله تعالى : ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧] .. .. وكما قال سبحانه : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة:١٨] وقد قال النبي ﷺ : « عليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية »(٢) .

وهنيئاً لمن كانوا متبعين بإحسان لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، فهذا هو الطريق لرضوان الله، كما قال سبحانه : ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

[التوبة: ١٠٠]

---

(١) رواه مسلم ٤٨٦٧ .

(٢) صحيح الجامع ٥٧٠١ .

صحراء العرب ترجع خضراء

قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهاراً». أي: بساتين وأنهارًا(١)..

يظهر من الحديث الشريف أن صحراء العرب كانت من قبل أرضًا خضراء، وأنها ستعود كذلك..

فماذا أراد الله لعلماء الجيولوجيا أن يتعلموا اليوم؟؟

وجه هذا السؤال للبروفيسور كرونر (من أكبر علماء الجيولوجيا).

هل كانت أرض العرب خضراء؟

قال: نعم، في العصر الجليدي السابق منذ آلاف السنين.

هل ستعود أرض العرب خضراء؟

قال بالتأكيد.. إنها حقيقة علمية .. .. كيف هذا؟

قال: لعلك تلاحظ هذه العواصف الثلجية التي تقصف المدن الشمالية من العالم في كل شتاء، والتي تزيد باستمرار من معدل قصفها سنة عن الأخرى، وساق أدلة علماء الجيولوجيا التي تؤكد هذه الحقيقة العلمية ..

فماذا بعد اطلاعه على حديث رسول الله ﷺ؟

قال: ـ وبعد مناقشة عنيدة ـ «إن الوسائل العلمية الحديثة الآن يمكنها في وضوح إثبات ما قاله محمد ﷺ وأعتقد أن ما أخبر به محمد ﷺ لا يمكن أن يكون إلا بوحي من الله».

---

(١) صحيح مسلم (١٦٨١).

أخفض منطقة على سطح الأرض

قال الله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾.

وسبحان الله الذي علّم الإنسان ما لم يعلم !!

﴿أَدْنَى﴾: تعني أقرب، وأخفض ..

سئل بارما[1] ما أخفض مكان على سطح الأرض؟

فأتى بمجسم للأرض حيث السهم على مكان بجوار البحر الميت[2] مكتوب عليه أخفض منطقة على سطح الأرض (وهو المكان الذي هزمت فيه الدولة الرومانية القديمة من الفرس).

وبعد أن استمع إلى ترجمة هذه الآية ﴿فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾.

اندهش.. وتساءل.. وناقش.. وحاور.. واستمع إلى آيات وآيات تشير إلى ما يعلم جيداً من العلوم الحديثة ثم قال: « نعم إن ذلك يقود إلى أن الله قد أرسل هذا عن طريق النبي محمد ﷺ ».

وبعد...

فهلا آن أن نقرأ كتاب الله ونتدبره؟! وقد قال النبي ﷺ: « اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه »[3].

---

(١) المشرف على الاحتفال المئوي لعلماء الجيولوجيا بأمريكا.

(٢) ينخفض مستوى مياه البحر الميت عن جميع بحار الأرض بـ ٣٨٠ متراً.

(٣) صحيح الجامع الصغير ١١٦٥ .

.... أحيطكم علماً ....

إن ما يعيشه العالم اليوم من انفجار معرفي ؛ هو تحقيق دقيق لوعدِ الله المجيد : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال:٥٩].

﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨].

.... وعلى الأمة ....

الأخذ بكل أسباب القوة، تنفيذاً لأمر الله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ...﴾.

فقط تكليف الله سبحانه للأمة؛ ما تستطيعه.. أما الذي لا تستطيعه، فإن الله يتكفل به..

وكذلك على الفرد «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»(١).

قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٧-٩].

* * * * *

(١) صحيح الجامع الصغير ٦٦٥٠ .



الرسول محمد ﷺ

الجزء الثالث

الفصل الثالث

ما فرطنا في الكتاب من شيء

تمهيد

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾

آيات لمن يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، مع تعليق مختصر، وقد اخترت واختصرت ، ومثل ذلك كثير وكثير، ولا يحصيه إلا الله ..

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩].

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر:٢٧].

وقال الله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر:٨١].

من كل طريق وفي أي مجال ؛ من علوم الفضاء ، من علوم البحار ، من علوم الطب .... الطريق إلى الله.

وقد أرسل الله رسوله محمداً ﷺ نبيا أميًا لا يقرأ ولا يكتب ، في فترة من الزمن لم يكن يعلم معاصروها شيئاً من المعارف الحديثة ..

ألا لنعلم أن وعد الله حق ، وأن ما توعدون لآت ..

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ۝٤٨ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨، ٤٩].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس:١٦].

كيف تمهدت الأرض للحياة؟

قـــال الله تعـــالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبأ:١-٦].

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا﴾؟..

إن بلايين الأشياء قد تآلفت وترتبت في نظام محدد حتى تكون الأرض ممهدة للحياة عليها، وإذا اختل شيء من هذه الأشياء فإن الحياة تتدمر تدميراً.. إلا أن يشاء الله..

فمثلاً؛ المسافة بين الأرض والشمس لو أنها أكبر من وضعها الحالي، أو أنها أصغر من وضعها الحالي لدُمِّرَت الحياة على كوكب الأرض تدميراً.

حتى إن وزن ذرة الأكسجين، لو كان أكثر من وزنها الحالي لتدمرت الحياة، ولو كان وزنها أقل من وزنها الحالي لانتهت الحياة، ويمكنك في ذلك أن تعدد الكثير والكثير، مثل: وجود الماء، وخواص الماء، ووجود الغلاف الجوي، ونسب مكوناته، وخواص الأكسجين للتنفس... إلخ...

نعد بلايين من الأشياء وبلايين لا نحصيها من نعم الله تعالى حتى تكون (الأرض مهاداً) ممهدة للحياة عليها.. ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١٨].

نعمة الله في خلق الجبال

قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠].

قد أراد الله للإنسان أن يكتشف علاقة الجبال بتثبيت القشرة الأرضية، وأن الجبال تزيد من عزم القصور الذاتي للأرض فلا يحدث أن تميد أو تضطرب.. فتأمل، وقل الحمد لله رب العالمين.

ويقول الله سبحانه: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧].

وبالطريقة الحديثة في تصوير الجبال (هولوجرافي) وجد أن تحت كل جبل جذرا له.. فمثلاً جذر جبال الهيمالايا حوالي ٤,٥ مرة من ارتفاعه (.. وتد..).

من نعم الله تعالى في السماء والأرض

يقول الله سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾.

حيث تُرجِّع السماء ما يصعد من بخار في صورة مطر، وتعكس إشعاعات كونية حتى لا تضر بالحياة على الأرض فتأمل!!! وقل الحمد لله رب العالمين.

ويقول سبحانه: ﴿وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾.

عرف الناس أن قارات العالم ناتجة من تصدعات عنيفة في الأرض، وأن التصدع قائم ولا يزال في قاع البحار وفي باطن الأرض وينتج منه براكين وزلازل ..

وهذه التصدعات بمثابة المتنفس لغليان المعادن في باطن الأرض، وإلا لانفجر كوكب الأرض بكل ما فيه.. إلا أن يشاء الله تعالى ..

الأرض ليست على خريطة المجرة

يقول الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧].

عندما قدَّر الله للإنسان أن يرى الآيات في الآفاق، تبين له أن الكون رهيب الاتساع، بل إن الكون في اتساع مستمر رؤيةً لقول الله تعالى:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧].

فإذا رسمت خريطة للمجرة، فإن الشمس لا تظهر سوى نقطة على هذه الخريطة، فأين الأرض؟ والتي تكبرها الشمس بمليون مرة؟

هذا وإن المجرة واحدة من مجرات كثيرة في الكون.

وهنا يتأكد للإنسان أن الدنيا لا تساوي في ملكوت الله جناح بعوضة ..! فهل للإنسان أن يتكبر ويبيع آخرته بدنياه إلا إن كان من الذين لا يعقلون!

ورغم صغر الأرض في الكون

فقد جعلها الله موسوعة للأحياء والأموات

قال الله تعالى: **﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾**

[المرسلات: ٢٥-٢٦]

إن ملايين وملايين الأحياء من الأجيال المتعاقبة، كفيلة بموتها أن يترم بها كوكب الأرض، وألا تدع فرصة لحيّ بالعيش على الأرض، ولكن من رحمة الله تعالى أن جعل الأرض كفاتا؛ تستوعب الأحياء والأموات، بما يدعوك لرؤية عجيب قدرة الله تعالى، وعظيم حكمته سبحانه.. قال تعالى: **﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾**.

والآن يرى الإنسان أن مكونات جسده من عناصر الأرض، وأنها تعود مرة أخرى إليها بموته وتحلل جسده ثم يخرجنا الله تعالى من الأرض تارة أخرى **﴿..وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ..﴾** [الروم:٢٧] قال الله تعالى: **﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾** [طه:٥٥] وإذا كان الإنسان يرى بعينيه مكونات جسده من الأرض، وأنها تعود للأرض، فسوف يرى نفسه وقد أخرجه الله منها تارة أخرى، ليقف بين يدي الله ويسأله «عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن علمه ماذا عمل به»(١).

(١) السلسلة الصحيحة ٩٤٦.

الدورات العجيبة على كوكب الأرض

يعرف الناس الآن أن للمكونات الغذائية من كربون، وهيدروجين، ونيتروجين، وأكسجين، وماء ،... إلخ دورة تبدأ ثم تعود من حيث بدأت ، فمثلاً ينزل النيتروجين مع المطر إلى التربة الزراعية ، حيث يستخدمه النبات في إنتاج الغذاء الذي يأكله الإنسان ، ثم بعد موته يتحلل الجسد، ويتصاعد النيتروجين حيث ينزل (في مركبات) مع المطر ، مرة أخرى، وهكذا .

وهنا يرى الإنسان بعينيه ما أمره الله أن يراه :

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت:١٩ ، ٢٠] .

الدورة المائية

قال الله تعالى : **﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ﴾** [الواقعة:٦٨،٧٠] .

إن الماء العذب الذي نشربه ، ينزل مطراً من السحاب ، والذي تكوّن أصلاً من البخار الصاعد من البحار المالحة وغيرها .. .. ولو شاء الله لجعل الماء كما كان في أصله .

﴿أُجَاجًا﴾ : أي ماءً مالحاً كما كان **﴿.. فَلَوْلا تَشْكُرُونَ..﴾** .

وبعد الدراسات والدراسات ، عن البخر من المحيطات والبحار المالحة ، وغيرها ، وتكوّن السحب ، وسقوط الأمطار، علم الناس أن الماء العذب الذي يشربون منه آت من الماء الملح الأجاج الذي هو أصله..

وهكذا نعلم أن ماء المطر الذي ينزل من السماء هو أصلاً ماء الأرض.. كما قال الله تعالى : ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ..﴾ نعم ﴿ابْلَعِي مَاءَكِ﴾، لأن الماء الذي ينزل من السماء قد جاء من الأرض ، والسماء ترجّعه مرة أخرى ، في صورة هذا المطر الذي نراه ..

إذا خرجت نهاراً من الغلاف الجوي، فالدنيا ظلام

قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر:١٥].

وكلمة: سُكِّرت ، أي غُيِّبت ، فلا يكادون يبصرون. وهذا الذي رآه الإنسان اليوم؛ أن الفضاء ظلام دامس، وأن الشمس تظهر قرصًا أَحْمَرَ لا يضيء لأحد في السماء.

ولكن ما بال ضوء النهار على الأرض؟؟

إنه الغلاف الجوي ، والذي جعله الله تعالى يُبصرنا الضياء ، قال الله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:١٢].

السماء في اتساع مستمر

قال الله تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧].

يقول موريس بوكاي (وقد أسلم والحمد لله)، في كتابه القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم الحديث: «إن توسع الكون أعظم ظاهرة اكتشفها العلم الحديث، ذلك مفهوم قد ثبت اليوم تماماً، ولا تعالج المناقشات إلا النموذج الذي يتم به هذا التوسع .. .. فتأمل !!

تقرير هيئة الأرصاد العالمية

ينحني لآيات القرآن المجيد آيات قرآنية يرونها ويفسرونها تفسيراً

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ [يونس:٢٢].

قالوا: وقسموا الرياح في البحر إلى أربعة أقسام:

أ - قسم يسمى (النسمة) وهي الريح الطيبة، وهي التي يحبها ويفرح بها البحَّارة في كل العالم، وتكون سرعتها من ١ : ٦ عُقَدٍ.

ب - ثم إن كانت الرياح ساكنة؛ قالوا: يحدث ذلك في لحظات تكون محصلة سرعة الرياح صفراً، تركد فيها السفن الشراعية، كما في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ [الشورى:٣٣].

ج – فإذا زادت سرعة الرياح عن ٦ عقد، فماذا يكون؟

فقالوا: إنها تضايق البحارة ، لأن ضغط الهواء هنا يكون مرتفعًا ويضغط على الماء ، فإذا عاد الماء كما كان يأتي الموج على السفن من كل مكان !! لذلك تسمى هذه الرياح بالعواصف، فيرون بأعينهم قول الله تعالى: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس:٢٢].

د – فماذا إن زادت سرعة الرياح عن ٦٥ عقدة؟

قالوا: إنها سرعة رهيبة للرياح ، لا تحتملها السفن بل إنها تحطم أضخم السفن تحطيما ، ونادرا جدا ما يحدث ذلك ، ولذلك تسمى (قاصفة)..

ألا يخافون قول الله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم﴾ [الإسراء:٦٩].

إنه ليس بعد القاصفة إلا الغرق المحقق..

أنواع السحب الممطرة

(١) السحاب الطبقي. (٢) السحاب الركامي. (٣) السحاب المعصر.

فإذا أتى هواء بارد واصطدم بهواء ساخن فإن منطقة الهواء البارد يتكون فيها سحب ركامية ، ومنطقة الهواء الساخن يتكون فيها سحب طبقية.. ويكون السحاب الذي على شكل برج رأسه لأسفل وقاعدته لأعلى (في شكل عصارة تعصر).

أولا: السحاب الطبقي:

لا ينزل المطر من السحاب الطبقي إلا إذا كان قطعًا فوق بعضها ، وأخذ مساحة كبيرة (أي بسط في السماء).. وهذا الذي نقرؤه في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾

[الروم:٤٨]

فهذا النوع لا يصاحبه رعد ولا برق..

ثانيا: السحاب الركامي:

ويأخذ هذا السحاب في المرحلة الأولى شكل قزع، ثم يتحرك نحو خط يسمى (خط التجمع) حيث يتجمع السحاب وتتولد طاقة بسبب التكثف، والذي ينشأ عنه التراكم.

أما المرحلة الثانية فيزيد التراكم حتى يصير السحاب كالجبال، وهنا يكون السحاب الركامي قد تكون، وينزل المطر المصحوب بالرعد والبرق، وهذا النوع من السحاب هو الذي يكون مصحوباً بالبرق.

فتأمل معي قول الله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾**[النور:٤٣]

وبعد دراسات ضخمة عرف الإنسان أن البرق لا يتكون إلا في السحاب الذي على شكل جبال، والذي فيه بَرَد..

ثالثا السحاب المعصر:

والسحاب من هذا النوع لا ينزل منه المطر دفعة واحدة بل ينزل متقطعا في دفعات، وكل دفعة تأخذ فترة زمنية، ويكون نزول الماء صبًّا، ويكثر هذا النوع في المناطق الاستوائية، حيث تجد الأشجار كثيفة ومتشابكة، رؤية لقوله تعالى: **﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾**

[النبأ: ١٤-١٦]

وويل لمن يجحدون نعمة الله..

هل تعلم أن هناك حجارة يتفجر منها أنهار

يوجد أنواع من الصخور بكميات مثل الجبال ، يكون بها شعيرات مملوءة بالمياه ، فإذا حدث تشقق في هذه الصخور، وكان هذا التشقق متباعداً ، فإن كميات ضخمة من المياه تخرج بتدفق مكونة أنهاراً (وفي الباكستان والهند نهر يخرج بهذه الطريقة) . . فتأمل قول الله تعالى عن قسوة قلوب الضالين من بني إسرائيل : **﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾** [البقرة:٧٤] .

الاكتشاف الضخم «اهتزازة براون

اكتشف علماء الزراعة أن حبيبات الأرض الزراعية ، تتركب من صفائح (شرائح) معدنية . . وهذه الصفائح تكون هشّة على بعضها، فإذا سقط المطر انتقلت الشحنات الكهربية التي تحملها قطرات المطر إلى حبيبات الأرض الزراعية فتهتز الصفائح المكوِّنة لهذه الحبيبات ، ويكون هذا الاهتزاز سبباً في توسعة المجال للماء فيتخلل مكونات الحبيبات ، فيكبر حجمها جداً استعداداً لعمليات الإنبات . . . وهذه الاهتزازة التي تسبق تخلل الماء للحبيبات سميت «اهتزازة براون . . » .

وهنا تكون بهجتنا ، عندما نتدبر قول ربنا سبحانه :

﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج:٥-٧].

سر مادة اليخضور

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:٩٩].

(فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً !!)

فأي شيء هذا الخَضِر؛ الذي يخرج منه الحب والثمار والأعناب والزيتون ...إلخ؟؟

إنه مادة اليخضور، والتي تقوم وحدها بعملية البناء الضوئي الذي يتكون به الغذاء لتكوين كل ثمرة وكل حبة، وسبحان الله رب العالمين.. ..

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].

نعمة الوضوء

مع زيادة البشر، وزيادة كميات النفايات والفضلات، تزداد الميكروبات والبكتريا المرضية، والتي تجد من الجلد مسلكًا إلى جسم الإنسان.. .. فكانت رحمة الله سبحانه بأن شرع الوضوء لهذه الأمة العظيمة.

قـال الله تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة:٦].

نعمة التيمم

وما البديل إن لم نجد الماء ؟

لقـد عرف الناس أن الماء يطهّر الجلد من البكتريا المرضية التي تعلق به ، فماذا إن لم نجد الماء؟؟

إنه الغبـار ؛ ذلك الصـعيـد الطيب.. .. فـقـد اكـتُشف أنه يحلل البكـتـريا ويوقف نموها ، و إلا لتكاثرت البكـتـريا بدرجـة تطمس وجـه الأرض تمامًا ، فكان تشريعًا من الله تعالى:

﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة:٦].

فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

احذروا لحوم الجلاّلة

القط من أطهـر الحيـوانات ، ولكنه يـحمل مرضـاً لا ينتـقل إلا من برازه والذي يأتي إليه بعض الحـيـوانات مـثل الخنزير، أو الجـلاّلة وهـي الأنعـام أو الدجـاج الذي يتغذى على القاذورات ، فيصاب آكلها بأمراضٍ خطيرة..

وهنا نعرف من حكمة الحديث الشريف : «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لحوم الجلاّلة وألبانها»(١) .

ولا تُؤكل حتى تُحبس عن النجاسة أياماً يطيب فيها لحمها ولبنها ..

أمراض خطيرة مثل البلهارسيا وأسباب انتشارها

إن مرض البلهارسيا الذي يصيب كثيرا من الناس في العالم ، له ثلاث حلقات أساسية:

الأولى : أن مريضًا يبول في الماء فينزل مع بوله بعض البلهارسيا.

الثانية : أن يكون الماء راكداً، لأن قواقع البلهارسيا لا تستطيع التواجد إلا في ماء راكد.

الثالثة : أن يأتي إنسان صحيح (غير مريض) ويغتسل في هذا الماء ..

الله أكبر . . إنهم يفسرون حديث النبي ﷺ تفسيراً !

قال رسول الله ﷺ : «لا يبولن أحدكم في الماء الراكد ، ثم يغتسل منه»(٢) .

أمراض خطيرة لم تعهدها البشرية ؛ كيف تظهر كلما ظهرت الفاحشة بشكل مزعج في مكان ما ، فإن الناس يُفاجأون بمرض جديد يداهمهم ، ويكون خطر وبائه طاعونًا يهدد مَن يذهب ومَن يجيء ، فهل عرفت السر؟؟

هكذا يقف البروفيسور (تي . في . إن . بارسان) بانبهار عجيب وهو يحدث بحديث رسول الله ﷺ : «وما ظهرت الفاحشة في قوم قط ، حتى يعلنوا بها، إلا وفشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم»(٣) .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني، إرواء الغليل ٢٥٠٣ .

(٢) سنن النسائي، صححه الألباني برقم ٢٢١ .

(٣) الصحيحة ١٠٦ .

هدية فيها شفاء

في حديث النبي ﷺ : «عليكم بهذه الحبة السوداء ، فإن فيها شفاء من كل داء إلا السام »[١] . والسام : الموت .

ولقد يسَّر الله تعالى للدكتور أحمد القاضي[٢] إعداد بحث في الحبة السوداء ، حيث اكتشف أنها تزيد كفاءة جهاز المناعة بنسبة ٧٢٪ وجهاز المناعة قد خلقه الله تعالى في الإنسان ليقاوم كافة أنواع الأمراض ، إلا السام ..

وفي الحديث : «فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله تعالى »[٣] .

ولو قال النبي ﷺ فإن فيها الشفاء ، لألغى بها كل دواء .. لكنّ النبي ﷺ قال : «فإن فيها شفاءً من كل داء .. » وهذا ما يحدث في تقوية جهاز المناعة الذي يتصدى لكل داء .

وبالطبع لا يمنع استعمال الحبة السوداء من تناول أي دواء حلال .

وإذا مرضت فهو يشفين

أخرج ابن ماجة وغيره من حديث ابن مسعود : «عليكم بالشفاءيْن العسل والقرآن » . صححه الألباني موقوفاً .

قال ابن القيم : فتكون قد جمعت بين الدواء الأرضي والدواء السماويّ .

---

(١) الصحيحة ٨٦٣ .

(٢) د. أحمد القاضي : مدير مستشفى أكير كلينيك بولاية كاليفورنيا ، وهو عالم مصري جليل .

(٣) صحيح الجامع الصغير ٥١٦٤ .

وفي صحيح البخاري أن فاتحة الكتاب «رقية» وقد رقى بها أحد أصحاب النبي ﷺ رجلاً لدغته عقرب فبرئ «كأنما نشط من عقال»(١).

وقال النبي ﷺ: «ضع يدك على الذي تألم من جسدك، وقل: بسم الله ثلاثا، وقل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»(٢).

قال الصحابي راوي الحديث فقلته فذهب عني ما أجد.

وقال النبي ﷺ: «من عاد مريضاً لم يحضره أجله، فقال عنده سبع مرات: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك إلا عافاه الله من ذلك المرض»(٣).

علاج الوجع كما فعل النبي ﷺ:

أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند بسند حسن أن النبي ﷺ عوَّذ رجلا به وجع، وكان لمم ـ أي طرف من جنون ـ فعوَّذه النبي ﷺ بفاتحة الكتاب، وأربع آيات من أول سورة البقرة، والآيتين ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ...﴾ ١٦٣، ١٦٤ من سورة البقرة وآية الكرسي، وثلاث آيات من آخر سورة البقرة، والآية ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ...﴾ ١٨ من آل عمران والآية ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ...﴾ ٥٤ من الأعراف، وآخر سورة «المؤمنون» ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ...﴾ (١١٦-١١٨) والآية «﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ سورة الجن، وعشر آيات من أول سورة الصافات والثلاث آيات من آخر سورة الحشر، وقل هو الله أحد والمعوذتين، فقام الرجل كأنما لم يشكُ قط».

(١) صحيح الجامع الصغير ٧١٢٥.
(٢) صحيح الجامع الصغير ٣٨٩٣.
(٣) صحيح الجامع الصغير ٥٧٦٦.

شفاء من السحر :

أخرج ابن أبي حاتم عن ليث قال : «بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر، تقرأ على إناء فيه ماء ثم يصب على رأس المسحور : **﴿فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن او سيبطله إن او لا يصلح عمل المفسدين ويحق او الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾** [يونس:٨١-٨٢]، **﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [الأعراف:١١٨-١٢١]، **﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾** [طه:٦٩].

لتسهيل الولادة :

أخرج ابن السني عن فاطمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ لما دنا ولادتها، أمر أن يقرأ عندها : آية الكرسي، و**﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾** [الأعراف:٥٤]، تُعوِّذ بالمعوذتين.

خلاصة في المعوذات

أخرج الترمذي والنسائي : «كان رسول الله يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذات فأخذ بها وترك ما سواها» فقد اشتملت من جوامع الدعاء التي تعم أكثر المكروهات من الحسد والسحر وشر الشيطان ووسوسته، وغير ذلك، ولهذا كان ﷺ يكتفي بها.

وفي صحيح الكلم الطيب عن النبي ﷺ أنه قال : «قل هو الله أحد والمعوذتين ثلاث مرات حين تصبح وحين تمسي يكفيك الله من كل شيء»(١).

(١) صحيح الجامع الصغير ٤٩٠٢ .

كيف يهلك الإنسان بصيحة؟

قال الله تعالى: ﴿إن كَانَتْ إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس:٢٩].

الآن يعرف الإنسان أن للصوت ترددات مختلفة، فإذا زاد تردد الصوت عن ٢٠ ألف ذبذبة في الثانية فإن الأذن لا تستقبل هذا الصوت. لماذا؟؟

لأنه خطر على الإنسان استقبال تردد فوق ذلك، أي أنه من رحمة الله تعالى ألا تستقبل الأذن الأصوات الرهيبة ذات الترددات العالية جدا، ذلك لأن استقبالها يصيب الجهاز العصبي بشلل، بما يسمى (بالسكتة العصبية).

وهكذا يخبر النبي ﷺ عمن يتهاون في دين الله، فإذا دخل القبر وعذب صرخ صرخة يسمعها كل شيء، إلا الثقلان (الإنس والجن) ولو سمعاه لصعقا.

ولكن إن غضب الله تعالى على قرية قد فسقت عن أمره سبحانه، ثم أراد الله - سبحانه أن يهلكهم بصيحة فإنهم يستقبلون تلك الصيحة، ولا يستطيعون الهرب منها، ويكون فيها هلاكهم.. (معاذ الله).

﴿إن كَانَتْ إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾.

ثم يبعثهم الله بقدرته.. ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾.

نداء الفطرة

قال تعالى: ﴿وَإذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾

[الأعراف:١٧٢]

في فطرة كل إنسان أن له خالقًا عظيمًا كريمًا ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ .. فإذا كان الإنسان يحتاج إلى الغذاء دل على وجود الغذاء، وإذا كان الإنسان يحتاج إلى الماء دل على وجود الماء، لأن الله الذي خلقنا كريم، له يتركنا هملا، بل هيأ لنا مقومات حياتنا، ومهد لنا الأرض مستقراً ومتاعًا إلى حين؛ ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ .. أما الخلود الذي ينشده الإنسان فهو خلود الآخرة، حيث يعطي الله الخلود الدائم بنعيم أبدي لمن شكر نعماءه، وخلود دائم بعذاب أبدي لمن كفر نعماءه، وتخلى عن تكريم الله له، لأن الله كرمه إنسانًا، ثم نكص ولم يرد، فيقال يوم القيامة: «يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت»(١).

اللهم اجعلنا من أهل الجنة .. ونعوذ بك يا ربي من النار. آمين.

* * * * *

(١) صحيح الجامع الصغير ١٩٤٦ .



الرسول محمد ﷺ

الجزء الثالث

الفصل الرابع

الإسلام والغرب

(الذين افتروا - الذين أنصفوا - الذين أسلموا)

تمهيد

الحمد لله الهادى إلى صراط مستقيم والداعي إلى الدين القويم، يقذف في القلوب النور، ويشرح لدينه الصدور، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام.. وبعد..

فإن الدين الإسلامي هو الدين الذي شرعه الله للبشرية جمعاء، وهو دين جميع الأنبياء.. قال تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ**﴾

[الشورى: ١٣]

وهو الدين الفطري الذي لا ينافي الآراء القوية، ولا تغم حكمته على العقول السليمة وهو لا يكلف العقل الإيمان بما لا يعقل أو يحمل الجسم ما لا طاقة له به.. قال تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج: ٧٨].

وليس في الإسلام من العقائد ما يقف حجر عثرة في سبيل تقدم الإنسان ورقيه وهو الدين الذي يظل البشرية جميعًا تحت مظلة الإخاء البشري لوحدة الأصل الذي منه نشأوا.. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ [النساء: ١].

وهو الدين الذي يناسب كل البيئات والعصور، وتشمل تعاليمه ومفاهيمه ومقاصده مختلف جوانب الحياة سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية أو أخلاقية.

وقد صيغت هذه المفاهيم بصورة كلية، وفي أصول عامة، وأطلق لأهل العصور والبيئات المختلفة حرية الحركة لوضع النماذج التي تتناسب معها، ذلك أنه دين عالمي.

والشريعة الإسلامية ليست أفكاراً فلسفية نظرية، وإنما هي شريعة تطبيقية، الإنسان إزاءها مسئول عن كل صفاته، حيث إن الإسلام يصلح القلوب ويصلح المعيشة.

ويستمد هذا الدين حيويته وانتشاره وقدرته على البقاء من هذه المرونة، وتلك القدرة على العطاء المستمر، ومن هذا التطابق مع الفطرة الإنسانية، ومن كونه بطابعه الإنساني في الإخاء البشري يحرر الإنسان من عبوديته لأخيه الإنسان فيرفع إصر عبودية النفس وعبودية الفكر.

ولذا فهو كما يقول «مسيو هانوتو» - المعروف بعدائه للإسلام - الدين الوحيد الذي يميل الناس إلى اعتناقه بشدة تفوق كل دين آخر، وأيضًا يقول لورانس براون - ذو حيوية مدهشة وقدرة على التوسع والإخضاع.

ويشير ألكسندر دي فال في كتابه «التطرف الإسلامي في أوربا» إلى الإحصائيات التي تقول: إن هناك (٦٣) شخصًا أوربيًا يعتنقون الإسلام يوميًا، وأن دولة مثل فرنسا ستصبح إذا استمر الحال على ما هو عليه غضون ٢٠ عامًا جمهورية إسلامية.

هذه الحيوية وهذه القدرة على الإخضاع تجعل أعداء الإسلام يعملون له حسابًا ويخشونه أشد الخشية، ولذلك يحاولون إضعافه والتشكيك فيه، وتشويه صورته حتى يزهدوا قومهم في اعتناقه ويضعفوا من تمسُّك أهله به.

يقول «أشعيا بومان» في مقاله في مجلة «العالم الإسلامي التبشيرية»: «إن شيئًا من الخوف من الإسلام يجب أن يسيطر على العالم الغربي، ولهذا الخوف

أسباب منها أن الإسلام منذ ظهر في مكة لم يضعف عدديًّا بل يزداد اتباعه باستمرار ومن أسباب الخوف أن هذا الدين من أركانه الجهاد».

وقد أدى هذا الخوف من حيوية هذا الدين إلى تكثيف الحملات ضده، وضد أتباعه على مر العصور: حملات فلكية، لتشويه صورة كتابه، وصورة نبيه، وصوره أتباعه وتشويه تاريخه، وحملات مسلحة لإخضاع أهله والسيطرة عليهم وإذلالهم ونهب ثرواتهم.

إلا أن قوة الحق في هذا الدين، استطاعت أن تنفذ إلى قلوب ذوي الفِطَرِ السليمة والعقول الناضجة، والفهم المستنير، فلم يتأثروا بحملات الجهال وافتراءاتهم وإنما نظروا إلى الأمر نظرة إمعان وتفحص، وتخلوا عن إرادة البغي، وإهمال العقل، والتقليد الأعمى فهداهم الله إلى الحق وشرح صدوهم للإسلام.

ونحن في بحثنا هذا نتناول نماذج لمفكرين غربيين أسلموا.. وقد يتبادر إلى الذهن سؤال مفاده:

لماذا يلقى إسلام الفكرين الغربيين بالذات اهتمامًا... ولماذا يلفت انتباهنا؟

١ ـ لأنهم نشأوا وتربوا في بيئة تخالف تقاليد المسلمين وعاداتهم.

٢ ـ وهذه البيئة التي نشأوا وتربوا فيها تحمل تراثًا قديمًا من العداوة للإسلام وأهله.

٣ ـ وهذا التراث من العداوة جعل صورة المسلم مشوهة، وقد روج لهذه الصورة المشوهة وسائل الإعلام والثقافة ومناهج التعليم، فضلاً عن المؤسسات الدينية، ممثلةً في الكنيسة.. إلا أن الإسلام فيه من عناصر القوة والحيوية ما يجعله يفرض نفسه على كل من يدرسه بحياد وموضوعية وكل من لديه رغبة في الوصول إلى الحقيقة التي بها يطمئن قلبه ويرتاح باله.

٤ ـ أن المفكر الذي يسلم عن اقتناع يصبح درعًا قويًّا يدافع عن الدين وسط إخوانه وذويه وهو الخبير بلغتهم والأدرى بالمداخل التي يصل بها إلى قلوبهم والأقدر على تعرية الباطل الذي كان يمارسه معهم قبل هدايته.

٥ ـ وإسلام هؤلاء يكون له أثر في تصحيح فكر المستغربين من بني جلدتنا من باب «وشهد شاهد من أهلها».

أهمية البحث في هذا الموضوع في الآونة الحاضرة:

ويكتسب البحث في هذا الموضوع أهمية في الآونة الحاضرة من الظروف التي تمر بها الأمة الإسلامية حيث يتعرض الإسلام إلى هجمة شرسة يحمل لواءها سياسيون ومفكرون وإعلاميون ورجال دين مسيحيون حيث ينقلون الصورة المشوهة للإسلام إلى المسلمين لتحويلهم عن دينهم أو على الأقل لزعزعة الإيمان في قلوبهم لأن قوة تمسك المسلمين بدينهم خطر على الباطل وأهله في كل مكان في المعمورة. وإبراز تلك النماذج التي اهتدت إلى الإسلام رغم حملات التشويه المستمرة والتي ترجع جذورها إلى نهاية الحروب الصليبية، يبرز جوانب العظمة في الإسلام التي دعت هؤلاء لإعلان إسلامهم، ومن ثم ينجذب إلى الإسلام أنصار جدد ويزداد ثبات أهل الإيمان على دينهم.

ويبرز من خلال تلك الصورة المشوهة والمظلمة التي يرسمها كتاب ومفكروا الغرب للإسلام والمسلمين شعاعٌ من نور يتمثل في آراء المنصفين والمحايدين منهم الذين تحلّوا بالأمانة العلمية والتي كانت عاملاً من العوامل المساعدة في فهم بعض جوانب الإسلام من جانب هؤلاء الذين أعلنوا إسلامهم.

ومن ثم سينقسم بحثنا إلى أربعة مباحث:

* المبحث الأول: الصورة المشوهة للإسلام لدى الغرب.

* المبحث الثاني: آراء المحايدين والمنصفين من مفكري الغرب في الإسلام.

* المبحث الثالث: نماذج لمفكرين غربيين أسلموا.

* المبحث الرابع: الإسلام دين المستقبل.

* الخاتمة: نلخص فيها ما توصلنا إليه من نتائج وما يضيفه هذا البحث في مجال الدراسات الإنسانية عن الإسلام وكيف يحتل المكانة اللائقة به في العالم، وكيف يجذب إليه أنصاراً ومعتنقين جدداً في كل أنحاء المعمورة.

والله اسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم إنه نعم المجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول

الصورة المشوهة للإسلام لدى الغرب

لقد تعرّض المسلمون ونبيهم وقرآنهم إلى حملات من التجريح والادعاءات الباطلة، وما لم يتعرض له غيرهم، وحملات العداء والكراهية هذه من قبل الغرب، ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، هذا التشويه استمر منذ القرن الثاني عشر حتى اليوم؛ وشارك في ذلك مئات من من المستشرقين وعلماء الإلهيات والفلسفة والتاريخ والأدباء ورجال الدين.

وقد جعل بعض الكتاب الغربيين حملاتهم المعادية للنبي ﷺ وعقيدته على شكل قصائد شعرية أو على شكل مناظرات من نسج الخيال بن رجال الدين الإسلامي والمسيحي(١).

وما نورده في هذا الفصل نقطة من بحر الكراهية الزاخر في الغرب ضد الإسلام، وهو بمثابة «العينة» التي نكتفي بها للتدليل على المقصود.

ولهذه الصورة المشوهة عناصرها ونتائجها العملية في العلاقة بين الغرب المسيحي وبين المسلمين على مستوى الدول وعلى مستوى الأقليات المسلمة في دول الغرب، وهناك أسباب لرسم هذه الصورة المشوهة منها ما يرجع إلى الخبرة التاريخية ومنها ما يرجع إلى ممارسات المسلمين ومنها ما يرجع إلى ما يتمتع به الدين الإسلامي من مقومات ذاتية تثير مخاوف الغرب.

---

(١) د. محمد عبد الفتاح عليان: أضواء على الاستشراق، دار البحوث العلمية ـ الكويت، ١٩٨٠، ص ٢١ – ٢٢.

أولا : عناصر الصورة المشوهة :

١ ـ ربط الإسلام بالتطرف والإرهاب :

يقول المستشرق الألماني جبرنوت روتر «إن الغرب يربط الإسلام بالتطرف والعنف فكل المسلمين متطرفون وكلهم لديهم استعداد لتكفير وقتل من يخالفهم في الرأي(١).

يضيف أن فكرة أن الإسلام قائم على الغزو والفتح والعدوان هي فكرة سيطرت على العقل الغربي عموماً منذ القرون الوسطى حتى اليوم لم يطرأ عليها تغيير(٢).

وقد كان فشل الأوربيين في هزيمة الحضارة الإسلامية الأقوى في الحروب الصليبية، سببا في أن يعمدوا إلى تشويه صورة المسلمين كأسلوب لتقوية صورتهم الذاتية عن أنفسهم، وقد دفعهم الخوف والقلق من الحضارة الأقوى إلى تعريف الإسلام تعريفًا ضيقًا، فصوروه على أنه دين يملؤه العنف والشهوة. وأقد أثرت هذه النظرة في بعض زعماء الإصلاح الديني والفكري في أوربا حيث قال مارتن لوثر زعيم حركة الإصلاح البروتستنتي : إن الإسلام حركة عنيفة تخدم أعداء المسيح، ولا يمكن جلبها للمسيحية، لأنها مغلقة أمام المنطق، ولكن يمكن فقط مقاومتها بالسيف(٣).

ويقول جون اسبوسيتو في كتابه «الخطر الإسلامي أسطورة أم حقيقة» الذي أصدرته جامعة اكسفورد بنيويورك «لماذا نقلل من شأن الإسلام؟» ربما كان ذلك بسبب الجهل، لأن ما يكتب بإنصاف وموضوعية عن الإسلام في الغرب محدود... ولأن وسائل الإعلام الغربية ترسم صورة مخيفة ومكروهة عن

(١) رجب البنا : الغرب والإسلام، دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٧ ص ٢٦٤.

(٢) نفس المرجع ص ٢٦٥.

(٣) سامي هاشم : صورة الإسلام المفترى عليه في أمريكا، جريدة نهضة مصر، العدد ٢٠٥ ـ ٢ نوفمبر ٢٠٠٤، ص١١.

المسلمين، وبعد أن كانت صورة المسلم هي صورة البدوي، وتعدد الزوجات والحريم، أصبحت صورته الآن الإرهابي المدجج بالسلاح المحارب للغرب(١).

٢ - ربط الإسلام بالتخلف:

والغرب ينظر إلى المسلمين على أنهم متخلفون وأن الدين الإسلامي ذاته دين تخلف(٢).

ففي عام ١٩٨٩ صدر كتاب «نهاية التاريخ» لفيلسوف الغرب في فوكوياما الأمريكي يقول فيه إن الإسلام هو السبب في تخلف المسلمين وأنه وراد فشل المسلمين في التفوق علمياً أو صناعيًا أو اقتصادياً وأنه لم يبق للإسلام وللمسلمين إلا استخدام أسلحة الفاشيين وهي العنف، وقد يكون التعبير عنها بتوجيه هذا العنف إلى مظاهر التفوق والتقدم في الغرب(٣).

وفي عام ١٩٩١ صدر كتاب «الإسلام والعصر الحديث» للأب جان كلود بارو بباريس، وفيه يشير إلى المكانة التي أصبح يحتلها الإسلام في الساحة العالمية، وفي فرنسا بصورة خاصة، ثم يتحدث عن كذب «الأسطورة الذهبية» التي تقول إن الإسلام دين تقدمي وأنه دين تسامح، ويسخر من الزعم بأن الإسلام أنجب حضارات كبرى، ويقول إن القرآن كتاب شديد الملل، والإسلام قائم على السلاح وليس على العبادة والتأمل، وهو ضد أي تقدم، وضد حقوق الإنسان، وحقوق المرأة، ثم يوصي الحكومة الفرنسية بأن تعيد تعليم الملايين الثلاثة من المسلمين الفرنسيين لإزالة الخرافات الإسلامية من أذهانهم(٤).

وقال الباحث الفرنسي جاك أوستروي في كتابه «وجه الاقتصاد الإسلامي» أن عقيدة الجبر عند المسلمين هي التي أضعفت فعاليتهم الاقتصادية وأن تحريم الربا من

(١) د. محمد عمارة: الإسلام في عيون غربية، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٥، ص٢٨٨ – ٢٨٩ .

(٢) رجب البنا: الغرب والإسلام، دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٧ ص ٢٤٥ .

(٣) نفس المرجع السابق، ص ٢٣٧ – ٢٣٨ .

(٤) المرجع السابق، ص ٢٧٣ .

عوائق التنمية الاقتصادية، وأن عقيدة البعث كعقيدة القدر معوقة لاقتصاد الإسلام(١).

ويحاول المفكرون الغربيون: والمستشرقون إشاعة فرية أن التخلف الحضاري للشعوب الإسلامية سببه تمسكهم بالدين وأنه ليس أمامهم إذا أرادوا أن يتغلبوا على هذا التخلف إلا أن يتخلصوا من تعاليم دينهم أولا، وأن ينحوا الإسلام بعيداً عن شئون حياتهم اليومية، ليكون قضية شخصية يمارس الإنسان طقوسه وشعائره إذا أراد ذلك في بيته أو في المسجد وكفى، ويقارن هؤلاء بين تقدم الغرب وتأخر الشرق ويدعون أن تقدم الغرب كان سببه هو التخلص من الدين عموماً، والتمسك بمنطق الدين فقط، وليس أمام الشرق إلا أن يسلك مسلك الغرب في ذلك لأنه النموذج الأفضل للتقدم ومواكبة علوم العصر.

وأصبح يتولى عبء الدفاع عن هذه القضية ـ للأسف الشديد بعض المحترفين للكتابة من المسلمين تحت ستار التنوير والمعاصرة واستغلوا الوضع المتردي للمسلمين ليقنعوهم بأن سبب هزائمهم المتكررة هو التمسك بالإسلام، وتناسى هؤلاء أن للعصر أسبابه وللنهضة أسبابها وللهزيمة أسبابها وللتأخر أسبابه وأن إقحام الدين في ذلك تضليل وافتراء، وأن من أهم أسباب التخلف والهزيمة هو ما يسود الشرق من نظم استبدادية(٢).

وأنه عندما وجدت حقيقة الإسلام لدى المسلمين، وصلوا من التقدم ذورته، ومن الحضارة قمتها، تلك الحضارة التي استقت منها أوربا حضارتها، فالدين ليس سبب التخلف وإنما للتخلف أسبابه، ولقيام الحضارات أسبابها، وتلك سنة الله في كونه لا فرق فيها بين أمة مسلمة وأمة كافرة، والدين لا يتعارض مع التقدم، وكل ما هو دين صحيح لابد أن يكون فيه تقدم للبشرية وأمن وأمان لها، حيث يركز على التحضر في السلوك البشرى ليواكب التقدم المادي في الأشياء.

(١) د. أحمد محمد جمال: مفتريات على الإسلام، ط٣، دار الشعب، ١٩٧٥، ص١٦٧.

(٢) د. محمد السيد الجليند: الاستشراق والتبشير، دار نهضة الشروق، جامعة القاهرة ١٩٩٦، ص٦٨ – ٦٩.

٣ ـ الغزو :

كما كتب « ريتشارد نيكسون » الرئيس الأمريكي الأسبق والمفكر الإستراتيجي في كتابه « الفرصة السانحة » يصور عمق العداء الأمريكي والغربي للمسلمين كتب يقول : « إن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين على أنهم غير متحضرين ودمويون وغير منطقيين » وأن سيوف محمد وأتباعه هي السبب في انتشار الدين الإسلامي في آسيا وإفريقيا وحتى أوربا، وليس هناك صورة أسوأ من هذه الصورة، حتى بالنسبة للصين الشيوعية في ذهن وضمير المواطن الأمريكي عن العالم الإسلامي . ويحذر بعض المراقبين من أن الإسلام والغرب متضادان وأن الإسلام سوف يصبح قوة جيوبوليكية متطرفة وأنه مع التزايد السكاني والإمكانات المادية المتاحة، سوف يؤلف المسلمون مخاطر وأنهم يوحدون صفوفهم للقيام ضد الغرب وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العداوني للعالم الإسلامي[١] .

وتتضح صورة الإسلام المشوهة في الثقافة الغربية للإسلام والمسلمين منذ فجر الإسلام حين نطالع ما كتبه المستشرق الفرنسي اليهودي الأصل « مكسيم رودنسون » [١٩١٥ ـ ٢٠٠٤][٢] حيث بين أن الغرب قد صور العرب والمسلمين باعتبارهم « الوباء الموجع، والشعب الهائج، الذي عرف بالسلب والنهب والتخريب » !!

٤ ـ الوثنية :

وصور الإسلام باعتباره وثنية شرقية، وهرطقة مسيحية، يعبد أهلها الثالوث : محمد . . وترفا جانت . . وأبولو !!

وصور رسول الإسلام ﷺ ساحراً مخادعًا، أباح الاتصالات الجنسية وهو كبير آلهة العرب الذي تصنع ثمينة بأحجام هائلة .

---

(١) نيكسون : الفرصة السانحة، ترجمة أحمد صدقي مراد، طبعة دار الهلال ـ القاهرة ١٩٩٢ ص ٢٨ .

(٢) د. محمد عمارة : الإسلام في عيون غربية، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٦٢ ـ ٦٣ .

وهذه الصورة التي شاعت في الثقافة الغربية القديمة وجددتها الإمبرالية الحديثة لشحن جماهير الشعوب الغربية وراء المشروع الأمبريالي الساعي لاحتلال الشرق ونهب ثرواته في العصر الحديث، وتم استخدام كتب الأطفال والأدب الشعبي لإشاعة هذه الصورة.

٥ ـ الاستبداد والحكم الديكتاتوري:

ويدعي كثير من كتاب الغرب أن الإسلام ذاته ضد الحرية والديمقراطية، وضد حقوق الإنسان، وقوانينه لا تقبل التعديل أو التطور، والحكم باسم الشريعة يعني الحكم الديكتاتوري المطلق(١).

ويقول برنارد لويس المعروف كمؤرخ متخصص في شئون الشرق الأوسط: «إن طبيعة الإسلام وتاريخه والعلاقة بين الإسلام والسلطة لا تجعل الإسلام والديمقراطية رفيقين، وإن الإسلام خلال تاريخه لم يعترف أبداً بالمؤسسات النيابية مثلما حدث في اليونان أو في القوانين الرومانية، والدولة الإسلامية دولة ثيوقراطية، ليس بالمعنى الغربي الذي كان يعرف الدولة الثيوقراطية بأنها دولة تحكمها الكنيسة، ولكن في الإسلام الدولة يحكمها الله! ويفهم المسلمون إن الله يحكم بالمعنى الحرفي، ويؤمنون بأن السلطة تأتي من الله وحده وحيث أن الحاكم يستمد سلطته من الله والقانون المقدس وليس من الشعب فإن معارضة سلطة الحاكم هي تحد الله، ومخالفته خطيئة، وحكم الفرد هو القاعدة، ولا تجد مفاهيم التعددية أو النقد أو حق الاختلاف قبولاً من المسلمين..! ولذلك فإن الإسلام ضد حقوق الإنسان!(٢).

يقول الأب جيوم رينال: «لا يوجد ما هو أكثر تكبيلا للحرية من الإسلام».

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٥٨.

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٩.

ويعلن فيلسوف الغرب الجديد فرنسيس فوكويا ما الأمريكي في كتاب «نهاية التاريخ» الذي ظهر عام ١٩٨٩ أن الإسلام أصبح خطراً كبيراً على الممارسات الليبرالية، وأن هناك تشابه بين الأصولية الإسلامية، والنازية الأوربية(١).

وهكذا يخلطون خلطًا متعمداً بين الإسلام الذي ينص على حرية الإنسان وينبذ العنف ويدعو إلى الحوار ويفشي السلام وينادي بحفظ الدماء والأموال والأعراض وبين الإسلام كما يصوّرونه في جماعاتٍ من العنف والإرهاب أو في حكومات ديكتاتورية تريد تبرير نظم القهر فتدعي أنها تحكم بالإسلام.

وقد استغل الغرب عدوان صدام حسين على الكويت في أغسطس ١٩٩٠ أفضل استخدام كما يقول المستشرق الألماني جيرنوته روتر «ودارت عجلة الإعلام الهمجية في الغرب لتصور هذا العدون على أنه تعبير عن الخطر الإسلامي، ولا تصوره على أنه نوع من الاعتداء السياسي والعسكري يمثل أطماعًا في التوسع وفرض النفوذ.

وتم تصوير صدام على أنه المعبر عن روح الإسلام العدوانية الشريرة التي تعلن غير ما تخفي، وتضمر الشر والعدوان بغير حدود(٢).

وفي محاضرة ألقاها الدكتور برنارد لويس الباحث الأمريكي في جامعة جيفرسون عام ١٩٩٠ تحدث عن المسلمين على أنهم جميعًا أصوليون متشددون وعن الإسلام على أنه خطر قائم.

٦ ـ المرجعية المتحجرة ومعاداة الحداثة:

وينظر في الغرب إلى الإسلام على أنه ظاهرة ثابتة متحجرة عقائديا وثقافيا واجتماعيًّا، وأنه دين يعادي الحداثة ورجعي وأنه دين يلغي العقل لأنه أغلق باب الاجتهاد منذ القرن العاشر(٣).

(١) رجب البنا: الغرب والإسلام، دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٧ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٦٢. (٣) نفس المرجع السابق ص ٢٨٨، ٢٨٩.

ويرى هايس ديترفنتز سفير ألماني سابق له خبرة بالإسلام والمسلمين أن الغربيين يرون الإسلام خطراً عليهم حيث يخلطون بين الإسلام السياسي كأيديولوجية والإسلام كدين.

ويشير القائد الأعلى السابق لحلف الأطلنطي جون كلفان إلى الإسلام على أنه الخطر القادم من الجنوب.

يقول في محاضرة ألقاها عام ١٩٩١: «لقد عرف هذا القرن أطول مواجهة بين الغرب والإسلام طالت أكثر من ألف سنة، واشتعلت منذ العصور الصليبية إلي العصر الحديث، وبعد أن انتصر الغرب في الحرب الباردة، يعود الصراع أمام الغرب إلى محوره الرئيس، وهو المواجهة مع الإسلام»(١).

٧ ـ الصورة المشوهة للرسول ﷺ:

وفيها اتهم الرسول ﷺ بالذكاء والاحتيال والكذب والتزييف والخداع والإصابة بالصرع.

في عام ١٦٧٤ كتب الأب لويس موريري في القاموس التاريخي الكبير «محمد نبي مزيف عربي الموطن، دفعه الفقر إلى أن يخدم عند أحد التجار العرب، وعند وفاة هذا التاجر قام بإمتاع أرملته المسماة خديجة «كاديج» لدرجة أنه تزوجها وزصبح وريثها الوحيد، فاستخدم أموالها ليزدهر ويخدم طموحاته، وبعد ذلك شارك كل من ما يتراس وهو هرطقي يعقوبي، والأب سرجيوس وهو راهب نسطوري وبعض اليهود الذين عاونوه على تجميع القرآن، وبذلك أصبح ديناً مكوناً من جزء من اليهودية وجزء آخر من أخلام هرطقية، وقامت جماعة من اللصوص الذين لا يعرفون الله ولا الدين باعتناق هذه الديانة(!)»(٢).

---

(١) رجب البنا: الغرب والإسلام، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٧ ص ٢٩١.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢٧٣.

والأغرب من ذلك كلام الأديب الفرنسي بيريبل في القرن الثامن عشر في «القاموس التاريخي والنقدي»: إن الملك جبريل علم محمد وصفة تمنحه قوة فائقة للاستمتاع بالنساء وعندما أكل منها أول مرة هزم أربعين رجلا ومرة أخرى ضاجع أربعين امرأة دون أن يتعب.. (!!)(١).

وقبل ذلك كتب أحد المتخصصين في العلوم الإنسانية في فرنسا في عام ١٦٣٢ في كتابه «التاريخ العام للأتراك»: «إن محمداً الغارق في الملذات المنحرفة لم يخجل من أن يقول في قرآنه «إن الله قد حباه بقوة أربعين شخصًا» وبما أن محمداً لم يكن بوسعه أن يقوم بمعجزات الأنبياء فقد استعان بالخداع والخرافة، وكان يحمل الناس ليشاهدوا روح الله تنزل عليه، وكان هناك حمامة مدربة تطير من مكان قرب منكبيه وتلتقط الحب الذي كان يضعه لها في فتحة أذنه موهما العرب أنها كانت تملي عليه كتاب الله وشريعته...»(٢).

ويقول هولباخ في كتاب معروف بعنوان «الأخلاق العالمية»: لقد ظهر محتال في بلاد العرب ارتجل الأكاذيب باسم السماء وساتطاع أن يفرضها على عشريته، وسرعان ما أصبحت هذه الأكاذيب مقدسة، انتشرت بالسلاح في آسيا وإفريقيا وأوربا، إن شريعة محمد أقيمت بالسلاح وهي تطيح بالعروش لتقيم الطغيان الإسلامي على أنقاضها»(٣).

وفي قاموس الفنون والعلوم تعريف للإسلام يقول: «الإسلام دين أتى به محمد الذي كان شديد الذكاء بحيث تعلم العهد القديم والعهد الجديد وتخيل

(١) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٣، وانظر أيضًا: د. محمد ياسين مظهر: الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، دار الصحف ١٩٨٨، ص٣٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٧١ .

منهما ديانة أقامها نقلا عن ظهر قلب، وقسمها إلى مئة وأربعة عشر فصلا [يقصد سور القرآن الكريم] مليئة بالروايات والأكاذيب(!) والوعد في هذا الكتاب لمن يقرأه ألف مرة حورية في الجنة تكون حواجبها بعرض قوس قزح »(١).

ويقول الفيلسوف الفرنسي بونودي كونديلاك أن الرسول ﷺ « كون مشروعه بمحض المصادفة، وبفضل جرأته واحتياله استطاع أن يتمه، لأن الظروف ساعدته على ذلك، وقد كان مصابا بالصرع، وذات يوم فاجأته زوجته في إحدى النوبات وتخيلت أنه في حالة وجد، واستغل محمد سذاجتها، وأكد لها أنه يرى الرؤيا وأن الله يحدثه خلالها عن طريق الملاك جبريل، وقامت زوجته بنقل ذلك لنساء أخريات معلنة أن زوجها نبي، وانتشر الخبر وتراكمت النبوءات واتبعت الجماهير ذلك الرجل الملهم الذي أقنعهم بخصوبة خياله(٢).

وادعى المستشرق اليهودي جولد تسيهر في كتابه « العقيدة والشريعة في الإسلام » أن محمداً كان كثير الانشغال بالنساء، وأنه وضع القرآن وأنه اكتسب معارفه الإلهية وتشريعاته الدينية من الكهنة والرهبان وأنه استقبل بيت المقدس ارضاءً لليهود(٣).

وقد كانت أباطيل يوحنا الدمشقي وأمثاله من رجال بيزنطة في القرن الثامن مصدراً استقت منه أقطار غرب أوربا معلوماتها الأولية عن الإسلام، فقد عاش في الفترة من ٧٠٠ – ٧٥٤م وادعى في كتابه « حياة محمد » أن النبي اطلع على العهد القديم والعهد الجديد، واتصل بأحد أتباع « أريوس » الذي كان يعتقد بالتوحيد

---

(١) المرجع السابق، نفس الصحفحة.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧١ .

(٣) انظر الرد على هذه المفتريات في كتاب مفتريات على الإسلام لأحمد محمد جمال، طبعة دار الشعب، ط٣، ١٩٧٥، ص ١٢١ – ١٦٣ .

المجرد وأخذ منه دعوته التي أسس الإسلام على أساسها وادعى نزول كتاب عليه وضع فيه فرائض مضحكة على أنها الشريعة. ويوحنا الدمشقي هو القائل بفرية أن النبي عشق زينب بنت جحش وهي تحت زيد بن حارثة عندما رآها في حال أثارت عشقه، وقد فند هذه الفرية كثير من مفكري المسلمين وردوا عليها، وكان يوحنا يجادل بالباطل ويستدل بالإسرائيليات(١).

وفي القرن الثاني عشر مع نهاية الحروب الصليبية التي بدأت ١٠٠٢م وانتهت ١٠٩٦ وبعد فشل الأوربيين في هذه الحروب زادت جهودهم لإفساد عقيدة المسلمين، وكتب القس إلجوس قرطبة Elgaus Kordoup ترجمة للنبي ﷺ ذهب فيها إلى أنه كان يخبر أصحابه أنه سيرفع إلى السماء بعد ثلاثة أيام من وفاته فلما مات بقى بدون دفن إلى أن يرفع حتى تعفن جسده وأخذت الكلاب تنهش فيه(٢).

ويبين الكونت هنري دي كاستري في كتابه «الإسلام: خواطر وسوانح» روح العداء السائدة عند الأوربيين والتي لم تقتصر على العصور الوسطى والتي تبرز في الصورة المشوهة التي ينشرونها للنبي ﷺ، فقالوا إن محمداً كان يدعو الناس لعبادته في صورة وثن من ذهب، وذهبوا إلى أن صوره كانت تصنع من أنفس الأحجار والمعادن بأحكم صنع وأدق إتقان، وألف بريدو الإنجليزي كتابا سماه «حياة ذي البدع محمد».

وزعم جولد تسيهر أن محمداً ﷺ كان كثير الانشغال بالنساء وشكك كثير من رجال الكنيسة ورجال الاستعمار في صدق الرسول، رغم أن أهل مكة كانوا يسمونه الصادق الأمين، وزعموا أن حالات الوحي التي كانت تعتري الرسول إنما هي حالات مرض وصرع، علماً بأنه لم يلحظ عليه ذلك قبل الأربعين وهو سن

(١) د. محمد عبد الفتاح عليان: أضواء على الاستشراق، دار البحوث العلمية.

(٢) المرجع السابق ص ٢٣.

البعثة ويكذب الطب مزاعمهم حيث يبين أن هناك اختلاف كلي بين أعراض الصرع وأعراض الوحي[١].

وزعموا أن الطمع وحب الدنيا هو الذي أقام محمداً وأثاره[٢]، ويرد كارلايل على ذلك بقوله: «لقد كان زاهداً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه، وسائر أموره وأحواله، فكان طعامه عادة الخبز والماء، وكثيراً ما تتابعت الشهور ولم يوقد بداره نار».

واتهم كل من ليوني كايتاني، جولدزيهر، وبندلي جوزي وبرناردلويس الفتح الإسلامي بأنه لم يكن موجهًا نحو المثل الأعلى وحده، بل إن العرب كانوا جياعًا في جزيرتهم فخرجوا يلتمسون الأكل! إثر قحط نزل ببلاده ولم يخرجوا عن عقيدة وإيمان، فكان الحافز على الفتوحات الإسلامية الرغبة في التوسع الاقتصادي أو الحاجة إلى مزيد من الإثراء[٣].

وقالوا إن فقر الرسول دفعه إلى إعلان الثورة على الأغنياء وأن القبائل العربية أسلمت لأسباب اجتماعية واقتصادية وأن الفتوح الإسلامية استعباد وإذلال للأمم الأخرى[٤].

وزعموا أنه ليس نبيا بادعائهم أنه عبقري وبقولهم أنه أحد العظماء العشرة في العالم أو أنه طالب رياسة وزعامة أو مصلح اجتماعي... الخ[٥].

---

(١) أتيين دينيه: محمد رسول الله ترجمة عبد الحليم محمود، دار المعارف، ١٩٧٩، ص٢٠.

(٢) مسيوها نوتو: الإسلام، ص٦٠.

(٣) انظر الرد على هذه المفتريات في نفس المرجع السابق ص ٥٣ - ٦٦ وانظر: د. محمد ياسين مظهر صديقي الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، دار الصحوة للنشر، ١٩٨٨ ص ٥٨ - ٦٠.

(٤) بندلي جوزي: الحركات الفكرية في الإسلام وانظر رد أحمد محمد جمال في كتاب مفتريات على الإسلام ص ١٦٧ - ١٧٩.

(٥) د. محمد السيد الجليند: الاستشراق والتبشير، دار نهضة الشروق - جامعة القاهرة، ديسمبر ١٩٩٦، ص٣٤.

٨ - تشويه صورة القرآن الكريم :

وكما لم يسلم الإسلام والنبي ﷺ من تشويه صورته لم يسلم القرآن أيضًا من ذلك، وسبب حقدهم على القرآن أنه :

١ - اتهم أتباع التوراة والإنجيل بتحريفهما .

٢ - ينكر القرآن الأسس الثلاثة التي تقوم عليها المسيحية وهي التثليث والصلب والنداء .

ويدعي أهل الغرب أن القرآن من تأليف محمد ويستدلون بقولهم أن به أخطاء تاريخية متمثلة في قول القرآن لمريم عليها السلام « يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء . . . » مع أن بين هارون أخو موسى وبين عيسى عليه السلام ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة وقد أبطل واحد منهم وهو المستشرق جورج سيل هذا الادعاء في ترجمته للقرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية قائلاً في الحاشية : « إن ما يعترض به أصحابنا النصارى على ما جاء في هذه الآية ساقط لأن أحدا من المسلمين لم يفسر هارون المذكور بأنه أخو موسى » .

وادعى المستشرق اليهودي جولد تسيهير في كتابه « العقيدة والشريعة في الإسلام » أن تغيير القرآن بين العهدين المكي والمدني دليل على تأثر محمد في وضعه للقرآن بالظروف الاجتماعية، وأن قصة إبراهيم عليه السلام مفتعلة في القرآن وأن محمداً اقتبس القرآن من الكهنة والرهبان وأن ما ذكر في القرآن من تحريف التوراة والإنجيل وضعه محمد بإيعاز من اليهود والنصارى الذين أسلموا وكان ذلك تملقًا منهم(١) .

وقالوا عن القرآن أنه قليل الرأفة بالنساء .

وادعوا أن القرآن متناقض وذلك لسوء فهمهم لأسلوب القرآن ومعنى آياته وأسباب نزولها .

---

(١) انظر الرد على هذه المفتريات في كتاب مفتريات على الإسلام لأحمد محمد جمال، طبعة دار الشعب، ط٣، ١٩٧٥، ص ١٢١ – ١٦٣ .

وضربوا مثلا لما ادعوه من التناقض بقول القرآن ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

ويقولون أيضًا أن ما هم عليه من العقيدة حق لأن القرآن ضمن لأتباع المسيح عليه السلام العزة والانتصار في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥].

٩ ـ المرأة عنصر الصورة المشوهة:

وقالوا إن الزوجات المسلمات يعشن كالإماء والبهائم، وأن الطلاق في الإسلام قسوة وظلم للمرأة وجعله في يد الزوج استبداد بالزوجة، وقالوا إن تعدد زوجات الرسول دليل على شهوانيته الطاغية، ونظروا إلى الحجاب على أنه رمز لقهر المرأة ومصدر فجور واستباحة أخلاقية مستترة خلف الحواجز والأسوار(١).

ويقول المستشرق الألماني جيرنوت روتر «تحتل مكانة المرأة في المجتمعات الإسلامية مقامًا متميزًا في برنامج الغرب الخاص بصورة العدو الوهمي، وهذه فكرة نمطية تعود جذورها إلى القرون الوسطى، فقد كتب رئيس كتدرائية مدينة مانتس في ألمانيا ايمبريجو يقول: «إن المسلمين يحتفلون بجميع أشكال الزواج التي تحرمها الشريعة الإلهية، ولأنهم جردوك أيها الطبيعة من حقوقك غصبًا، تسعى المرأة إلى ممارسة السحاق مع نظيرتها، ويمارس الرجل اللواط مع مثيله، بل خلافا للتقاليد، يجامع الشقيق شقيقته، ولا تمانع الأخت المتزوجة أن يضاجعها أخوها الشيطان.

(١) انظر الرد على هذه المفتريات: عبد الرحمن العيسوي: لماذا أسلمت... مكتبة وهبة ١٩٨١، ص٦٦ ــ ٦٨، وانظر أيضًا سامي هاشم: صورة الإسلام المفترى عليه في أمريكا، جريدة نهضة مصر، العدد ٢٠٥، ٢ نوفمبر ٢٠٠٤ ص١١ وانظر أيضًا د. احمد محمد جمال في كتاب مفتريات على الإسلام ص ٧٥ ــ ١١٧.

الأبناء يهتكن عرض أمهم، والبنت تغتصب أباها، وكل ما هو محبب على هذا المنوال كانت الشريعة الجديدة (الإسلام) تحلله(١).

ويبين جيرنوت رونز أنه نظر المثل هذه الكتابات السطحية الوضيعة لا يستطيع المرء أن يتخلص من الإحساس بأن هؤلاء الكتاب قد أرادوا إشباع تخيلاتهم الجنسية الشاذة من ناحية، وسعوا من ناحية أخرى إلى صرف الأنظار عن أوضاع معينة موجودة بالفعل في الغرب المسيحي. ولم يقلل من هذه النظرة ما هو موجود في الغرب من الإباحية الجنسية، وأشار إلى أن هناك فكرة نمطية ثابتة لدى الغرب باضطهاد المرأة في المجتمعات الإسلامية، وهم يريدون من خلال تقديم الزوج المسلم المعتدي على زوجته كقاعدة، أن يجعلوا مثلا من وجود «بيوت النساء» المخصصة للزوجات المعتدى عليهن في الغرب المسيحي نسيا منسيًا(٢).

تطبيقات عملية لمشاعر العداء في أوربا:

وكان لنشر هذه الصورة المشهوة للإسلام أثره في تذكية مشاعر العداء ضد العرب والمسلمين، ويذكر جون اسبوسيتو في كتابه «الخطر الإسلامي أسطورة أم حقيقة» نماذج لمشاعر العداء هذه مثل رفض الحكومة البريطانية تقديم الدعم للمدارس الإسلامية وتقديمه للمدارس الكاثوليكية واليهودية، ومثل ما صدر من قرارات في فرنسا بمنع التلميذات المسلمات من لبس الحجاب(٣).

ويذكر محمد عاكف في كتابه «Introduction to Islam مدخل إلى الإسلام» أن المسلمين المقيمين في دول أوربا يعانون من التعسف، ويعتبرون من الطبقة العاشرة من حيث المعاملة، وليس لهم ما لغيرهم من الحقوق(٤).

(١) رجب البنا: الغرب والإسلام، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٧ ص ٢٦٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٦٩ .

(٣) محمد عمارة: الإسلام في عيون غربية، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٥ ص٢٨٩ .

(٤) Mohamed Akif: Introduction to Islam , Safer International Publishing , Cairo , 2003 , P. P 139 , 140 .

ولا يخفى أن مشاعر العداء هذه كانت وراء تكاتف دول أوربا مع أمريكا في غزو كل من أفغانستان والعراق.

السر وراء حملات التشويه:

١ - إبراز الذات بعد الهزيمة في الحروب الصليبية.

٢ - استمرار الإحساس النفسي بهذه الهزيمة والخوف من تكرارها إذا وصل المسلمون إلى القوة التي تمكنهم من ذلك.

٣ - طبيعة الإسلام وأنه ليس مجرد ممارسات تؤدى داخل دور العبادة مثل المسيحية وإنما هو دين وثقافة وأسلوب حياة وأسلوب تفكير ويؤثر في جميع مجالات الحياة.

٤ - الخوف من تزايد عدد المسلمين بسبب النمو السكاني التي تزداد في البلاد ذات الثقافة الإسلامية وتتراجع في تلك البلدان ذات الثقافة المسيحية.

٥ - المراكز الثقافية والمساجد للمسلمين المهاجرين في الدول المسيحية ويعد ذلك فتحًا جديداً وبرنامجًا للتوسع.

٦ - القلق من وجود جاليات إسلامية كبيرة داخل أوربا.

٧ - القلق من سرعة انتشار الإسلام في أوربا.

٨ - الانزعاج من الجاليات الإسلامية الكبيرة ومن الهجرات الآتية من عالم الإسلام، ومن إمكانية وصول المسلمين إلى السلطة السياسية في الدول الأوربية التي تغطها هذه الجاليات خاصة أوربا الغربية.

٩ - الخوف من الإسلام لقدرته على التوسع والإخضاع ولكون الجهاد فريضة من فرائضه.

ويرجع أصل حملات التشويه من الغرب ضد الإسلام إلى القرن الثامن حيث أباطيل يوحنا الدمشقي وأمثاله من رجال بيزنطية التي انتقلت إلى أقطار غرب أوربا فكونت معلوماتها الأولية عن الإسلام.

ثم ازدادت حملات التشوية بإيعاز من لويس التاسع بعد فشل الحروب الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر.

فبعد دخول كثيرمن اليهود والنصارى في الإسلام حمل القس يوحنا الدمشقي حملة شديدة على الإسلام فكان من الذين حملوا راية التضليل والدس على الإسلام.

وقد شهد القرن الثاني عشر مع نهاية الحروب الصليبية التي بدأت ١٠٠٢م وانتهت ١٠٩٦ جهوداً أوربية لإفساد عقيدة المسلمين حيث أوصى لويس التاسع بتكتل هذه الجهود بعد فشل الحروب الصليبية. وكان أول ما صوبوا إليه سهامهم القرآن الكريم فقدم القس بيتر لأربع تراجم قرآنية.

وكان فشل الأوربيين في هزيمة الحضارة الإسلامية الأقوى في الحروب الصليبية سببًا في أن يعمدوا إلى تشويه صورة المسلمين كأسلوب لتقوية صورتهم الذاتية عن أنفسهم، وقد دفعهم الخوف والقلق من الحضارة الأقوى إلى تعريف الإسلام تعريف ضيقًا، فصوروه على أنه دين يملؤه العنف والشهوة، وقد أثرت هذه النظرة في بعض زعماء الإصلاح الفكري والديني في أوربا حيث قال مارتن لوثر زعيم حركة الإصلاح البروتستي: «إن الإسلام حركة عنيفة تخدم أعداء المسيح ولا يمكن جلبها للمسيحية لأنها مغلقة أمام المنطق ولكن يمكن فقط مقاومتها بالسيف»(١).

(١) سامي هاشم: صورة الإسلام المفترى عليه في أمريكا، جريدة نهضة مصر، العدد ٢٠٥، ٢ نوفمبر ٢٠٠٤، ص١١.

ويرى كيمون المستشرق الفرنسي أن يخلي وجه الأرض من الإسلام والمسلمين ويستحسن رأيه هانوتو وزير خارجية فرنسا الأسبق ـ لولا ما يقف في طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين.

ويقول كيمون في كتابه «باثولوجيا الإسلام»: إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعًا، بل هو مرض مريع، وشلل عام، وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه من الخمول والكسل إلا ليدفعه إلى سفك الدماء والإدمان على معاقرة الخمور وارتكاب جميع القبائح، وما قبر محمد إلا عمود كهربائي بعث الجنون في رؤوس المسلمين فيأتون بمظاهر الصرع والزهول العقلي إلى ما لا نهاية ويعتادون على عادات تنقلب إلى طبائع أصله لكراهة لحم الخنزير والخمر والموسيقى.

إن الإسلام كله قائم على القسوة والفجور في اللذات.

ويتابع هذا المستشرق المجنون: أعتقد أن من الواجب إبادة خمس المسلمين، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة، ووضع قبر محمد وجثته في متحف اللوفر[١].

والصورة المغلوطة ضد الإسلام والمسلمين ما زالت المؤسسات السياسية والإعلامية والدينية والاقتصادية تشحن بها الأذهان الغربية باختراع الأغاليط، والأكاذيب والمبالغات في ضوء فلسفات الصراع والصدام والقوة ضد الآخر وبتسليط الأضواء على سلبيات التاريخ ونفاياته. هذه المؤسسات تتخذ الجوانب الصراعية من تاريخ علاقات الغرب بالشرق «فزاعة» تخيف بها شعوبها من الإسلام، ولا تشير من قريب أو من بعيد إلى قرون الغزو الاستعماري للشرق والقهر

(١) عبد الودود يوسف: قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة عام ١٩٩٤، ص ٤٢.

الحضاري والسياسي والثقافي والديني، والنهب الاقتصادي من الإسكندر الأكبر (٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق. م) وحتى هذه اللحظات[١].

قد دأبت المؤسسة الدينية الكاثوليكية على تأجيج حملات التخوف من الإسلام على أوربا منذ سنوات طوال.

فالمونسنيور «جوزبي برنارديني» يصرح ـ بحضرة بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني ـ في سنة ١٩٩٩م فيقول «إن العالم الإسلامي سبق أن بدأ يبسط سيطرته بفضل دولارات النفط وهو يبني المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين في الدول المسيحية، بما في ذلك روما عاصمة المسيحية، فكيف يمكننا ألا نرى في هذا برنامجاً واضحاً للتوسع، وفتحاً جديداً»[٢].

وفي نفس التاريخ يتحدث الكاردينال «بول بوبار» ـ مساعد بابا الفاتيكان ومسئول المجلس الفاتيكاني للثقافة ـ إلى صحيفة «الفيجارو» الفرنسية ـ فيقول: «إن الإسلام يشكل تحدياً بالنسبة لأوربا والغرب عموماً، وإن المرء لا يحتاج أن يكون خبيراً ضليعاً لكي يلاحظ تفاوتاً متزايداً بين معدلات النمو السكاني في أنحاء معينة من العالم، ففي البلدان ذات الثقافة المسيحية يتراجع النمو السكاني بشكل تدريجي، بينما يحدث العكس في البلدان الإسلامية النامية. في مهد المسيح يتساءل المسيحيون بقلق عما سيحمله لهم الغد عما إذا لم يكن موتهم مبرمجاً بشكل ما؟ إن التحدي الذي يشكله الإسلام يكمن في أنه دين وثقافة ومجتمع أسلوب حياة وتفكير وتصرف، في حين أن المسيحيين في أوربا يميلون إلى تهميش الكنيسة، أمام المجتمع ويتناسون الصيام الذي يفرضه عليهم دينهم وفي الوقت ينبهرون بصيام المسلمين في شهر رمضان[٣].

---

(١) د. محمد عمارة: تركيا المسلمة والنادي المسيحي الأوربي، مجلة الأزهر المحرم ١٤٢٦ هـ ص ٧٣.

(٢) نفس المرجع السابق، نفس الصفحة نقلاً عن صحيفة الشرق الأوسط اللندنية في ١٣/ ١٠/ ١٩٩٩.

(٣) نفس المرجع السابق ص ٧٣ ـ ٧٤ نقلاً عن صحيفة الشرق الأوسط اللندنية في ١/ ١٠/ ١٩٩٩.

ونشرت صحيفة العالم الإسلامي في مكة رسالة للكاردينال « جاكوموبيفي » أسقف مدينة « بولونيا » بإيطاليا في ٦ / ١٠ / ٢٠٠٠م يدعو فيها إلى استئصال المسلمين من أوربا فيقول: « فإما أن تتحول أوربا إلى المسيحية فوراً وإما ستكون إسلامية مؤكداً ».

وقد نشرت مجلة « شئون دولية International Affairs الصادرة في « كمبردج » مجلد ٦٧ عدد يناير ١٩٩١ دراسة عن الإسلام والمسيحية كتبها العالم البريطاني «إدوار مورتيمر Edword Mortimer إن أوربا، التي اعتادت أن تعرف نفسها من خلال تحديد الآخر، كان لا بد من أن تبحث عن آخر جديد يحل محل الاتحاد السوفيتي المعسكر الشرقي بعدما انهارت أيديولوجيته، وكان هذا الآخر هو الإسلام(١).

وقد أثار قلق أوربا وجود جاليات إسلامية كبيرة داخل أوربا الغربية.

فيقول ألكسندردي فال وهو خبير في الدراسات الدولية والاستراتيجية في باريس في كتابه Guerres contre L'Europe « التطرف الإسلامي في أوربا »: إن نسبة كبيرة من الأجيال العربية المهاجرة - من أصول إسلامية - انتهت بأن أصبحت أغلبية في عدد من الأحياء والمدن والضواحي خصوصاً في فرنسا وإنجلترا وبلجيكا وهولندا.. بلغت هذه النسبة في بروكسيل نحو ٥٠٪ بل إن هناك مناطق تسكنها أقلية إسلامية ثم في سنوات قليلة تتحول الأقلية إلى أغلبية.

ويسجل البعض تخوفه من أن الإسلام بهذا المعنى يرسم حدوداً جديدة لأوربا ويستخدم كل إمكاناته للوصول إلى السلطة السياسية. ويبين ألكسندر دي ڤال قائلا: إن الخطير في الأمر أن أمريكا في حربها الضروس ضد أوربا تستخدم هذه

(١) د. محمد عمارة الغارة الجديدة على الإسلام، القاهرة ١٩٩٨ ص ١٥ - ٣١.

البؤر بمنظماتها الإسلامية المتطرفة لضرب وحدة أوربا حتى لا تكون القوة المرشحة للوقوف في وجه هيمنتها التي تفرضها على العالم(١).

هذه الأمور زادت من الحساسية الإسلامية في أوربا حيث هناك انزعاج من الجاليات الإسلامية ومن الهجرات الآتية من عالم الإسلام. وظهر هذا الأمر في قضية سلمان رشدي في بريطانيا وفي الخلاف حول الفتيات المسلمات اللاتي يضعن غطاء الرأس في مدارس فرنسا.

هذا بالإضافة لإحساس دول أوربا بخطر القومية العربية الذي يواجهها وهي تسعى للقيام بدور نشيط في الشرق الأوسط وزاد من هذه الحساسية صعود الأحزاب التي تصف نفسها بأنها إسلامية في البلدان القريبة من أوربا.

وهنا بدأ البعث لسلسلة الذكريات الشعبية التاريخية أو شبه التاريخية عن المعارك بين المسلمين والمسيحيين عبر أوربا كلها، وفي هذه الذكريات يظهر المسلمون كغزاة، المغاربة البربر الذين غزوا إسبانيا، والعرب المسلمون الذين أغاروا على فرنسا وإيطاليا، والأتراك على أبواب فيينا، والتتار الذين أخضعوا موسكو.

وغالبًا ما يتم تناسي حقيقة أن الأوربيين غزوا وفتحوا - عمليًّا - كل البلاد الإسلامية في وقت أحدث، كما أن مقاومة المسلمين للتسلل الاستعماري التي تمت غالبًا تحت قيادة دينية أو تمت تعبئتها بشعارات دينية تذكر باعتبارها تعصبًا!(٢).

وقد كشفت أجهزة الفكر والثقافة والإعلام الغربية بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ عن الدور الذي تلعبه في إذكاء نيران ثقافة الكراهية السوداء ضد الإسلام وحضارته وأمته وعالمه.

(١) د. سعيد اللاوندي: «التطرف الإسلامي في أوربا» صناعة أمريكية عرض لكتاب ألكسندر دي فال بنفس العنوان - جريدة الأهرام - ١٠ ديسمبر ٢٠٠٤ ص ١٠.

(٢) د. محمد عمارة: تركيا المسلمة والنادي المسيحي الأوربي، مجلة الأزهر المحرم ١٤٢٦هـ، ص ٧٦ - ٧٧.

وهو الدور الذي يمثل الامتداد المعاصر لدور التهييج الديني الذي كان يقوم به «بطرس الناسك» (١٠٥٠ ـ ١١١٥) وقساوسة الكنيسة الكاثوليكية إبان الحروب الصليبية القديمة ضد الشرق والإسلام.

وهي في سبيل تحقيق ذلك تنعش ذاكرة الإنسان الأوربي والغربي بما تسميه ذكريات «الخطر الإسلامي» على أوربا فتحيي ذكريات:

ـ الفتوحات الإسلامية الأولى التي حررت الشرق من هيمنة الغرب في القرن السابع الميلادي ـ بعد عشرة قرون من القهر الحضاري ـ الإغريقي والروماني والبيزنطي للشرق.

ـ ذكريات الوجود الإسلامي في الأندلس ـ الذي استمر ثمانية قرون (٧١١ – ١٤٩٢) ـ وهو الوجود الذي كاد يدخل كل جنود أوربا ووسطها في دائرة الإسلام لولا الهزيمة الإسلامية في معركة بلاط الشهداء ١١٤هـ ٧٣٢م.

ـ وذكريات الهزيمة الصليبية أمام الفروسية الإسلامية وفشل الحملات الصليبية في إعادة اختطاف الشرق من الإسلام.

ـ وذكريات المطاردة العثمانية للتحدي الأوربي على أرضه.. وفيها تم فتح القسطنطينية ١٤٥٣م، ووصول هذه المطاردة إلى أسوار فيينا.

ـ وذكريات السيطرة الإسلامية على البحار الكبرى للكرة الأرضية لأكثر من عشرة قرون كان المسلمون فيها هم «العالم الأول» على ظهر هذا الكوكب.

إلا أنه وسط هذا البحر الزاخر من إثارة العداء ضد الإسلام وتشويه صورته تبدو في وسط الحلكة علامات مضيئة ترفض التشويه وتحق الحق متمثلة في شهادات المنصفين الغربيين، وصدق الله العظيم إذ يقلو «ليسوا سواءً».

المبحث الثاني

شهادات المنصفين من أهل الغرب

ورغم هذه الصورة القاتمة التي ترسم للعالم الإسلامي في ذهن المواطن الأوربي بفعل الميراث التاريخي، والدور الذي تقوم به المؤسسات الفكرية والثقافية الإعلامية في بث ثقافة الكراهية السوداء ضد الإسلام وأمته وحضارته كما عرضنا في الفصل السابق إلا أن للإسلام قوة وحيوية بفضل شموله الحياة بأسرها جعل هذه الصورة القاتمة ينبعث منها شعاعان يتمثل أحدهما في عرض الحقيقة نفسها على نفرٍ من ذوي البصيرة والنظرة الموضوعية العلمية، فلم يستطيعوا بما اتضح لهم من أنوار الحق إلا أن يصدعوا بها، وأن ينصفوا الإسلام الإنصاف الذي يستحقه، ويزيحوا الستار الذي أسدله الفكر الأوربي المتعصب على أجمل فترات التاريخ البشري والتي كانت سببًا في نقل مشعل الحضارة إلي أوربا.

أما الشعاع الآخر الذي ينطلق من خلال هذه الصورة القاتمة فيتمثل في أولئك الذين تفتحت عقولهم على المزايا التي يتسم بها الدين الإسلامي فانفعل به وجدانهم فأعلنوا إسلامهم وأصبحوا من المنافحين والمدافعين عن الإسلام ضد هجمات الغرب الشرسة ومن المصححين لما وقع فيه بنو جلدتهم من أخطاء وأكاذيب كاشفين لما ادّعوه على الإسلام من أباطيل.

ولم تستطع هذه الصورة المشوهة التي يحاول المتعصبون الحاقدون رسمها للإسلام أن تطفئ نوره في قلوب من ينظرون إلى الإسلام نظرة تعقل ويعايشون مبادئه، فرغم التهييج ضد الإسلام في المؤسسات الإعلامية والسياسية في الغرب فيما يسمى بالإسلام «فوبيا» خصوصًا بعد ١١ سبتمبر إلا أن الكثيرين منهم

يتحولون إلى الإسلام، فقد اعتنق الإسلام في بريطانيا بعد أحداث ١١ سبتمبر ١٤ ألف بريطاني من الطبقة المثقفة والعليا. ومن كبار ملاك الأرض ومن المشاهير والأثرياء منهم رجال فن ومنهم ابن رئيس وزراء أسبق ومنهم ابن مدير الإذاعة البريطانية «بي بي سي».[١].

ويذكر ألكساندر دي فال في كتابه: "Guerre contre L'europe" التطرف الإسلامي في أوربا «أن هناك ٦٣ شخصًا أوربيًا يعتنقون الإسلام يوميًا، ويتوقع البعض أنه في خلال ٢٠ عامًا فإن دولة مثل فرنسا ستصبح جمهورية إسلامية[٢].

وبرغم التشويه المستمر لصورة الإسلام فإن ذلك لم يمنع إسلام العديد من مفكري الغرب على مر العصور. وكما يقول «هانوتو» - وهو وزير خارجية فرنسي سابق ومعروف بعدائه للإسلام - مبينًا قوة هذا الدين وحيويته: «لا يوجد مكان على سطح الأض إلا واجتاز الإسلام حدوده وانتشر فيه، فهو الدين الوحيد الذي يميل الناس إلى اعتناقه بشدة تفوق كل دين آخر»[٣].

ويقول أشعيا بمان في مقال نشره في مجلة العالم الإسلامي التبشيرية: «إن شيئًا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي من الإسلام، لهذا الخوف أسباب منها: أن الإسلام منذ ظهر في مكة لم يضعف عدديًا بل إن أتباعه يزدادون باستمرار، ومن أسباب الخوف أن هذا الدين من أركانه الجهاد[٤]. ويقول لورانس

---

(١) عبد الوهاب عدس: عيون الشعب، جريدة الجمهورية، ١١ مارس ٢٠٠٤ نقلاً عن صحيفة الصنداي تايمز البريطانية.

(٢) د. سعيد اللاوندي عرض كتاب «التطرف الإسلامي في أوربا صناعة أمريكية لمؤلفه ألكسندر دي فال، الأهرام ١٠ ديسمبر ٢٠٠٤ ص ١٠.

(٣) عبد الودود يوسف: قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ١٩٩٤. ص ٣٥.

(٤) المرجع السابق ص ٣٥-٣٦.

براون: «... وجدنا أن الخطر الحقيقي علينا موجود في الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع، وفي حيويته المدهشة»(١).

نحن في هذا الفصل نبرز الشعاع الأول الذي ظهر وسط قتامة الصورة وهو آراء المنصفين التي اتسمت بالحياد والموضوعية فكانت عاملاً من العوامل التي ساعدت الكثيرين على فهم الإسلام واعتناقه.

١ ـ سير توماس أرنولد (١٨٦٤ ـ ١٩٣٠م): يشيد بسماحة الإسلام وعوامل تفوقه وانتشاره، وهو إنجليزي، قضى عدة سنوات في الهند، وهو أول من جلس على كرسي الأستاذية في قسم الدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن ـ عام ١٩٠٤ ثم اختير عميداً لها، وزار مصر في أوائل عام ١٩٣٠.

وحاضر عن التاريخ الإسلامي في الجامعة المصرية، ومن مؤلفاته «الدعوة إلى الإسلام» ترجمة الدكتور حسن إبراهيم وآخرين (القاهرة ١٩٤٧م) وكتاب (الخلافة) ترجمة جميل معلى (دمشق ١٩٥٠م) كتاب (تراث الإسلام) وترجم بالعربية والفرنسية والأسبانية(٢).

قد برهن في كتابه «الدعوة الإسلامية» على تسامح المسلمين في كل العصور مع مخالفيهم في الدين بالقياس إلى ما فعله هؤلاء المخالفون مع المسلمين، وضرب الأمثلة بالفتح الإسلامي للأندلس ولإفريقيا مبينًا أن التسامح الديني الذي أظهره الفاتحون نحو الديانة المسيحية في الأندلس كان له أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد، وبعد الفتح سمحوا لليهود في هذه البلاد بمزاولة التجارة وأمنوهم على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، وسمحوا لهم بحرية الملكية، وعوضوهم عما ذاقوه من ذل وهوان تحت حكم القوط الغربيين(٣).

(١) المرجع السابق ص ٣٤.

(٢) د. محمد عبد الفتاح عليان: أضواء على الاستشراق، دار البحوث العلمية ـ الكويت ص ٨١.

(٣) سير توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ترجمة الدكتور حسن إبراهيم وآخرين القاهرة ١٩٤٧ ص ١٥٥ ـ ١٥٧.

وبيّن سير توماس أرنولد أن هناك عاملين كان لهما الأهمية في استمالة القلوب إلى المسلمين الفاتحين واحترامهم والثقة بهم وإقبال الوثنيين على الدخول في الإسلام، والتخلي عن وثنيتهم مما سهل في تأسيس دولة إسلامية على أنقاض دولة وثنية، هذان العاملان هما نجاح المسلمين الفاتحين نجاحًا دنيويًّا، ثم القدوة الطيبة، فيذكر أن التاجر المسلم إذا دخل قرية وثنية سرعان ما يلفت إليه الأنظار بكثرة وضوئه الذي هو مظهر من مظاهر النظافة المحببة إلى النفس، هذا إلى الانتظام في أوقات الصلاة والعبادات التي يؤديها بنظام ثابت(١).

وَرَدّ أرنولد كثيراً من مطاعن المستشرقين في الإسلام فرد على جولد تسيهر قوله إن الدين الإسلامي وليد البيئة والظروف المحيطة بها، وإن النبي ﷺ كان يغير خططه وبرامجه تبعًا لتلك الظروف، قائلا إن المثل العليا في بلاد العرب الوثنية وفي المجتمع الإسلامي الذي نشأ بعد ذلك متعارضة تعارضًا تامًّا وقد قضى الإسلام على كثير من العادات البربرية الوحشية وكان انقلابًا كاملاً لمثل الحياة التي كانت سائدة من قبل(٢).

وَرَدّ أيضًا على وليم موير Muir قوله: إن الإسلام لم يقصد به مؤسسة في أول الأمر أن يكون دينًا عالميًّا وأن فكرة عموم الرسالة جاءت فيما بعد مشيراً إلى الآيات المكية والمدنية التي تؤيد عالمية الرسالة الإسلامية(٣).

٢ ـ العلاّمة دوزي يشيد بسبق المسلمين في الصناعة والزراعة والتجارة

والعلامة دوزي أحد وزراء المعارف السابقين في فرنسا، قال في تاريخه:

«بينما أهل أوربا غارقون في دُجى الجهالة لا يرون الضوء إلا من سم الخياط، إذ سطع نور قوي من جانب الأمة الإسلامية، من علم، وأدب، وفلسفة، وصناعات،

(١) المصدر السابق ص ٣٩١ ـ ٣٩٢.

(٢) جولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١٩.

(٣) سير توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د. حسن إبراهيم وآخرين، القاهرة، ١٩٤٧م ص ٤٨.

... وغير ذلك، حيث كانت مدائن بغداد، والبصرة، وسمرقند، ودمشق، والقيروان، ومصر، وفارس، وغرناطة، وقرطبة، مراكز عظيمة لدائرة المعارف ومنها انتشرت في الأمم واغتنم منها أهل أوربا في القرون المتوسطة مكتشفات وصناعات وفنونًا عديدة...

وقال في سبقهم في كافة المجالات الإنسانية: وأما التجارة فقد كان للعرب حسن رغبة فيها بسائر الأوقات ثم لما امتدت سلطتهم من بيرنيه وهي جبال بين فرنسا وأسبانيا إلى جبال همالايا التي بأقصى شمال الهند صاروا أكبر تجار الأرض، وأما الفلاحة فلا يعلم نظير لهم فيها، وليس لغيرهم ما لهم من الاقتدار على جلب المياه وتوزيعها بلطف في مزارعهم الواسعة تحت شمسهم المحرقة. فسيرتهم في ذلك العامل بها أهل روضة أسبانيا صالحة أن نجعلها أسوة نقتدي بها في فلاحتنا الفرنساوية.

وأما الصناعات فإن العرب تعلموا جميعًا لما دخلوا بلدان الرومانيين العظيمة حتى صاروا من أحذق أربابها وقال في سعة سلطانهم: «قد امتد ملكهم في ظرف مئة سنة من ظهور الإسلام مثلما يمتد عظيم الخلقه فاتحًا ذراعيه لالتقاط شيء فبلغ من أقصى الهند إلى جبال (بيرينيه) الكائنة بين فرنسا وأسبانيا وقدر امتداد هذا الملك من ١٧٠٠ إلى ١٨٠٠[(١)] فرسخ ولم تبلغ هذا المبلغ دولة من الدول الماضية».

٣ - الأستاذ سيديو: أحد أعضاء جميعة العلماء الفرنسية يعترف بأن المسلمين أساتذة الغرب في الحضارة يقول: وبعد ظهور النبي ﷺ الذي جمع قبائل العرب أمة واحدة لها مقصد، ظهرت للعيان أمة كبيرة مدت جناح ملكها من نهر تاج في أسبانيا إلى نهر جاج في الهند ورفعت أعلام التمدن في أقطار الأرض أيام كانت أوربا مظلمة بجهالات أهلها في القرون الوسطى، ثم قال: إنهم

(١) هانوتو ص ٧٨ - ٧٩.

كانوا في القرون الوسطى مختصين بالعلوم من بين سائر الأمم، وانقشعت بسببهم سحائب البربرية التي امتدت على أوربا حين اختل نظامها بفتوحات المتوحشين، ورجعوا إلى الفحص عن ينابيع العلوم القديمة، ولم يكفهم الاحتفاظ بكنوزها التي عثروا عليها، بل اجتهدوا في توسيع دوائرها وفتحوا طرقًا جديدة تذهل العقول في عجائبها(١).

قال سيديو أيضًا: «إن الحركة العلمية عند العرب تتميز بالانتقال من المعلوم إلى المجهول، والتحقيق الدقيق، في ظواهر السماء، ورفض كل حقيقة كونية لم تثبت عن طريق الملاحظة الحسية»(٢) ويشهد برجحان عقل العرب قائلاً: «إنه ثبت عندنا بما صنفه العرب واخترعوه رجحان عقولهم الغريب في ذلك الوقت الذي وصل صيتهم إلى أوربا النصرانية، هذا حجة على أنهم - كما قال غيرنا ونحن نعترف به - أساتذتنا ومعلمونا»(٣).

٤ - **إسكندر همبولد**: أشاد بتأثير المسلمين الحضاري على غيرهم فقال: «إن العرب خلقهم الله ليكونوا واسطة بين الأمم المنتشرة من شواطئ نهر الفرات إلى الوادي الكبير بأسبانيا، وبين العلوم وأسباب التحديث، فتناولتها تلك الأمم على أيديهم، لأن لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم أثرت في الدنيا تأثيرًا لا يشتبه بغيره، فكانوا في طبيعتهم مخالفين لبني إسرائيل الذين لا يطيقون خلطة أحد من الناس، فإنهم خالطوا غيرهم من غير أن يتبدل طبعهم بكثرة المخالطة ولا ينسون أصلهم الذي خرجوا منه، وما أخذت أمة ألمانيا التمدن إلا بعد مدة طويلة من فتوحاتهم بخلاف العرب فإنهم كانوا يحملون التمدن معهم، حيثما حلوا حل معهم. فيبثون في الناس دينهم وعلومهم ولغتهم العربية، وأشعارهم الشهيرة»(٤).

---

(١) هانوتو ص ٧٩.

(٢) أنور الجندي: الإسلام والتكنولوجيا، دار الاعتصام، ١٩٧٧، ص ٧٢.

(٣) سيوهانوتو: الإسلام ص ٧٩ - ٨٠.

(٤) نفس المرجع ص ٨٠.

٥ ـ برناردشو يصف الإسلام بالحيوية والرسول ﷺ بأنه منقذ البشرية :

ويقول الفيلسوف الإنجليزي الساخر في كتابه «الإسلام الصحيح» طبعة سنغافورة، المجلد الأول ١٩٣٦ «إني أُكِنّ كل تقدير لدين محمد لحيويته العجيبة، فهو الدين الوحيد الذي يبدو لي أنه طاقة هائلة لملاءمة أوجه الحياة المتغيرة وصالح لكل العصور. لقد درست حياة هذا الرجل العجيب، وفي اعتقادي أنه لو أتيح لرجل مثله أن يتولى منفرداً حكم هذا العالم الحديث لحالفه التوفيق في حل جميع مشاكله بأسلوب يؤدي إلى السلام والسعادة التي يفتقر إليهما العالم كثيراً، وإني أستطيع أن أتنبأ بأن العقيدة التي جاء بها محمد ستلقى قبولاً حسنًا في أوربا في الغد، وقد باتت تجد آذانًا مصغية في أوربا اليوم(١).

٦ ـ أوجين يوج الفرنسي : يصف الإسلام بأنه دين ونهج سياسي حكيم يقول في مؤلفه (يقظة الأسلام والعرب) : «إن الإسلام فضلاً عن أنه دين ونهج سياسي فإنه زبدة مختارة من البساطة والعدل، وهو كذلك، النهج الاشتراكي الذي يمكن للعالم أن يوفق إلى نهج مثله»(٢).

٧ ـ الأديب الفرنسي «فولتير» : يؤكد انتشار الإسلام بالإقناع والأخلاق ويقول : «ليس صحيحًا ما يدعى أن الإسلام استولى بالسيف قهراً على أكثر من نصف الكرة الأرضية بل كان سبب انتشاره شدة رغبة الناس في اعتناقه بعد أن أقنع عقولهم، وإن أكبر سلاح استعمله المسلمون لبث الدعوة الإسلامية هو اتصافهم بالشيم العالية اقتداء بالنبي محمد»(٣).

٨ ـ جوستاف لوبون : يدافع عن تعدد الزوجات وأحكام المواريث في الإسلام، وهو صاحب كتاب « حضارة العرب » . دافع عن تعدد الزوجات في

(١) لماذا أسلمنا، مكتبة الحرمين للعلوم النافعة، الدوحة ١٩٦٩، ص ٢٨ .

(٢) حسن الحفناوي : محمد والعقل، دار الشعب ١٩٧٥ ص ١٢٣ .

(٣) نفس المرجع ص ١٢٢ .

الإسلام قائلاً «إن مبدأ تعدد الزوجات ليس خاصًا بالإسلام، فقد عرفه اليهود والفرس والعرب وغيرهم من أمم الشرق قبل ظهور محمد، ولم تر الأمم التي انتحلت الإسلام فيه جديداً، ولا تعتقد مع ذلكم وجود ديانة قوية يستطيع أن تحول الطابع فتمنع مثل ذلك المبدأ الذي هو وليد حق الشرقيين وعروقهم، وفي الغرب حيث الجو والمزاج أقل هيمنة لم يكن مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة في غير القوانين ولا في الطبائع حيث يندر...

ولا أرى سببا جعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعي عند الشرقيين أدنى مرتبة من تعدد الزوجات السري عند الأوربيين، مع أنني أبصر بالعكس ما يجعله أسمى منه، وبهذا ندرك مغزى تعجب الشرقيين الذين يزورون مدننا الكبيرة من احتجاجنا عليهم»(١).

ويقول دفاعًا عن نظام المواريث في الإسلام:

«ومبادئ الميراث التي نص عليها القرآن الكريم على جانب عظيم من العدل والإنصاف، ويمكن للقارئ أن يدرك ذلك من الآيات التي أنقلها منه، ولم يذكر فيه جميع الأحوال التي عالجها المفسرون فيما بعد، وإن أشير فيه بدرجة الكفاية إلى أحكامها العامة، ويظهر لي في المقابلة بينها وبين الحقوق الفرنسية والإنجليزية أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات حقوقًا في المواريث لا نجد مثلها في قوانيننا»(٢).

٩ ـ فرتس تشببات يبرز مرونة الإسلام وسماحته ومراعاته للواقع وانتفاء الوساطة فيه «وهو مستشرق ألماني» ولد عام ١٩٢٣ بمدينة كمنتز بألمانيا وهو رائد الاستشراق الألماني منذ نهاية الحرب العالمية الثانية».

(١) جوستاف لوبون حضارة العرب ترجمة المرحوم عادل زعيتر ص ٤٨٣.

(٢) الشيخ محمد أحمد أبو زهرة، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام هدية مجلة الأزهر ص ٣٤.

تولى عمادة معهد العلوم الإسلامية بجامعة برلين الحرة من سنة ١٩٦٩ إلي سنة ١٩٨٨ وتولى الأمانة العامة لجمعية الاستشراق الألمانية، وقضى أكثر من عشر سنوات من عمره في القاهرة وبيروت.

تصدّى لآراء صمويل هنتجتون التي تقول أن الإسلام هو عدو الغرب البديل للشيوعية وأوضح أن الإسلام بطبيعته لا يمكن أن يكون عدوانيًا، وأن مسألة العداوة للغرب يجب أن يفهم داخل السباق التاريخي الذي تعيش فيه شعوب العالم الثالث، إسلامية كانت أو غير إسلامية.

فمن يقترب من الإسلام يلمس بجلاء ما يتسم به من سماحة، وما تتسم به شريعته من مرونة تستوعب كل جديد، واتساع صدره للعديد من التغيرات الخلاقة، والاجتهادات المبدعة، فليس الضعف والتخلف الذي أصاب المسلمين في القرون التي أعقبت ذروة مجدهم ونهضتهم ولازمهم حتى وقتنا الحاضر وليد الإسلام ولا ناشئًا عن شريعته وإنما عن ضعف المسلمين أنفسهم، واغلاقهم باب الاجتهاد الذي هو من سمات دينهم. ويقول إن الإسلام ليس فيه (بابا) وليس فيه (دالاي لاما) ولا مجمع كنسي ولا مجلس مسكوني - فالموفقون في ظل الإسلام يتمتعون بحرية واسعة في مجال التفكير والتفسير ما داموا يسعون بإخلاص وصدق - للوصول إلى الحقيقة دون إخضاعهم لأي رقابة أو وصاية من سلطة أو جماعة مفروضة من هنا أو من هناك(١).

وفي الفصل الثالث من كتاب الإسلام شريكًا، يقرر «اشتيبات» أن الإسلام بحكم طبيعته لا يتجاهل الواقع، ويقبل دائمًا الدخول مع الغير في حوار، بما نتج عن الشريعة من قواعد تتسم بالمرونة مثل مبدأ الضرورات تبيح المحظورات ومبدأ «التعاليم الشرعية تتغير بتغير الزمن»(٢)، مع التأكيد المستمر بأن الشرع يجب أن يكون في خدمة المصلحة العامة إلى جانب مجموعة كبيرة من مقاصد الشرع،

(١) فرتس تشيبات الإسلام شريكًا ص ٦٦.

(٢) يقصد تغير الفتوى بتغير الزمن.

كحماية الحياة والعقل والملكية والذرية، فالإسلام سمح في كل العصور بالتفكير في مبادئه تفكيراً عقلانيًا لا يتجاهل الواقع.

ويتجلى تعاطفه مع المسلمين وإنصافه لهم في مقال قصير كتبه عام ١٩٨٩ يدعو فيه المسلمين في ألمانيا إلى تكوين تنظيم موحد يجمع شملهم ويقرب الخلافات المذهبية بينهم، حيث أن دينهم دين السلام والإسلام لوجه الله الواحد الذي وجههم لقبلة واحدة. ويلقي الذنب في خيبة أمل المسلمين بعد فشل نظمهم الحديثة في تحقيق تنمية اقتصادية على كاهل الدول الصناعية المتقدمة.

يتحدّث عن عمر بن الخطاب قائلاً إنه جسّد المثل الإسلامي الأعلى في أرض الواقع، وإنه وحد بين العروبة وعالمية الإسلام في كيان واحد، وأنه كان نموذجًا للحفاظ على التراث وتجديده في آن واحد[١].

ويقول إن تطبيق الشرع الإسلامي على أرض الواقع في هذه الدنيا أمر ممكن إذا استطاع المسلمون تحقيق التوازن بين متطلبات الدين والمتطلبات التي تفرضها روح العصر وضروراته وحاجاته المتجددة كل يوم بل كل لحظة[٢] ويدعو المسلمين لوضع نموذج مستقل للتحديث تتحقق فيه الهوية الحضارية الذاتية بغير انغلاق عن الغرب ولاتهالك عليه[٣].

وبين أن أكثر المسلمين يشعرون في عصرنا الحاضر بأنهم مظلومون ومهددون وبين أن هذا الشعور يؤدي إلى ظهور بعض الاتجاهات والتصرفات المتطرفة تجاه الأجانب والسياح بوجه خاص في بعض البلاد العربية، ويبين أن المسئول الأول عن ذلك هو في المقام الأول بعض القوى الغربية التي تهيمن على العالم، وتخون القيم

(١) نفس المرجع ص ١٥٩ - ١٦٠.
(٢) نفس المرجع ص ١٦.
(٣) نفس المرجع ص ١٥.

رجلاً كاذبًا يستطيع أن يوجد دينًا وينشره؟ عجبًا والله!! إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبني بيتًا من الطوب» ثم يوضح أن الذي بنى أمة يدين فيها الملايين بهذا الدين لقرون عديدة ولا يزالون لا يمكن أن يكون كاذبًا أبدًا(١).

ويقول أيضًا: «كان عصره وقومه حطبًا يابسًا ميتًا أصابه هذا الشهاب فاشعله واضاء به نارًا مقدسة هادية» ويقول: «الحقيقة الكبرى هي أنه رجل صادق ونبي مرسل».

ويضيف قائلاً: «وعلى ذلك فمن الخطأ أن نعد محمداً رجلاً كاذبًا متصنعًا متذرعًا بالحيل والوسائل لغاية أو مطمع، وما الرسالة التي أداها إلا الصدق والحق».

وما كلمته إلا صوت حق صادق .... وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع، وذلك أمر الله.. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء(٢).

أحب محمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنع، ولقد كان ابن الصحراء مستقل الرأي، لا يعتمد إلا على نفسه، ولا يدعي ما ليس فيه ولم يكن متكبراً ولا ذليلا، فهو قائم في ثوبه المرقع، كما أوجده الله يخاطب بقوله الحر المبين، أكاسرة العجم وقياصرة الروم، ويرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة والحياة الآخرة.

وما كان محمد بعاشق قط ولا شاب قوله شائبة لعب ولهو، فكانت المسائل عنده مسألة حياء وبقاء أما التلاعب بالأقوال، والعبث بالحقائق فماكان من عادته قط.

ويزعم المتعصبون أن محمداً لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية والجاه والسلطان... كلا وأيم الله، لقد انطلقت من فؤاد ذلك الرجل الكبير النفس المملوء رحمة وبراً وحنانًا وخيراً ونوراً وحكمة، أفكار غير الطمع الدنيوي وأهداف سامية غير طلب الجاه والسطان.

(١) مصطفى محمد الحديدي الطير: نافذة على الإيمان - ص ٤٧٧ - ٤٧٨.

(٢) عبد الرحمن الغيسوي: لماذا أنا مسلم ص ٧٦ - ٧٧.

ويزعم الكذابون أن الطمع وحب الدنيا هو الذي أقام محمداً وأثاره.

حمق وسخافة وهوس إن رأينا رأيهم.

ويضيف قائلا: «ولم يكن كغيره يرضى بالأوضاع الكاذبة، ويسير تبعا للاعتبارات الباطلة، ولولا ما وجدوا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا لإرادته ولما انقادوا لمشيئته، وفي ظني أنه لو وضع قيصر بتاجه وصولجانه وسط هؤلاء القوم بدل هذا النبي لما استطاع أن يجبرهم على طاعته، كما استطاع هذا النبي في ثوبه المرقع، هكذا تكون العظمة، هكذا تكون البطولة، هكذا تكون العبقرية.

١٣ ـ الكونت هنري دي كاسترو:

وهو فرنسي ألف كتاباً بعنوان «الإسلام» وهو رغم تمسكه بدينة إلا أنه يبين قوة الإسلام في نفوس أتباعه وتمسكهم به واختلافه عن غيره من الأديان حيث يقول «الإسلام هو الدين الوحيد الذي لا يجد فيه مرتدين... ومن العسير بل من المحال أن نتصور دقيقة الحالة النفسية التى يكون عليها المسلم إذا ما حاول أحد المسيحيين أن يقنعه باعتناق المسيحية»(١).

ويستدل على صدق الرسول ﷺ بقوله(٢):

«لسنا نحتاج في إثبات صدقه إلى أكثر مما يأتي»:

١ ـ كان محمدٌ أميًا لا يقرأ ولا يكتب وهو وصف لم يعارض فيه أحد كما لم يسترشد في دينه بمرشد قبله. وكان ينفر من عبادة الأوثان وتعدد الآلهة وكان يحب الله الواحد الأحد بوجدانه فاعتكف وحده في غار حراء يعبد الله.

٢ ـ ومع كونه أميًا جاء ومعه قرآن يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثله، لفظًا ومعنى، ولما تلا «جعفر بن أبي طالب» ما جاء في القرآن عن زكريا ويحيى على النجاشي، فاضت عيناه بالدموع، وفي اليوم التالي طلب منه تلاوة ما جاء

---

(١) عبد الحليم محمود: أوربا والإسلام نقلاً عن كتاب الأبطال لكابرلايل، ص ٦٠ ـ ٦٤.

(٢) أتيين دينه: محمد ﷺ ص ٣٥٣.

والمثل العليا التي تتشدق بها مثل حق الشعوب في تقرير المصير والديمقراطية، وحقوق الإنسان، وتطبق معايير مزدوجة تضر بمصالح الشعوب العربية والإسلامية وأقرب دليل على الظلم الواقع على المسلمين والعرب هو مأساة البوسنة ومأساة فلسطين وما نكبتا به من مجازر وتدمير وتخريب وتجويع. وإذا كانت هذه المأساة وأمثالها قد ولدّت ردود الفعل العنيفة عند بعض الحركات الأصولية المتشددة، فلا يجوز أن تدفع الغربيين إلى رسم صورة مشوهة للإسلام كعدو للغرب، بل يجب أن تدفعهم للبحث عن أسباب هذه الحركات المتطرفة وعلاجها وتحثهم على مراجعة موازينهم ومعاييرهم المزدوجة وتقنعهم بتغير مواقفهم المتحيزة ضد المسلمين والعرب تلك المواقف التي ترجع لأسباب قديمة ومعقدة(١).

١٠ - **الشاعر الفرنسي لامارتين**: يمدح الرسول وينفي عنه الخداع ويقول: «إن حياة مثل حياة محمد وقوة كقوة تأمله وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وشدة بأسه في لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان وإيمانه بالظفر، وإعلاء كلمته ورباطة جأشه لتثبيت أركان العقيدة الإسلامية، وأن كل ذلك لدليل على أنه لم يكن يضمر خداعًا أو يعيش على باطل؛ فهو فيلسوف وخطيب ورسول ومشرع وهادي الإنسان الى العقل ومؤسس دين لا فرية فيه؛ ومنشئ عشرين دولة في الأرض وفاتح دولة روحية في السماء فأي رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثلما أدرك وأي رجل بلغ من مراتب الكمال مثلما بلغ»(٢).

١١ - **ول دور انت**: العالم الأمريكي في مؤلفه «قصة الحضارة» يقول:

إن محمداً ﷺ من أعظم عظماء التاريخ ويقول «وإذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا: إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد

(١) نفس المرجع ص ٨٠-٨٣.

(٢) لامارتين: أحمد حسن الزيات ص ١٤.

أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء وقد نجح في هذا الغرض نجاحًا لم يدانيه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله . . » .

« وقل أن نجد إنسانًا غيره حقق كل ما كان يحلم به واستطاع في جيل واحد أن ينشئ دولة عظيمة وأن تبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم »(١) .

ويقول وول دور أنت مادحًا الإسلام بصفة عامة : « لقد ظل الإسلام خمسة قرون من عام ٧٠٠ إلى عام ١٢٠٠ يتزعم العالم كله في القوة والنظام وبسط الملك وجميع الطباع والأخلاق، وفي ارتفاع مستوى الحياة، وفي التشريع الإنساني الرحيم، والتسامح الديني، والأدب، والبحث العلمي، والعلوم، والطب والفلسفة(٢) .

١٢ ـ توماس كارلايل: وهو من أشهر الكتاب الانجليز ينفي الكذب والخداع عن رسول الله ﷺ ويقول في كتابه « الأبطال » : « لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب أو أن محمداً خداع مزور، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة، فإن الرسالة التي أتى بها ذلك الرسول، ما زالت السراج المنير، مدة « اثني عشر قرنًا لنحو مئتي مليون(٣) خلقهم الله الذي خلقنا، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاشت بها وماتت عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء خدعة؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً. ثم يقول: « هل رأيتم قط أن

(١) حسن الحفناوي مرجع سابق ص ١٢١ .

(٢) دكتور مأمون ياسين عبد الله أهل الإسلام وأهل الذمة ص ١٠٩ .

(٣) هذا الإحصاء منذ نهاية القرن التاسع عشر، وعدد المسلمين الآن يصل تقريبًا إلى ألف مليون نسمة .

فيه عن المسيح ففعل، فعجب الملك لما علم أن المسيح عبد الله ورسوله وروح منه فآمن به.

٣ ـ أتى محمد بالقرآن دليلاً على صدق رسالته هذا الكتاب سر من الأسرار لا يدركه إلا من صدق بأنه من عند الله.

٤ ـ ولا ينكر أحد أن ما مظهر محمد كان نبوة فعلاً وما بقي فيه فكر خاص به.

٥ ـ وصفوه بالجنون وهذا باطل، لأنه بدأ رسالته بعد الأربعين ولم يشاهد عليه قبل ذلك أي اختلال في قواه، وليس في الناس من عرفت جميع أحواله مثل محمد، فلقد حصروا شمائله وأحواله، حتى ذكروا عدد الشعر الأبيض في لحيته، ولو كان به جنة لما خفي ذلك على الناس.

٦ـ ما كان محمد يميل إلى الزخارف والاستكبار والبخل، إنه كان يحلب شاته بنفسه ويجلس على التراب، ويرقع ثيابه ونعله بيده، وكان قنوعًا، خرج من الدنيا لم يشبع من خبز الشعير مرة في عمره ولم تكن له حاشية ولا وزير ولا حشم، لم يرغب طول حياته في المال، وكل ما كان يأتيه يتصدق به، وبلغ من السلطان غايته ولم يكن له علامات الملك سوي قضيب.

٧ ـ هدم الوثنية بعزم واحد، ولم يتردد بينها وبين عبادة الواحد الديان .... إلى غير ذلك مما ذكره هذا المنصف الذي ذكر الحقائق بغير تشويه ولا تحريف.

١٤ ـ تولستوي:

تولستوي أديب وكاتب روسيا الأعظم، كان يفكر في تخفيف ويلات الإنسانيةُ في معالجة المرضى،، وفي تسلية البائس، وإطعام الجائع.

ويرد على الحملة الظالمة ضد الإسلام ونبيه.

وحينما رأى الحملة الظالمة على الإسلام ورسوله قال كلمة حق كانت سبب في حرمان البابا له ـ على زعمه ـ من رحمة الله. يقول:

«لا ريب أن هذا النبي من كبار المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسلام، وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا، ويكفيه فخراً أنه فتح طريق الرقي والتقدم، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتي حكمة وعلماً، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال».

وقد وجه إليه الشيخ محمد عبده خطابًا يمدحه فيه بقوله:

«لم نحظ بمعرفتك شخصيًا، ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك، سطع علينا نور من أفكارك وأشرقت في أفاقنا شموس من آرائك، ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك، هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التي فطر الناس عليها، ووفقك إلى الغاية التي هدى البشر إليها فأدركت أن الإنسان جاء هذا الوجود ليثبت بالعلم ويثمر بالعمل، ولأن تكن ثمرته تعبًا ترتاح به نفسه، وسعيًا يبقى ويربي جنسه، وشعرت بالشقاء الديني نزل بالناس، لما انحرفوا عن سنة الفطرة وحينما استعملوا قواهم التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها، فيما كدر راحتهم، وزعزع طمأنينتهم. ونظرت نظرة في الدين مزقت حجب التقاليد، ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه، فكما كنت بقولك هاديًا للعقول، كنت بعلمك حاثًّا للعزائم والهمم، وكما كانت آراؤك ضياءً يهتدي بها الضالون كان حالك في العمل إمامًا يقتدي به المسترشدون. وكما كان وجودك توبيخًا من الله للأغنياء، كان مدداً من عنايته للضعفاء والفقراء، وإن أرفع مجد بَلَغْتَه، وأكبر جزاء نِلْتَه على متاعبك، في النصح والإرشاد، هو هذا الذي سماه الغافلون بالحرمان والإبعاد، فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين، فاحمد الله على أن فارقوك في أقوالهم.. كما كنت فارقتهم في عقائدهم.

هذا وإن نفوسنا لمشوقة إلى ما يجدد من آثار قلمك فيما تستقبل من أيام عمرك وإنا نسأل الله أن يمد في حياتك ويحفظ عليك قواك، ويفتح أبواب القلوب لفهم قولك، ويشوق النفوس إلى التأسي بك في عملك والسلام »(١).

١٥ ـ الدكتور مادريش يدافع عن القرآن الكريم :

الدكتور مادريش مستشرق فرنسي، كلفته وزارتا الخارجية والمعارف الفرنسية بترجمة اثنين وستين سورة من السور الطوال المئين والمفصل التي لا تكرار فيها ففعل وقال في مقدمة ترجمته الصادرة سنة ١٩٢٦ .

« أما أسلوب القرآن فهو أسلوب الخالق جل وعلا فإن الأسلوب الذي ينطوي على كنه الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلهيًّا، والحق الواقع أن أكثر الكتاب ارتيابًا وشكًّا قد خضعوا لسلطان تأثيره... وأن سلطانه على الثلاثة ملايين من المسلمين المنتشرين على سطح المعمورة لبالغ الحد الذي جعل أجانب (المبشرين) يعترفون بالإجماع بعدم إمكان إثبات حادثة محققه ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الآن.

ذلك أن هذا الأسلوب الذي طرق في أول عهده آذان البدو كان نثراً جدّ طريف يفض جزالة في اتساق نسق متجانساً مسجعًا لفعله أثر عميق في نفس كل سامع يفقه العربية، لذلك كان من الجهد الضائع غير المثمر أن يحاول الإنسان أداء تأثير هذا النثر البديع ـ الذي لم يسمع بمثله ـ بلغة أخرى »(٢).

ومن الذين كتبوا عن الإسلام من مفكري وكتاب الغرب وكانت لهم آراء منصفة في الوقت الحاضر ديفيد بالانكس ومايكل فراستوا ودانيال فيتكس وجن أسبوزيتو ولنعطي نبذة عن آراء كل منهم فيما يتعلق بنظرة الغرب للإسلام.

(١) د. عبد الحليم محمود: أوربا والإسلام. دار المعارف ـ الطبعة الثانية. ١٩٨٢ ص ٦٤ ـ ٦٦.

(٢) د. عمر محمد عمر باحاذق: أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني. دار المأمون للتراث ١٩٩٤. ص ٣٤٤.

١٦ ـ ديفيد بلانكس ومايكل فراستوا: يقولان أن الأوربيين يشوهون صورة المسلمين لتحسين صورتهم. هما من مؤرخي الغرب صدر لهما كتاب عام ١٩٩٩ عن رؤية الغرب للإسلام في العصور الوسطى يقولان فيه إن جذور رؤية الغرب الراهنة للإسلام والمسلمين تعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي الذي شهد بداية الحروب الصليبية والمراحل الأولى لنشأة اليهودية الغربية الحديثة.

ويقول الكاتبان إن الأوربيين في تلك الفترة كانوا محاصرين بحضارة أكثر قوة وتقدمًا وهي حضارة الإسلام وأنهم فشلوا في هزيمة هذه الحضارة خلال الحروب الصليبية، كما رفضوا فهمها، لكنهم شعروا دائمًا بتهديدها الحضارى الدينى لهم ويرى الكاتبان أن الإعلام لعب دوراً شبهاه بـ «نيجاتف» الصورة في تشكل رؤية الأوربي المسيحي المثالية لنفسه، إذ عمد الأوربيون إلى تشويه صورة منافسهم «المسلمين» كأسلوب لتقوية صورتهم الذاتية عن أنفسهم وبناء ثقتهم في مواجهة عدو أكثر قوة وتحضراً[١].

١٧ ـ دانيال فيتكس: ينقد النظرة الأوربية للإسلام فيرى ـ وهو أستاذ آداب بجامعة ولاية فلوريدا الأمريكية ـ أن نظرة الغرب الحديثة للإسلام ولدت في فترة كانت علاقة أوربا فيها بالإسلام علاقة خوف وقلق، مما دفع الأوربيين إلى تعريف الإسلام تعريفًا ضيقًا كاريكاتوريًا وجعلهم ينظرون إليه على أنه دين يملؤه العنف والشهوة يقوم على «الجهاد العنيف» في الدنيا و«الملذات الحسية الموعودة» في الآخرة. كما نظروا إلى الرسول محمد ﷺ ـ في أحسن تقدير على أنه واحد من اثنين: إما قس كاثوليكي فشل في الترقي في سلم البابوية، فقرر الثورة ضد المسيحية، أو راعي جمال فقير تلقى تعليمه على يد راهب سوري ليشكل دينًا جديداً من قشور العقيدتين المسيحية واليهودية[٢].

(١) سامي هاشم صورة الإسلام المفتري عليه في أمريكا: جريدة نهضة مصر، العدد ٢٠٥، ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٤، ص ١١.

(٢) نفس المرجع ١٢.

كما نظر الأوربيون إلى حياة المسلمين الأخلاقية نظرة مزدوجة، إذ نظروا إلى حجاب المرأة المسلمة كتعبير عن السرية والقهر والفصل بين الرجل والمرأة، وفي الوقت نفسه نظروا إليه على أنه مصدر فجور واستباحة مستترة خلف الحواجز والأسوار(١).

١٨ ـ جون سبوزيتو :

هو أستاذ دراسات الأديان والعلاقات الدولية بجامعة جورج تلون الأمريكية، وقد ألف كتابًا بعنوان «التهديد الإسلامي حقيقة أم أسطورة؟» صدر عام ١٩٩٢ .

ويقول في هذا الكتاب : إن الصورة التي كونها الغرب عن الإسلام منذ القرن الحادي عشر الميلادي صورة مشوهة، هذه الصورة قد انتقلت إلى بعض قادة الإصلاح الفكري والديني في أوربا على رأسهم زعيم حركة الإصلاح البروتستنتي مارتن لوثر الذي نظر إلى الإسلام على أنه «حركة عنيفة تخدم أعداء المسيح، لا يمكن جلبها للمسيحية لأنها مغلقة أمام المنطق ولكن يمكن مقاومتها بالسيف»(٢).

١٩ ـ سيجريد هونكة : تتحدث عن فضل العرب على الحضارة الغربية وسماحة الإسلام وتحريره للمرآة، وهي مستشرقة ألمانية قدمت الكثير من الدراسات العربية القيمة فالبحث الذي تقدمت به لنيل درجة الدكتوراه من جامعة برلين كان بعنوان «أثر الأدب العربي في الآداب الأوربية» ثم ألفت العديد من الكتب أكدت فيها كلها على فضل العرب على الحضارة الغربية خاصة والحضارة الإنسانية عامة وكذلك فعلت في مقالاتها الصحفية وأحاديثها الإذاعية وما أعدّته من تمثيليات للإذاعات العربية والألمانية(٣).

---

(١) نفس المرجع ص ١٣.

(٢) نفس المرجع نفس الصفحة.

(٣) د. محمد عبد الفتاح عليان : أضواء على الاستشراق. دار البحوث العلمية الكويت، ١٩٨٠، ص٦٩ ـ ٧٠.

وقد أكدت في مؤلفاتها على النقاط التالية :ـ

١ ـ سماحة الإسلام وقارنت ـ ضاربة الأمثلة من التاريخ ـ بين سماحة المسلمين حتى مع أعدائهم وأسرى الحرب لديهم وبين التعصب الأعمى للكهنوت النصراني الغربي .

٢ ـ الفهم الغربي الخاطئ للجهاد في الإسلام .

٣ ـ النموذج الإسلامي المتميز لتحرير المرأة وحريتها .

٤ ـ تميز العقل اليوناني بالطبيعة التأملية التجريدية فلم يتخذ من الطبيعة مصدراً للمعرفة ولم يعرف التجريب تميز العقل المسيحي الأدبي في البداية بمعاداة المعرفة واعتبار البحث عنها في غير اللاهوت والإنجيل خطيئة وإلحاد كما رفضت المسيحية الفكر اليوناني وتراثه . بينما قبل العقل الإسلامي المواريث الحضارية وأبدع في العلوم المدنية وأخذ بالمنهج التجريبي فتجاوز بذلك العلم اليوناني ونقل المنهج التجريبي إلى أوربا وتميز بإسلامية العلوم . واتسمت النهضة العربية بالهوية الحضارية الإسلامية، المتميزة دون ما تغريب واغتراب ودونما عزلة انغلاق .

ومن مؤلفاتها « العقيدة والمعرفة » و« الله ليس كذلك » و« قوافل عربية في رحاب القيصر » « الرجل والمرأة » التي أشادت فيه بالإسلام إلا أن أهم مؤلفاتها كتاب « شمس الله تسطع على الغرب » سنة ١٩٦٠ وترجم الى العربية ١٩٦٤ بعنوان « فضل العرب على أوربا » وهو ثمرة سنين طويلة من الدراسة العميقة والتنقل بين المتاحف ودور الآثار والمكتبات في العالم، والاطلاع على كثير من المصادر، فقرأت ثلاثًا وأربعين مخطوطة لمحمد بن موسى الخوارزمي وحده، وهو واحد من مئات العلماء المسلمين الذين أبرزت جوانب عبقريتهم ونبوغهم، وفضلهم على الإنسانية جمعاء ورصعت هذا الكتاب بالكثير من الرسوم والصور والرسوم للأدوات والأجهزة العلمية التي ابتكرها علماء المسلمين.

وقد أحدث هذا الكتاب ضجة كبيرة في ألمانيا وأوربا، وعلقت عليه مئات الصحف والمجلات وهاجم عشرات النقاد المؤلفة والكتاب معًا واتهموها بالتعصب للعرب والتحيز لهم. وانبرى أصدقاء العرب في كل مكان يفندون مزاعم هؤلاء ويردون على افتراءاتهم وأعيد طبع الكتاب وترجم الى عدد من اللغات الأجنبية(١).

وإن كانت قد أشادت بالحضارة العربية وبينت نفعها على الحضارة الأوربية إلا أنها ذكرت في الصفحة الثانية عشرة من هذا الكتاب أن كثيراً من إنجازات هذه الحضارة كان مبعثها الاحتجاج على قواعد الإسلام القديمة وإن كثيراً من صفات العالم الروحي الخاصة كان موجوداً في صفات العرب قبل الإسلام(٢).

٢٠ ـ إسحاق تيلر: يشيد بأخلاق الإسلام وهو قس شهير ورئيس في كنيسة يقول عن الإسلام «إنه يمتد في إفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار، فالكرم والعفاف والنجدة من أثاره والشجاعة والإقدام من أنصاره».

يأسف أشد الأسف من أن السكر والفحش والقمار تنتشر بين السكان بانتشار دعوة المبشرين بينهم، وقال فيه أنه يختار «إسلامًا لا سكر فيه على مسيحية فيها سكر» ثم هو لا يزال منتشراً في الصين وغيرها من أطراف آسيا(٣).

٢١ ـ أني ماري شيمل تشيد بفضل الإسلام على الحضارة الغربية:

وهي مستشرقة ألمانية من مواليد ١٩٢٢ وحصلت على الدكتوراة من جامعة برلين عام ١٩٤١ وحصلت على دكتوراة أخرى عام ١٩٥١ في علم الأديان وكان مجال اهتمامها الدين الإسلامي والشعر تعلمت العربية في سن الخامسة عشرة على

---

(١) دكتور محمد عمارة: الإسلام في عيون غربية، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٥ ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢.

(٢) زيغريد هونكة: شمس العرب تسطع على العرب، ترجمة كمال دسوقي.

(٣) هانوتو: (الإسلام) ص ٦١.

يد مدرس خاص، وتخصصت في التصوف الإسلامي، ومنحت جائزة السلام المقدمة من رابطة دور النشر الألمانية في فرانكفورت بتاريخ ١٥ / ١٠ / ١٩٩٥ .

وعرفت بتعاطفها الصريح مع الحضارة الإسلامية واهتمامها بالشرق واكتسبت ثقة كبرى في البلاد الإسلامية وكانت أقوالها تحظى لدى علماء الدين أنفسهم بالاحترام والتقدير اعتقد - متخصصون وغير متخصصين - أنها اعتنقت الإسلام واتهموها بالردة. هذا الاتهام الذي تعده هراء وسخفاً ووجه إليها كثير من النقد لتقديرها قضايا المرأة وحقوق الإنسان في البلاد الإسلامية(١).

وهي تبين فضل الإسلام والعرب على الحضارة الغربية فتقول في الكلمة التي ألقتها بمناسبة تكريمها لحصولها على جائزة السلام. «تابع الغرب بدهشة وذعر إخضاع المسلمين لحوض المتوسط في القرنين الثامن والتاسع، لكنه أخذ في الوقت نفسه عن العرب في الأندلس التي حكمها قرونا طوالا أصول العلوم الطبيعية المعروفة اليوم.

وظلت مؤلفات الرازي وابن سيناء معتمدة في الطب في أوربا حتى مطلع العصر الحديث. وأثمرت كتابات ابن سينا وابن رشد مناقشات في اللاهوت ممهدة الطريق إلى عصر التنوير، وساعدت تراجم طيلطة حيث كان اليهود، والمسيحيون، والمسلمون يتعايشون في سلام، على نقل العلوم العربية إلى بلاد الغرب(٢).

وتتساءل قائلة «أتستطيع حقًّا تشكيل صورة إيجابية عن الحضارة الإسلامية التي ندين لها، وإن كانت غريبة على معظم الأوربيين، بالكثير في حين أنهم يزعمون مرة بعد مرة أنها ما عرفت حركة إصلاحية أو حركة تنوير؟»(٣).

(١) هو غوفون غرايفنكلاو: مجلة فكر وفن عدد ٦٣ Internationares عـدد ٦٣، ١٩٩٦ من ٤ - ٧ (المانية مترجمة بالعربية).

(٢) المرجع السابق ص ١٣ - ١٤.

(٣) المرجع السابق ص ١٤.

وتضيف قائلة: «أنه يكاد يكون مستحيلاً، في عصر الطوفان الإعلامي الغربي الذي تغمرنا فيه نشرات الأخبار المتتالية الموجهة إلينا بطريقة الإعلانات التجارية، التمييز بشكل أكثر دقة والتعرف إلى الألوان الرقيقة المتعددة وإلى الأوجه الإيجابية للإسلام في الحياة اليومية[(١)].

٢٢ ـ منتجمري وات:

يشهد بأن القرآن وحي من الله ويشهد بعالمية الإسلام وتفوقه وأنه يشكل دين المستقبل وأن التحريف قد لحق باليهودية والمسيحية.

ومنتجمري وات مؤرخ وباحث إنجليزي ومحاضر في اللغة العربية وآدابها وتخصص في الدراسات الإسلامية الأكاديمية في التاريخ الإسلامي وعميد لقسم الدراسات العربية في جامعة «أدينبرا» من مؤلفاته «عوامل انتشار الإسلام» و«محمد في مكة» (محمد في المدينة) «والإسلام والمسيحية في العالم المعاصر» والإسلام والجماعة الموحدة» و«محمد النبي ورجل الدولة».

وهو يشهد بصدق الوحي الإلهي فيقول:

إن القرآن الكريم ليس بأي حال من الأحوال كلام محمد ولا هو نتاج تفكيره إنما هو كلام الله وحده، قصد به مخاطبة محمد معاصر به، ومن هنا فإن محمداً ليس أكثر من رسول اختاره الله لحمل هذه الرسالة إلى أهل مكة أولاً ثم لكل العرب، ومن هنا فهو قرآني عربي مبين، وهناك إشارات في القرآن إلى أنه موجه للجنس البشري قاطبةً، وقد تأكد كذلك عمليًّا بانتشار الإسلام في العالم كله، وقَبِلَهُ بشر من كل الأجناس تقريبًا ولأن القرآن من عند الله تحدى أعداءه أن يأتوا بسورة من مثله وعجزوا لأنه ما كان لبشر أن يتحدى الله[(٢)].

(١) نفس المرجع ص ١٤.

(٢) مونتجمري وات: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ طبعة القاهرة ـ مكتبة الأسرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م ص ٣٤ ـ ٥٥.

ويقول «لو احتفظ يهود العصر ومسيحيوه بيهوديتهم ومسيحيتهم في حالة نقاء لاعترفوا بالرسالة التي ألقاها الله إليهم عن طريق محمد، تماماً كما فعل ورقة بن نوفل (١٢ ق.هـ - ٦١١م). ومن هنا يمكن أن نقول: إن إشارة القرآن الى تحريفٍ لحق اليهودية والمسيحية بصورتهما الموجودة أيامه - قول صحيح»(١).

ويشهد مونتجمري وات هذا العالم النصراني الغربي على ثراء القرآن... وجدته، وأصالته.. وعلى أن جمعه إنما هو جمع إلهي وعلى ثقة في النص القرآني المتداول بين الناس وعلى أن تعدد القراءات لبعض أحرف القرآن لم تؤثر في وحدة معاني النص القرآني وعلى محورية القرآن في الثقافة الإسلامية(٢) وإن لغة القرآن لغة حضارية ثقافية راقية ومتميزة(٣).

وأن القرآن يحظى بقبول واسع لأنه يتناول القضايا الإنسانية، وإن الدين بالنسبة للمسلم يغطي تقريباً كل جوانب الحياة بينما بالنسبة للمسيحي الأوربي العادي لا يغطي إلا جانباً يسيراً منها.

ويرد علي من قال بأن الإسلام مزيج بين اليهودية والنصرانية يقول «لقد أكد الإسلام نفسه بالفعل كدين مستقل عن الدينين الآخرين (اليهودية والمسيحية) ويقول عن حق: أنه بالفعل كاد يفوقها أو أنه بالفعل متفوقًا عليها» أو أرقى منهما»(٤).

ويقول: «الإسلام منافس قوي للمسيحية في قيادة عالم اليوم» ويقول «معظم المسيحيين الشرقيين قد تحولوا إلى الإسلام لأنهم وجدوا فيه تعبيراً عن التوحيد أكثر

(١) المرجع السابق ١٧٠.

(٢) المصدر السابق ص ٦٦ - ١١١.

(٣) المصدر السابق ص ٦٥.

(٤) المرجع السابق من ص ٦٧ -إلى - ٢٢٦.

ملاءمة لعقليتهم الواعية اكثر مما وجدوا في المسيحية» ويقول: «إن تأثير المسيحية الفعلي في تناقص مستمر رغم محاولات التوسع التي تقوم بها الحركة التبشيرية... إذا رجعنا إلى الإسلام وجدنا زيادة في عدد معتنقيه في نطاق منطقته الجغرافية، بل وظهرت حركات دعوة للإسلام في أوربا[1].

بعض رجالات الدولة الذين قالوا كلمة إنصاف في حق الإسلام:

٢٣ - «رومان هيرتزوج رئيس جمهورية ألمانيا الاتحادية»:

يجيب على الرأي العام الألماني مفاهيمه المغلوطة ضد الإسلام.

يقول «لا شك أن المرء لا يجني على الرأي العام الألماني إذا زعم بأن العديد من الألمان يربطون بين الإسلام وبين مفاهيم مثل «القانون الجنائي غير الإنساني» و«انعدام التسامح الديني» و«اضطهاد المرأة» و«الأصولية العدوانية» أن هذا تبسيط وتضييق ينبغي تصحيحه، دعونا نذكر التنوير الإسلامي الكبير الذي ساد قبل ستمائة أو سبعمائة عام والذي حفظ للغرب المسيحي أجزاء كبيرة من معارف العصور القديمة. علماً بأن هذا التنوير الإسلامي واجه في الغرب فكراً لا شك أنه اعتبره أصولياً ومفتقداً للتسامح إلى حد كبير[2].

والرئيس الألماني هيرتزوج هو أول رئيس ألماني يدعو إلى حوار مع المسلمين الألمان، ففي ١١ ديسمبر عام ١٩٩٥ دعا ممثلي الإسلام إلى مقره في برلين، وناقش معهم أوضاع المسلمين في ألمانيا، وطرح نظرية هنتجتون عن صراع الحضارات التي يقصد بها صراع الأديان[3].

---

(١) نفس المرجع من ١٧٩ - إلى - ١٨٨.

(٢) مجلة فكر وفن (الترجمة العربية) عدد ٦٣، Internations ١٩٩٦ ص ٩.

(٣) رجب البنا: الغرب والإسلام، دار المعارف ١٩٩٧، ص ١٥٧ - ١٥٩.

٢٤ ـ الأمير تشارلز ولي العهد البريطاني وصف الإسلام بالاعتدال والإنصاف والرحمة:

وقف الأمير تشارلز في جامعة أكسفورد عام ١٩٩٣ يدافع عن أهمية العلاقة بين الإسلام والغرب فألقى محاضرة في مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية قال فيها: «كثير ما يجادل الناس في الغرب بأن قوانين الشريعة في العالم الإسلامي قاسية ووحية ومجحفة، ويرُوج صحفنا لهذه الأفكار الظالمة.. واعتقادي أن روح الشريعة الإسلامية هي الإنصاف والرحمة»(١).

ويضيف قائلا: وتذكروا أن دولا إسلامية مثل مصر وسوريا منحت المرأة حق التصويت في نفس الفترة التي منحت فيها أوربا المرأة هذا الحق وقبل سويسرا بفترة طويلة، وفيها تتمتع المرأة بالمساواة في الأجور والعمل، والقرآن نص منذ ١٤ قرناً على حق المرأة المسلمة في التملك والإرث وبعض الحماية في حالة الطلاق، وهذا يعني أن الإسلام لا يظلم المرأة»(٢).

ويضيف قائلا: الغالبية العظمى من المسلمين يتسمون بالاعتدال السياسي ودينهم هو دين الاعتدال» والنبي محمد نفسه كان يمقت التطرف (٣). علينا أن نتعلم التمييز بوضوح بين ما تؤمن به الغالبية العظمى من المسلمين وبين أعمال العنف التي تقوم بها أقلية صغيرة» ويضيف قائلاً: «إذا كان هناك قدر كبير من سوء الفهم في الغرب لطبيعة الإسلام، فإن هناك قدراً مساوياً من الجهل بالفضل الذي تدين به ثقافتنا وحضارتنا للعالم الإسلامي... أساليب البحث العلمي وعلم الإنسان وآداب السلوك والطب البديل والمستشفيات جاء إلينا من أسبانيا الإسلامية ـ إن الإسلام في العصور الوسطى اتسم بقدر كبير من التسامح، فقد منح اليهود

(١) نفس المرجع ص ١٨٢.

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٨٢.

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٨٣.

والمسيحيين حق ممارسة معتقداتهم وكان بذلك قدوة لم تحتذ بها دول كثيرة في الغرب... إن الإسلام جزء من ماضي الغرب وحاضره في جميع مجالات البحث الإنساني، وساهم في إنشاء أوربا المعاصرة، فالإسلام جزء من تراث الغرب وليس شيئًا منفصلاً عنه(١).

(١) المرجع السابق ص ١٨٣ - ١٨٤.

المبحث الثالث

نماذج لمفكرين غربيين أسلموا

رغم المحاولات الدائبة لأهل الكفر من أجل طمس حقائق الإسلام، ورغم الصورة المشوهة التي رسمها الغرب في أذهان الغربيين عن الإسلام من خلال المؤسسات التعليمية والكنسية والإعلامية والكتاب والمفكرين غير المنصفين، تنزل رحمة الله على بعض عباده فيرون من نور الله بصيصًا في ثنايا هذه المحاولات فيبهرهم هذا البصيص، ويتبعوا أصوله ومصادره، فيخرجوا على أقوامهم ويكشفوا أحابيلهم وأضاليلهم ويتبعوا النور الذي أرسل إليهم، والذي يسر لهم دخول هذا النور في قلوبهم هو ما يتصفون به من الحيدة والإنصاف، والنزاهة، والنظرة المتعمقة التي جعلتهم يقارنون بين ما افتراه المفترون وما كتبه المنصفون، ويرجعون إلى دراسة هذا الدين من مصادره الأصلية، ثم اجتمع الفكر عندهم مع التجربة الشخصية مما جعلتهم يتحولون إلى إحساسات ومشاعر ملكت عليهم كيانهم فلم يجدوا مفراً من تحولهم للإسلام.

حدث هذا لرجال ونساء، فلاسفة ومفكرين، رجال دين، ورجال سياسة، وعلماء متخصصين في شتى العلوم، تفتحت قلوبهم لهذا الدين لما أدركوا أنه الدين الذي ارتضاه الله للعالمين، وأنه تتمة للرسالات السابقة، فأسلموا وحسن إسلامهم وصدق إيمانهم بالله فقاموا بتطبيق القليل الذي يعرفونه، وصبروا على أذى قومهم، وأخذوا يدعونهم إلى هذا الدين رأفة بهم وحبًا لهم، لا بغضًا أو حقداً عليهم.

وهذا القليل الذي عرفوه عن الإسلام بهرهم ولمسوا فيه الإنقاذ من الدمار الروحى بسبب غياب الضمير الموصول بالله نتيجة التركيز على التقدم الصناعي وحده، والانخداع بمباهج الحياة، كل واحد من هؤلاء الذين أسلموا جذبه جانب

من جوانب الإسلام لمح فيه جمال هذا الدين وكماله، يرى بعضهم أن كمال هذا الدين في التوحيد، ويرى بعضهم أنه في بساطته وقبول العقول له، ويرى آخرون أنه في الملاءمة بين حقوق الفرد والجماعة، ويقول بعضهم: إنه في تقرير حق المرأة في الملكية وفي فتح فرص الزواج أمام النساء من خلال تعدد الزوجات، ويجمعون على أنه الدين الذي يصل الإنسان بربه دون واسطة أو كهنوت.

ونحن نتعرض في هذا الفصل لبعض النماذج لمن أسلم من مفكري الغرب لنقف على بعض جوانب العظمة في هذا الدين العظيم التي أغرت هؤلاء بالدخول فيه فنزداد بهذا الدين فخراً ونزداد له حبًا ونكون أكثر به تشبثًا.

١- البروفيسور عبد الله شيلفر

ولد البروفسور عبد الله شيلفر في نيويورك بأمريكا في منطقة فورست هيلز عام ١٩٣٥م ودرس في جامعة سلفانيا حيث تخصص في الأدب الإنجليزي، ثم درس العلوم السياسية، ثم اتجه في عمله إلى الكتابة والصحافة والشعر وعمل في المجلات الثقافية وسافر إلى المغرب للعمل هناك لمدة عام هو عام ١٩٦٠م وكان مقيماً خلال ذلك العام في مدينة طنجة، وكانت إقامته في المغرب وما شاهده فيها من قيم ومثل، تغاير ما تركه في أمريكا سببًا كبيراً في تقربه إلى الإسلام. وها هو يحكي تجربته مع الإسلام كيف أدى به الأمر إلى إعلان إسلامه فلنراجع معه وعلى لسانه رحلة حياته في الفترة التي قضاها في المغرب إلى أن عاد إلى بلده وأعلن إسلامه لنعرف من خلالها ما هي الدوافع التي جعلته يعتنق الإسلام.

يقول البروفيسور عبد الله شيلفر(١):

«قبل إسلامي كنت أشعر بعدم الرضا عن حياتي، والتي تفتقد القيم الحقيقية إذ كنت أعيش في دوامة مستمرة لا أعرف سبباً لها. كنت أشعر في نفسي بفقدان طعم السعادة، أعني انعدام السعادة الحقيقية كليًّا.

(١) مجدي عبد الباقي شريف: الأدلة القاطعة ١٩٩٣م. ص ١٧٣-١٧٨.

وعندما ذهبت إلى المغرب أقمت في طنجة القديمة حيث يعيش أهلها حسب العادات الإسلامية يومًا بعد يوم وجدت نفسي منبهراً بسلوك المسلمين بتعاملهم ومحبتهم فيما بينهم، وكنت أقارن بين ما أراه من قيم ومثل في المغرب وبين ما عهدناه هناك في أمريكا بلدي، فأجد الفرق شاسعًا جداً. ومن مشاهداتي المتكررة في المغرب رجل عجوز بسيط الحال من قرية أو من مكان بعيد، إذا جاء إلى مقهى مثلاً في المدينة أرى كل الشباب يقدمون له كل المساعدة والاحترام، أما عندنا في المجتمع الأمريكي فالصغير لا يولي الكبير اهتمامًا أو احترامًا، ولا حتى احتمال الجلوس إليه. فبهرتني تلك المشاعر الطيبة من الصغار نحو كبار السن.

وجدت في المغرب المشاركة الوجدانية بين المجتمع والمراعاة لأحاسيس كل فرد هناك... كنت أعيش كل يوم تجربة جديدة من تكافل الناس وتآزرهم مما يزيد عندي اقترابًا من هذا المجتمع المسلم.

وفي مرة كنت جالسًا في أحد المقاهي مع صديق لي مغربي، فمرت مجموعة من الناس يحملون شيئًا خشبيًا ملفوفًا بقماش - أبيض، فنهض الجميع واقفين، فنهضت معهم، وعندما اقتربوا من المقهى تبين أنهم يحملون نعشًا لرجل متوفى.. لقد شاهدت أن كل واحد يتجه نحو النعش... إنه يريد المساعدة في حمله... فقلت لصديقي، لابد أن يكون هذا المتوفى شخصية مهمة، فقال كلا... فأنا لا أعرفه، وهو ليس معروفًا لكثير ممن ترى حولك.. وعندما سألني لماذا تعتقد أنه شخص معروف قلت لأن الجميع هب واقفًا.

فقال صديقي المغربي: إنه من عادة المسلم أن يقف احترامًا للجنازة، فكلنا عبيد الله، ولا فرق بين الغني والفقر، وكلنا في الإسلام سواء، واحترام الجنازة شيء واجب، لأن هذا نهايتنا، والكل صائر إلى الله.

احترام للحي، واحترام للميت، ومشاعر طيبة يعيشها الناس مع أحيائهم ومع أمواتهم وعندما أقارن هذه المشاعر بما يعشيه مجتمعنا في أمريكا، أجد الهوة واسعة.

لقد كنت أتساءل دائمًا لماذا يعيش الناس في المجتمع الإسلامي هكذا ولماذا تسود بينهم مشاعر الود والمحبة والإخاء، فكنت أجد الجواب دائمًا: إن الله أمرنا أن نعمل ذلك، أو إننا نقتدي بسنة رسولنا الكريم ﷺ.

من هنا تبين لي أن كل شيء أحببته في ذلك المجتمع الإسلامي له صلة بالدين.

وهذا ماجعلني أحب الإسلام، وأطلب المزيد من التعرف عليه. والتحدث مع الناس حوله.

لقد أعجبتني العمارة الإسلامية. وخاصة عمارة المساجد فالخطيب فيها لا يحتاج إلى مكبر صوت أثناء الخطبة، ويتردد صوته بأعجوبه في أرجاء المسجد كنت أتوق لسماع الصوت وأنصت إليه بكل حواسي، بالرغم من عدم معرفتي بما يتضمنه من معانٍ رائعة لكنني كنت أشعر أن ذلك الكلام هو رسالة من السماء هدًى للعباد.

إنني أؤكد أن الملايين في أمريكا من غير المسلمين لديهم الإحساس الروحي الذي يجعلهم يتأثرون عند سماع الأذان الذي ينتقل بصورة طبيعية دون مكبر صوت... فينقل إليهم الإحساس الروحي بالرسالات السماوية. هذا النداء الرباني (الأذان) ـ هذا الأسلوب في الحياة ـ هذا الترابط الأسري بين المسلمين، كل هذا كان له الأثر الكبير في نفسي مما جعلني أرغب في معرفة المزيد عن الدين الحنيف، وهكذا كانت البداية».

يتحدث البروفيسور عبد الله شليفر عن اللحظة التي صار فيها مسلمًا بعد أن رجع من المغرب وعاد إلى بلاده فيقول:

«بعد أن عدت من المغرب لم أكن نطقت الشهادة ولكن كان قلبي ممتلئًا حبًا للإسلام. . . لم أكن أعي الحقيقة عن الله سبحانه وتعالي، وأنه سبحانه لا تدركه الحواس والأبصار، ففي الغرب الأطفال يتخيلون عن الله صورة بشرية، معاذ الله، وأقول معاذ الله، وجل الله عن الشبيه، لم أكن أعتقد ذلك وبعد عودتي إلى نيويورك، ركبت الترام وتذكرت ما كنت أشاهد في ا لمغرب عندما كنت أركب الباص؛ المسلم هناك عندما يصعد إلى (الباص) ويكون هناك راكب واحد فإنه يبدأه قائلاً السلام عليكم لأن تحية الإسلام هي السلام، فيرد عليه السلام، وقد يتسامران، أو يتشاركان في العمل، إذا قارنت ذلك بما يجري في الغرب فإنني أجد العكس تمامًا، حيث يجلس كل على أنفراد، ولا يحيّي أحدٌ أحداً، ولا يتحدث إليه. . . . كل همه هو جمع المادة، ثم يفتقد السعادة بالرغم من كثرة الأموال التي تجري بين أيديهم.

لقد كنت مقتنعًا في نفسي أنه لا يمكن أن تكون حياتنا في الغرب هي الحياة الصحيحة، فالإنسان لا يخلق ليعش هكذا. من هنا أصبحت أقرر أن ما يقوم به المسلمون مما شرعه الله هو الحق، وأن الحياة الإسلامية هي الطريق إلى الحق، وأن المال والقوة والمظاهر الدنيوية التي نعيشها في الغرب بعيدة جداً عن الحق.

كل هذا جعلني أؤمن بأن الإسلام لابد أن يكون دين الحق، وأن الإسلام من عند الله سبحانه وتعالى.

وفي يوم رجعت إلى شقتي في نيويورك وأخذت أطالع ترجمة معاني القرآن، وأقول لك الحق: إنني في البداية لم أستطع استيعاب ما يتضمنه من معاني عظيمة. . . كنت أشعر بحقيقة وجود الله عز وجل فدعوته سبحانه وتعالى أن يقربني أكثر إلى الإسلام، وأن يشرح صدري لاستيعابه، وفتحت ترجمة معاني القرآن الكريم هذه المرة فوجدت آية كريمة يتأكد معناها في عدة مواضع تحمل نفس المعنى: بسم الله الرحمن الرحيم **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ فشعرت أني أؤمن بالله عز وجل. وفي تلك اللحظة شعرت بإني أصبحت مسلمًا.

ذهبت إلى المسجد في «مناه» التابع للبعثة الإسلامية في أمريكا والذي كان يشرف عليه الشيخ داود رحمه الله، فدعاني الشيخ داود فقلت له السلام عليكم. فأجاب وعليكم السلام، ثم قال لي هل أنت مسلم؟ قلت له أريد أن أدخل الإسلام.

فرحب بي وأخذني لأتوضأ ثم أدخلني في رحاب المسجد، وطلب مني أن أردد ما يقول، ففهمت أنه سيطلب مني النطق بالشهادتين، فقلت له: إنني لا أعرف عن الإسلام شيئًا، ولم أدرس الإسلام بعد، قال لي: يا سيدي إن أهم شيء في الإسلام أن يسلم قلبك لله أولاً، وأمامك العمر كله لتدرس الإسلام، ونحن لا نعرف متى نموت ولكن المهم أن يسلم قلبك لله عز وجل.

وهكذا أكرمني الله تعالى ورددت معه: أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ثم طلب مني أن أصلي ركعتين لله تعالى وقال لي: لا تقلق فسأعلمك ما تقول، كل ما أريده الآن أن تفعل ما أفعل.

لقد قال لي شيئًا لا أنساه في حياتي قال لي: إن الله رقيب على كل ما نفعله لذا عليك أن تكون في صلاتك أجمل ما تكون. وهذه إحدى الروائع التي قربتني إلى الإسلام، جمال في الأخلاق بين المسلمين، جمال في أسلوب حياتهم، جمال في ملابسهم التقليدية، جمال في الهندسة المعمارية الإسلامية، جمال الخطوط العربية، جمال في الأدب الإسلامي.... وقد شدني حديث الرسول الكريم ﷺ «إن الله جميل يحب الجمال».

وعندما قال لي الشيخ داود: إن الله رقيب عليك فكن في صلاتك أجمل ما تكون، انتظم كل شيء في حياتي، وأحمد الله أن أكرمني وأسعدني بنعمة الإسلام.

بعد أن عشنا مع البروفيسور عبد الله شيلفر وهو يروي لنا قصة إسلامه نستطيع أن نلخص العوامل التي جذبته إلى اعتناق الإسلام فيما يلي:

١ ـ ما يوجد في الإسلام من قيم ومثل تتمثل في:

أ ـ احترام الصغير للكبير، وهذا مأخوذ من قول الرسول ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا» ـ ولا تقتصر صفة الاحترام على الأحياء بل تمتد أيضاً لتشمل الأموات.

ب ـ التعاون بين الناس، وهذا نأخذه من قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

ج ـ المحبة بين الناس ويدل عليها إفشاء السلام في كل مكان. ويحرض الرسول الكريم ﷺ على ذلك في قوله: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

د ـ المساواة: ويبدو تأثره بهذه القيمة عندما وجد الجمع الغفير يهتم بالجنازة والجالسون يقفون لها وظن أنها جنازة عظيم من العظماء ولكنه أخبر أنها نفس بشرية تقبل على ربها، وكثير من المشيعين قد لا يعرفون صاحبها فكل الناس سواء عند الله.

هـ ـ حرص الإسلام على قيمة الجمال: جمال في الصلاة «خذوا زينتكم عند كل مسجد» ـ جمال في المعمار ـ جمال في الخط العربي جمال في الملابس التقليدية ـ جمال في الأدب الإسلامي قال رسول الله ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال».

٢ ـ الترابط الأسري.

٣ ـ تنزيه الإله عن الشبيه والنظير ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وإذا قورنت فكرة

المسلمين عن الإله بفكرة الغرب حيث يتخيلون إلهًا مجسداً في صورة بشرية فإننا نجد البون شاسعًا.

٤ ـ وجود القيم والأخلاقيات على أرض الواقع وبروزها في المعاملات بين الناس؛ دعوة إلى الإسلام أقوى من الدعوة باللسان.

٥ ـ النداء للصلاة يؤثر فيمن يسمعه وينقل إليه الإحساس بالرسالات السماوية.

٢ ـ إيتان دينيه (١٨٦١م ـ ١٩٢٩م)

هو واحد من أشهر المستشرقين وكان من أكبر رجال الفن والتصوير الفرنسيين، انحدر من أبوين مسيحيين، وتلقى كالعادة مبادئ المسيحية وعقائدها من تثليث وصلب وفداء وتعميد.

الشك في العقائد المسيحية:

وبعد أن انشقت قدراته بدأ يشعر بالقلق ويشك في بعض المسائل مثل عصمة البابا، والمسيح الذي يقول عنه المسيحيون إنه ابن الله، وأنه هو الله، وهو بشر، ثم صلب ليطهر به البشر من اللعنة، وتساءل: كيف يمكن أن يجتمع كل ذلك في شخص واحد، وراح دينيه يبحث في الإنجيل عن إجابات لما يدور بخلده، فازداد شكًا لأنه وجد أشياء لا تتفق مع العقل في شيء. ولذلك خرج من بحثه بأن الإنجيل أوحى الله به إلى عيسى عليه السلام بلغته ولغة قومه التي هي لغة سامية دون شك، وأنه ضاع واندثر ولم يبق له أثر، أو أنه قد أبيد، وقد عمل المسيحيون تلفيقات أربعًا مشكوكًا في صحتها في نسبتها التاريخية، كما أنها مكتوبة باللغة اليونانية التي تختلف عن لغة المسيح وقومه(١).

(١) د. محمد عبد الفتاح عليان: أضواء على الاستشراق، دار البحوث العلمية بالكويت، عام ١٩٨٠، ص ٧٦.

تلمس عقيدة سهلة :

لقد كانت الشكوك الكثيرة تدور في نفسه، عندما وقعت في يده نسخة من مجلة إنجليزية، فإذا به يجد فيها جوابًا عن أسئلته إذ قرأ فيها لماذا صار بعض الإنجليز وغيرهم من الأوربيين مسلمين؟ ذلك لأنهم يتلمسون عقيدة سهلة معقولة، عملية في جوهرها، لأننا معاشر الإنجليز نتبجح بأننا أكثر أهل الأرض تشبثًا بالعمل - عقيدة تكون ملائمة لأحوال جميع الشعوب وعاداتهم وأعمالهم، عقيدة دينية صحيحة يقف بها المخلوقون أمام الخالق دون أن يكون بينهما وسيط(١).

أحق هذا، أحق أن الإسلام هو العقيدة الصحيحة؟ أخذ دينيه يسأل نفسه وأخذ يزن الأمور وأخذ يبحث.

دراسة الإسلام من مصادره :

سافر دينيه إلى الجزائر، وتنقل في بلاد المغرب، فخالط المسلمين وعاشرهم، وسمع منهم وناقشهم، وفكر وتأمل، ودرس الإسلام في مصادره فرأي أن العقيدة المحمدية لا تقف عقبة في سبيل التفكير، فمن الممكن أن يكون المرء صحيح الإسلام، وفي الوقت نفسه حر التفكير، وأعجبته سماحة الإسلام وروعة ما جاء به من التوحيد والأحكام والأخلاق، وهكذا برز له كنور أضاء له الطريق، فتفاعلت به نفسه، قبله عقله فأسلم وتسمى باسم «ناصر الدين»، وحج عام ١٩٢٨ قد أعلن إسلامه رسميًا بالجامع الجديد بمدينة الجزائر في اجتماع حافل عام ١٩٢٧، وطلب أن يدفن في قبره حنيفًا مسلمًا وهو القبر الذي شيده لنفسه في بلدة (بوسعادة) بالجزائر ويقول بأنه لم يسلم لمطمع أو لمغنم (وهو غني موسر) وإنما أسلم إرضاءً ليقينه ولضميره، وتوفي في ديسمبر عام ١٩٢٩ في باريس، ونقل جثمانه في بلدة

(١) محمد رسول الله ﷺ أرتيان دينيه وسليمان ابن إبراهيم دار المعارف ١٩٧٩م من ٣١ - ٣٧.

(بوسعادة) بالجزائر حسب وصيته[١]. وها هو إليه يحكي ما راقه في الإسلام وما جذبه إلى اعتناقه[٢].

عقيدة التوحيد وتنزيه الإله:

يقول إيتان دينيه «الدين الإسلامي» هو الدين الوحيد الذي لم يتخذ فيه الإله شكلاً بشريًّا أو ما إلى ذلك من الأشكال.

أما في المسيحية فإن لفظ «الله» تحيطه تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن في السن قد بانت عليه دلائل الكبر والشيخوخة فمن تجاعيد بالوجه غائرة، إلى لحية بيضاء مرسلة مهملة تثير في النفس ذكر الموت والفناء، ونسمع القوم يصيحون: يحي الله، فلا ترى للغرابة محلاً لقولهم، فإنهم ينظرون رمز الأبدية الدائمة، وقد تمثل أمامهم شيخًا هرمًا، قد بلغ أرذل العمر، فكيف لا يخشون عليه الهلاك ويطلبون له الحياة؟ أما «الله» في دين الإسلام الذي حدث عنه القرآن، فلم يجرؤ أي مصور أن يصوره، لأن «الله» لم يخلق الخلق على مثاله، فهو سبحانه لم تكن له صورة، ولا حدود محصورة، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

ثم يقول عن عبادة المسيحيين «إنه ليس في كنيستهم سوى صلاة واحدة قصيرة، يخصون بها الإله ـ الأب الأزلي الدائم ـ وأما الابن والأم والصليب وقلب يسوع المقدس، فلها كل الصلوات، وآلاف الصور والتماثيل وكل الاحترام والإجلال وكلها مقدسة عندهم تقديس الوثنيين لأصنامهم التي تمثل معبوداتهم».

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٧٦ ـ ٧٧.

(٢) مصطفى محمد الحديدي الطير: نافذة على الإيمان ص ٤٧٧ ـ ٤٨٥.

المساواة في الشريعة الإسلامية :

ويتكلم إيتيان دينيه على المساواة في الإسلام فيقول : «إن الشريعة الإسلامية ساوت بين الناس، ولم تفرق بينهم إلا بعلو الهمة ومكارم الأخلاق، فهذا بلال الحبشي أقامه الرسول مؤذنًا للمسلمين فإذا سمعوه سعوا إلى الصلاة، مع ما عرف عليه العرب من التفاخر بالأنساب والأجداد .

الإسلام حفظ للنفس كرامتها :

يقول دينية : «إن الإنجيل جاء فيه «من لطمك على خدك الأيمن فحول له خدك الأيسر، وفي ذلك حط للنفس ونزول بكرامتها، كما أنه تشيع ضمني لأهل السوء أن يظهروا ويسودوا، وذلك المبدأ مأخوذ عن أصل هندي تسكن في طياته الأسباب التي أخضعت الهند الكبيرة إلى انجلترا الصغيرة، وليس عجبًا أن يخرج الإنجليز على أوامر المسيح في عظة الجبل»(*) .

الحكم الكامنة في الصلاة :

يقول إتيان دينيه متأثراً بصلاة المسلمين وما تشتمل عليه من طهارة وروحانيات عالية وما تؤدي إليه من صحة البدن :ـ

«إن الحركات والإشارات في الصلاة الإسلامية هي ذات بساطة ونبالة، لم يسبق لها مثيل في صلاة غيرها، كما أنها لا تدعو الوجوه إلى التظاهر والتكلف، ولا العيون إلى الشخوص نحو السماء واستنزال الدموع الكاذبة، مما يفعله المسيحيون أمام صور القدسين تكلفًا، والله أعلم بصدروهم . . . إن الصلاة في الإسلام تعبير عما في نفوس المؤمنين من تعظيم فوق أنها حركات رياضية تؤدى خمس مرات .

(*) يقصد أن الإنجليز استذلوا الهند بوجود ما يشبه «من لطمك على خدك . . . إلخ» في ديانتهم الوثنية . وأن هذا النص يحض على عدم المقاومة والسقوط في أيدي الغالب في حين أن الإنجليز وهم مسيحيون لم يجدوا حرجًا في الخروج على مبدأ المصالحة الذي دعا إليه الإنجيل .

يوميًا فتهب الجسم القدرة على الحركة .... وكم من شيخ كبير ورجل سمين يستطيع كلاهما السجود والركوع والوقوف دون كبير عناء مما لا يستطيعه مسيحي في مثل حالته، أضف إلى ذلك حكمة الوضوء الذي يسبق الصلاة.

تمكن الإسلام من قلوب معتنقيه:

ويعجب دينيه من مدى تمكن الإسلام من قلوب معتنقيه فيقول: «وللإسلام طابع لا يمحى حتى إن الكونت دي كاسترو وهو مسيحي متعصب أيقن بهذه الحقيقة وقال في كتابه الإسلام (ص ٢١١): » إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي ليس له مرتدون «واستدرك قائلا» في الحقيقة لا يقام وزن لمن ارتد تحت تأثير العذاب الذي كانت تقوم به محاكم التفتيش الأسبانية في الأندلس، ولا لأولئك الذين تركوه لأغراض مادية دنيئة، كما أنه ليس من فخار المسيحية أن تضم في أعدادها أولئك الذين الذين يباعون من أولاد العبيد واليتامى، الذين ينشأون في مهدهم نشأة مسيحية. أما الذين يعتنقون الإسلام في وقتنا هذا ـ القرن العشرين ـ من المسيحيين وغيرهم، فهم من الهيئات الاجتماعية الأوربية أو الأمريكية كما إن إخلاصهم في ذلك لا شك فيه، لأنهم أبعد ما يكونون من الأغراض المادية» انتهى.

العقيدة الإسلامية وحرية الفكر:

يقول دينيه «إن العقيدة الإسلامية لا تقف عقبة في سبيل التفكير، فمن الممكن أن يكون المرء صحيح الإسلام وفي الوقت نفسه حر التفكير[١].

صلاحية الإسلام لكل المدنيات ولكل العقول:

ومما دفع دينيه إلى اعتناق الإسلام صلاحيته لجميع الشعوب والأجناس والعقليات حيث يقول: «وكما أن الإسلام صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس، فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات وجميع درجات المدنيات، وأن

(١) دكتور محمد عبد الفتاح عليان: أضواء على الاستشراق، ص ٧٦ ـ ٧٧.

تعاليم المعتزلة ذات الصلة بتعاليم الصوفية، تجد مكانًا رحبًا، وقبولاً حسنًا ورضًا سهلاً، سواء عند العالم الأوربي، أو عند الزنجي الإفريقي، وهو الذي يصعب على المرء تخليصه من معتقداته الخرافية ومن معبوداته وأصنامه.

بينما نجد الإسلام يهيج من نفس الرجل العملي في أسواق لندن، حيث مبدأ القوم «الوقت من الذهب»، إذ هو يأخذ بلب ذلك الفليسوف الروحاني.

وكما يتقبله عن رضا - ذلك الشرقي ذو التأملات والخيال، إذ يهواه ذلك الغربى الذي أفناه الفن وتملكه الشعر».

ويقول في آخر كتابه «الحج إلى بيت الله الحرام»:

لو كان الإسلام الحقيقي معروفًا في أوربا لكان من المحتمل أن ينال أكثر من أي دين آخر - من العطف والتأييد من جراء روح التدين التي نجمت عن الحروب الكبرى، فإنه - والحق يقال - يلائم جميع ميول معتنقيه على اختلاف مشاربهم، فهو ببساطته المتناهيه، وباشتماله على روح التصوف يهدي علماء أوربا وآسيا إلى الطريق المستقيم، ويجدون فيه تعزية وسلوى من غير أن يحول بينهم وبين حريتهم التامة في آرائهم وأفكارهم. ويرقى بروح ذلك التاجر الإنجليزي رجل الأعمال، الذي يعتبر الوقت من ذهب، كما يرقى بروح الفيلسوف المتدين.

ويسمو بنفس الغربي الشغوف بالفن والشعر، بل هو سحر لب الطبيب العصري بما قرره من الوضوء المتكرر كل يوم، وبما في الصلاة من حركات منتظمة تفيد الجسم والروح معًا، وفي وسع حر الفكر - وهو ليس ملحد حتمًا - أن يعتبر الوحي الإسلامي عملا من أعمال تلك القوة الخفية التى نسميها «الإلهام» وأن يعتقد به من غير أية صعوبة بما أنه لا يحتوي على أسرار خفية لا يسبغها العقل.

الإسلام يساير الطبيعة البشرية:

مما أعجب دينيه في الإسلام أنه يساير الطبيعة البشرية ولا يصطدم معها فهو يبيح الزواج بأكثر من واحدة ولا رهبانية فيه بخلاف المسيحية. يبين ذلك في كتابه

(أشعة خاصة بنور الإسلام) فيقول : « لا يتمرد الإسلام على الطبيعة التي لا تغلب، وإنما هو يساير قوانينها، ويزامل أزمانها، بخلاف ما تفعل الكنيسة من مغالطة الطبيعة ومصادمتها في كثير من شئون الحياة، مثل ذلك الفرض الذي تفرضه على أبنائها الذين يتخذون الرهبنة، فهم لا يتزوجون، وإنما يعيشون أغرابًا.

وعلى أن الإسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة وألا يتمرد عليها، وإنما يُدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولاً وأسهل تطبيقًا في إصلاح ونظام ورضًا ميسور مشكور، حتى لقد سُمي القرآن لذلك « بالهدى » لأنه المرشد إلى أقوم مسالك الحياة ولأنه الدال على أحسن مقاصد الخير، وخذ مثالاً لذلك إباحة الإسلام تعدد الزوجات » .

مما قاله ناصر الدين دينيه يتضح أن الدافع وراء إسلامه هو :

١ - إعجابه بالعقيدة الإسلامية التي تنزه الإله عن التشبيه والتجسيد ومن ثم لا يجرؤ أي مصور أن يصوره لأنه ليس كمثله شيء ولا يحد بحدود معينة، كذلك إعجابه بعقيدة التوحيد في بساطتها، فالله هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

كذلك الإسلام لا يقدس الصور والتماثيل التي يجلها المسيحيون في كنائسهم ويعطونها من التقديس ما يعطيه الوثنيون لأصنامهم .

وهذا ما عابه رسول الله ﷺ عليهم وحذر من أن يقع فيه المسلمون حيث قالت السيدة عائشة رضي الله عنها .

لما مرض النبي ﷺ تذاكر بعض نساء النبي ﷺ كنيسة بأرض الحبشة يقال لها . مارية - وقد كانت أم سلمة وأم حبيبة قد أتتا أرض الحبشة - فذكرتا من حسنها وتصاويرها قالت : [فرفع النبي ﷺ رأسه] فقال : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، ثم صوروا تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .

٢ - إعجابه بالعبادات في الإسلام، فالوضوء تطهير للجسد وتطهير من الذنوب، والصلاة بسيطة الحركات وفيها تعظيم للمولى عز وجل وهي موجهة له وحده بينما يوجه المسيحيون أكثر صلاتهم - على حد قوله - إلى الابن والأم والصليب وقلب يسوع المقدس ويؤدون لصلاة واحدة في اليوم للإله الأب الأزلي الدائم، والصلاة في الإسلام يستطيعها الكبير والصغير دونما عناء، ثم هي تقوى البدن بما تحويه من حركات رياضية، وبما يسبق الصلاة من وضوء بما فيه من نظافة وصحة وانتعاش البدن.

٣ - إعجابه بمبدأ المساواة في الإسلام ونبذ المفاخرة بالأحساب والأنساب، وجعل التقوى معياراً للتفاضل بين الناس مما جعل بلالا الذي كان في الأصل عبداً حبشيًا يختار مؤذنا لينادي إلى الصلاة وهي أفضل فريضة بعد الشهادتين.

٤ - إعجابه بما في الإسلام من حفاظ على عزة النفس وكرامتها، فإذا كان ما جاد في الإنجيل «من لطمك على خدك الأيمن فحول خدك الأيسر» حط للنفس وتردي بكر منها - كما يرى إتيان دينيه - وهذا يساعد في رأيه أهل السوء أن يظهروا ويسودوا فإن في القرآن من النصوص ما يحفظ للإنسان كرامته مثل قوله تعالى: **﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾**. وقوله تعالى: **﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾**. وقوله تعالى: **﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾**.

٥ - إعجابه بتمكن الإسلام من قلوب معتنقيه.

٦ - إعجابه بما يتيحه الإسلام من حرية التفكير.

٧ - إعجابه بمرونة الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان.

٨ - إعجابه بمراعاة الإسلام للغرائز البشرية وعدم اصطدامه مع الطبيعة البشرية، فهو لا يكبت الغرائز، وإنما ينظمها حيث يشجع على الزواج ويبيح تعدد الزوجات، فلا رهبانية في الإسلام.

٩ ـ اتسام الإسلام بالبساطة والسهولة حيث إن مافرضه على البشر في حدود الطاقة فكما بين القرآن: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ ويبن القرآن هذه الحقيقة أيضًا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

١٠ ـ إعجابه بروح التسامح في الإسلام.

١١ ـ إعجابه بالعبقريات العلمية الإسلامية.

حيث يقول في كتابه أشعة خاصة بنور الإسلام « ثم إنهم يفخرون بالعالم باستور الفرنسي » ويجعلونه درة في تاج الحضارات الحديثة، ولكن فاتهم أن « جابراً » والرازي » لا يقلان عنه في مرتبة العلماء والمفكرين، فهما المؤسسان الحقيقيان لعلم الكيمياء بفضل ما كشفاه من طرق التقطير ومن الكحول ومن حمض النتريك وحمض الكبرييتيك ».

١٢ ـ انتفاء الواسطة بين العبد وربه.

أهم مؤلفاته:

١ ـ أشعة خاصة بنور الإسلام ترجمة صديقه الأستاذ راشد رستم. وقد أشاد في هذا الكتاب بتشجيع الإسلام على حرية التفكير، كما أشاد فيه بالعلماء المسلمين مثل جابر بن حيان والرازي قائلاً إنهما المؤسسان الحقيقيان لعلم الكيمياء وأنهما لا يقلان درجة عن لويس باستير الفرنسي الذي يفخرون به ويعتبرونه غرة في تاج الحضارة الحديثة.

٢ ـ كتاب « الشرق كما يراه الغرب » نقله للعربية عمر فاخوري ويبين فيه فضل الشرق على الغرب ومدنيته في علم البحار وعلم الفلك وعلم الطب وعلم الكمياء.

٣ ـ كتاب « محمد رسول الله » وهو يؤرخ فيه لحياة الرسول ﷺ وقد ترجمه إلى العربية الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمد عبد الحليم. وانتقده

المستشرقون بأنه في هذا الكتاب اعتمد على كتب السيرة القديمة مثل سيرة ابن هشام وابن سعد وغيرهم ولم يعول على كتابات المستشرقين في السيرة النبوية.
وقد رد عليهم مظهراً ما في كتبهم من التناقض والتخبط؛ دوزي مثلا يرى أن النبي ﷺ كان لا يشبه قومه لأنه كان متديناً بطبعه، و«لامنس» يرى أن ماله من سلطان يكمن في التشابه التام بينه وبين بيئته. و«دوزي» يرى أنه كان يحب العزلة والتنسك و«لامنس» يرى أنه كان يكره العزلة وينفر من التنسك وقد ذكر بعضهم أكثاره من الطعام، وعكس ذلك ذكر بعضهم أنه كان متقشفاً صابراً على الجوع مات من الضعف. وقال بعضهم أن مبادئه إشتراكية وليست دينية، وقال آخرون منهم أن مدار نبوته هو البعث واليوم الآخر.

٣ ـ كتاب «إنك في وادٍ ونحن في وادٍ» وهو رد على القس اليسوعي «لامنس» الذي امتلأت كتبه حقداً على الإسلام.

٤ ـ كتاب «الحج إلى بيت الله الحرام»، ويقول عنه «شكيب أرسلان» في كتابه البعثة النبوية أنه من أروع ما كتب في هذا العصر.

٣ ـ الدكتور عبد الكريم جيرمانوس

هومستشرق مجري معروف وعالم طبقت شهرته آفاق العالم. زار الهند ما بين الحربين، وقد عمل فترة في جامعة تاغور وأخيراً وفد على «الجامعة الملية» بدلهي، وهناك اعتنق الإسلام وهو عالم في اللغات ومرجع في اللغة التركية وآدابها. ومن خلال دراساته الشرقية عرف الإسلام واعتنقه. وقد شغل منصب أستاذ ورئيس قسم الدراسات الشرقية والإسلامية في جامعة بودابست بالمجر وقد كان إسلامه نتيجة لتأثره بعوامل نفسية وعوامل فكرية وها هو يحكي لنا تجربته النفسية في اعتناق الإسلام يقول: «كان ذلك يعاصر يوماً مطيراً وكنت ما أزال في سن المراهقة

عندما كنت أقلب صحائف مجلة مصورة قديمة، تختلط فيها الأحداث الجارية مع قصص الخيال، مع وصف لبعض البلاد النائية، بقيت بعض الوقت اقلب الصحائف في غير اكتراث إلى أن وقعت عيني فجأة على صورة لوحة خشبية محفورة استرعت انتباهي، كانت الصورة لبيوت ذات سقوف مستوية تتخللها هنا وهناك قباب مستديرة ترتفع برفق إلى السماء المظلمة التي شق الهلال ظلمتها، وعلى أحد هذه السقوف صورة لرجال يجلسون في صفوف غير منتظمة مرتدين ملابس غريبة الطراز. ملكت الصورة عليّ خيالي، إذ كانت في طابعها تختلف عما تعودنا رؤيته من المناظر في أوربا كان منظراً من الشرق، في مكان ما بالشرق العربي، يمثل رجلاً يقص حكايات خلابة على جمهور من المستمعين يتدثرون بالبرانس. كانت الصورة ناطقة حتى تخليت أنني أستمع إلى صوت الرجل يسلينا بحديثه، وإنني في زمرة المنصتين إليه من العرب على سطح البناء، وأنا الطالب الذي لم يتجاوز السادسة عشر من عمره الجالس على كرسي وثير في المجر. ثم أحسست بشوق غلاب لا يقاوم إلى معرفة ذلك النور الذي كان يغالب ذلك الظلام في اللوحة.

بدأت أدرس اللغة التركية وسرعان ما لاح لي أن اللغة التركية المكتوبة لا تحتوي إلا على قدر قليل من الكلمات التركية، وأن الشعر التركي يزخر بالكلمات الفارسية وأن النثر يزخر بالأصول العربية فحاولت أن أتمكن من هذه اللغات الثلاث حتى أستطيع خوض هذا العالم الروحي الذي نشر هذا الضوء الباهر على أرجاء البشرية.

وفي أجازة صيف كان من حظي أن أسافر إلى البوسنة وهي أقرب بلد شرقي إلى بلادنا. وما كدت أنزل أحد الفنادق حيث سارعت إلى الخروج لمشاهدة المسلمين في واقع حياتهم، وكانت لغتهم التركمية ما تزال غامضة لي، إذ بدأت معرفتها من خلال الكتابة العربية المعقدة في كتب النحو.

كان الوقت ليلاً، فنزلت إلى الشوارع وكانت خافتة الإضاءة، وسرعان ما وصلت إلى مقهى متواضع يجلس فيه اثنان من أهل البلاد على كرسيين قليلي الارتفاع» يرتديان السراويل التقليدية الواسعة، يمسك بها في الوسط حزام عريض مدجج بالخناجر، فكان منظرهما بما عليهما من لباس غريب، عليه مسحة من الغلظة والشراسة فدخلت المقهي «قهواخان» **Kahwakhane** بقلب مرتجف وجلست منزويا في ركن ناء عنهما في هلع ووجل.

نظر إليّ الرجلان نظرة عجيبة مستطلعة، وعندئذ قفزت إلى مخيلتي جميع قصص سفك الدماء التي قرأتها عن تعصب المسلمين، في الكتب المتحيزة غير المنصفة، كانا يتهامسان فيما بينهما وكان موضوع همسهما ولا شك هو حضورى غير المتوقع. وفي أوهام الأطفال أدركني الهلع، إنهما لا شك سيوجهان طعنات خنجريهما إلى صدر هذا الكافر الوافد عليهما، وتمنيت لو أنني استطعت الخروج والخلاص من هذا المأزق الرهيب، غير أن قواي خانتني فلم أستطع الحراك.

وبعد ثوان قليلة أحضر لي الخادم كأسًا من القهوة يفوح أريجها وأشار إلى الرجلين الرهيبين، فدنوت إليهما بوجه خائف، فألقيا علي السلام في رفق مع ابتسامة مودة رقيقة، وفي تردد، اصطنعت على شفتي المرتجفتين ابتسامة باردة، فقام هذان العدوان كما كنت أتخيلهما، وحضرا إلى منضدتي، وساورني شعور عجيب! ترى هل يريدان طردي وإخراجي؟ ولكنهما ألقيا إلي السلام للمرة الثانية وجلسا إلى جواري. لمحت أن وراء هذا المظهر الخارجي الرهيب أرواحًا طيبة كريمة، فجمعت أطراف شجاعتي وخاطبتهما بلغة تركية ركيكة، ومع ذلك فقد كان حديثي مثل العصا السحرية، فإذا بي أرى في محياهما عواطف الصداقة والمودة، وإذا بهما يفيضان عليّ مشاعر العطف، فيما كنت أحسبهما سينهالان عليّ بأسنان الخناجر.

وكان هذا أول لقاء لي مع المسلمين.

ثم مرت بي سنوات وسنوات في حياة حافلة بالأسفار والدراسات، وكنت مع مرور الزمن تتفتح عيوني على آفاق عجيبة وجديدة. لقد زرت كل بلاد آسيا الصغرى وسوريا، وتعلمت اللغات التركية والفارسية والعربية، وشغلت منصب أستاذ كرسي الدراسات الإسلامية في جامعة بودابست، وقرأت الأبحاث الجافة الدفينة التي ألفت خلال قرون طويلة في آلاف الصفحات من كتب العلماء، قرأت كل ذلك بعين فاحصة ومع ذلك ورغم كل ذلك فقد ظلت روحي ظمأى.

لقد وجدت في الكتب المختلفة شعاعًا هاديًا إلى بعض مراحل العلم، ولكنني كنت مع ذلك تواقًا إلى النعيم المقيم في ظل الحياة الدينية، كان عقلي متخوماً، أما روحي فقد بقيت ظمأى، وكان عليّ أن أتجرد من كثير مما جمعت من المعلومات لأعود فأومن بها من خلال تجاربي الشخصية، خالصة من الشوائب يصهرها في نار الشوق إلى معرفة الحق، كما يعالج الحديد الخام المنصهر بالتبريد المفاجيء فيصبح صلبًا مرنًا.

وفي ذات ليلة رأيت كأن محمداً رسول الله (ﷺ) بلحيته الطويلة المخضبة بالحناء وملابسه البسيطة الأنيقة يفوح منها أريج طيب، تلمع عيناه ببريق قوي مؤثر، وخاطبني في صوت عطوف «لماذا الحيرة، إن الطريق المستقيم أمامك، مأمون ممهد مثل سطح الأرض، سر عليه بخطى ثابتة وبقوة الإيمان».

قلت باللغة العربية في هذا الحلم العجيب: «يا رسول الله إن هذا الأمر سهل عليك، وأنت الغالب، وقهرت كل الأعداء، أما أنا فما زالت أمامي طريق شاقة، ومن يدري متى أجد طمأنينتي؟ فنظر إليّ في صرامة وحزم، وظل لحظة يفكر، ثم عاد يقول في لغة عربية واضحة ترن كل كلمة منها رنين الأجراس الفضية، وكأني بلسانه الشريف الذي استوعب تعاليم ربه، يضغط على صدري حتى جعلت

صدري يتهشم: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: ٦-٩].

قلت في حشرجة وقد أجهدني الألم: «إني لا استطيع النوم، وليس في قدرتي أن أجلو هذا الغموض التي تخفيها الأستار الكثيفة، أرشدني يا محمد، أرشدني يا رسول الله».

وانطلق من حلقي صريخ متقطع، كأنما كنت أختنق من ثقل هذا الكابوس، وكنت أخشى غضب رسول الله ﷺ، ثم شعرت كأنما أهوي من عالٍ إلى أعماق الأعماق، وفجأة استيقظت من هذه الرؤية، اتصبب عرقًا، يكاد الدم يتجمد في عروقي، وما مني عضو إلا يتأذى ألمًا، ثم أحاط بي صمت مثل سكون القبر، وشعرت بالأسى والوحدة.

وفي يوم الجمعة التالية، وقع الحدث العظيم في المسجد الجامع الكبير في دلهي، رجل غريب، شاحب الوجه، وخط الشيب شعره، يشق طريقه مع رجال بارحهم الشباب، بين الجموع المؤمنة التي يزخر بها المسجد كنت أرتدي الثياب الهندية وعلى رأسي قلنسوة رامبور، وعلى صدري الأوسمة التركية التي أهداها إليّ السلاطين السابقون، نظر إلي المسلمون في دهشة وذهول؛ أخذ جمعنا الصغير طريقه في اتجاه المنبر حيث جلس العلماء وذوو المكانة من الشيوخ فتلقوني بالسلام في صوت مرتفع رقيق.

جلست قريبًا من المنبر أتطلع الزخارف الرائعة التي تزين صدر المسجد، وإلى دعائمه الوسطى وقد بني النحل البري فوقها مساكنه يحوم حولها في أمان، ثم نودي بالأذان فجأة، وقد وقف المكبرون في مواضع مختلفة من صحن المسجد حتى يبلغوا الصوت إلى أبعد أركانه، فقام المصلون، وهم يقاربون أربعة آلاف وكأنهم

الجند المجندة، يستجيبون للدعوة الربانية، وقد اصطفّوا صفوفًا متقاربة، وصلّوا في خشوع عميق، وكنت واحداً من هؤلاء الخاشعين، لقد كانت تلك اللحظة عظيمة ومجيدة حقًّا.

وبعد الخطبة أخذ عبد الحي بيدي ليتجه إلى المنبر، وكان عليّ أن أسير في حذر حتى لا أزعج أحداً من الجالسين.

لقد آن وقت الحدث العظيم، فوقفت عند درجات المنبر وسرت حركة بين الجموع الزاخرة، بينما بدت لي آلاف الرؤوس المعممة كأنها حديقة مزهرة، إنهم جميعًا يهمهمون وهم ينظرون إلي - وقفت وقد أحاط بي العلماء بلحاهم الشهباء ينظرون إلي مشجعين، فأشاعوا في نفسي ثباتًا عجيبًا لم أعهده من قبل، وفي غير وجل أو تردد ارتقيت المنبر حتى درجته السابعة واتجهت ببصري إلى الجموع التي خيل إليّ أنها لا آخر لها وكأنما هي بحر يموج بالحياة، وقد اشرأبت الأعناق نحوي، وساحة المسجد كلها حركة، سمعت من قريب أصواتًا تردد «ما شاء الله» ورأيت نظرات يشيع فيها الحب والمودة، فشرعت أقول: «أيها السادة الكرام» «متحدثًا باللغة العربية» لقد حضرت من بلاد بعيدة، بحثًا عن العلم الذي لم أستطع أن أجده في بلادي، أتيت لأنهل مما تتوق إليه روحي، فاستجبتم لي ثم تحدثت عن الدور الذي قام به الإسلام في العالم، وعن المعجزات التي أُيّد بها رسول الله ﷺ وتكلمت عن انحلال المسلمين في العهد الحاضر، وعن الوسائل التي يمكن أن يستعيدوا بها مجدهم المفقود، وأن من المسلمين من يقول إن كل شيء موقوف على إرادة الله، بينما يقول الله في القرآن الكريم! «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

وركزت حديثي على هذه الفقرات من آيات كتاب الله ثم عرجت على تمجيد الحياة النقية الطاهرة وعلى ضرورة محاربة التحلل المستشري، ثم جلست. وكنت

مستغرقًا في الحديث بكل مشاعري، وأفقت على هتاف يتردد في صوت مرتفع من كل زوايا المسجد «الله أكبر» كان التأثر والحماس يعمان المكان ولا أستطيع أن أتذكر ماذا كان في ذلك الحين، غير أن «أسلم ناداني من فوق المنبر وشد على يدي وقادني إلى خارج المسجد».

قلت له؟ «لما هذه العجلة»؟

وقف الناس أمامي يتلقونني بالأحضان. كم من مسكين مجهد نظر إليّ في ضراعة، يسألني الدعوات يريد تقبيل رأسي فابتهلت إلى الله أن لا يدع هذه النفوس البريئة تنظر إليّ وكأني أرفع منها قدراً، فما أنا إلا حشرة بين حشرات الأرض أو تائه جاء في البحث عن النور، لا حول لي ولا قوة، مثل غيري من المخلوقات التعيسة.

لقد خجلت أمام أنات وآمال هؤلاء الناس الطيبين، وأحسست كأنني خدعتهم أو سلبتهم شيئًا.

ألا ما أثقل الحمل الملقى على عاتق رجال الدولة والسلطان، يضع الناس فيه ثقتهم ويطلبون منه العون، ويعتقدون أنه يستطيع ما لا يستطيعون أخرجني «أسلم» من أحضان أخوتي الجدد وأجلسني في «تنجا»(*) وذهب بي إلى المنزل.

وفي اليوم التالي وما يليه كان الناس يفدون عليّ في جماعات لتهنئتي ونالني من محبتهم وعواطفهم ما يكفيني زاداً «مدى حياتي»(١).

العوامل الفكرية التي أثرت في إسلامه:

لقد كان إسلام الدكتور جرمانوس نتيجة لعوامل نفسية وعوامل فكرية. فقد جذبه الشرق بطبيعته الساحرة وروحانيته، وما لاقاه من معاملة إنسانية من

(*) تنجا: مركبة خفيفة ذات عجلتين تستعمل في الهند.

(١) د. عبد الكريم جيرمانوس: لماذا أسلمنا، مكتبة الحرمين للعلوم النافعة ـ الدوحة ١٩٦٩ ص ٨٣ ـ ٩٣.

المسلمين، ثم تأثر نفسيًّا بالرؤية التي رأى فيها رسول الله ﷺ، وقد دعم ذلك كله الصورة الحقيقية التي أخذها عن الإسلام من خلال قراءة القرآن الكريم والبحث في الكتب الإسلامية وتوصل إلى عدة نقاط دفعت به مع ما سبق من الظروف النفسية إلى اعتناق الإسلام، ومن أهم هذه النقاط ما يلي(١):

السعادة في الإسلام بالروحانية والمثل العليا:

يقول في بيان ذلك «خالجني منذ طفولتي حنين - إلى أرض الإسلام وكأنها أرض الميعاد الخيالية، فإن الاندفاع نحو الأهداف المادية والرغبة الملحة في السرعة وهي طابع الحضارة الأوربية، أبديا لي الشرق الإسلامي، دنيا سحرية تفيض بالشعر وتزدان بالمثل الإنسانية.

وإنني الرجل الأوربي الذي لم يجد في بيئته إلا عبادة الذهب والقوة والسيطرة الميكانيكية، تأثرت أعمق التأثر ببساطة الإسلام وعظمة سيطرته على نفوس معتنقيه.

ففي الوقت الذي يمنحنا فيه الغرب كل عام جديد، أداة انتقال أسرع أو أداة إهلاك وتدمير أفتك، يدفعنا إلى حروب استغلال شنيعة يبقى الشرق الإسلامي مستوليًا علي بروحانيته ومثله العالية، فبينما اتجه الأوربيون بملكات الكشف والاختراع إلى استحداث وسائل تدمير الإنسانية حافظ الإسلام على مبادئه الداعية إلى الإخاء والحرية والمساواة بين أبناء الجنس البشري.

وبينما التمس الأوربيون أسباب سعادتهم في الاستزادة من نعيم البدن كفل الإسلام للإنسان راحة نفسية، إذ قامت تعاليمه على أن السعادة لا تكون في عرض زائل كسيارة أو طائرة بل في رضا الضمير، وسبيله أن يقوم الإنسان بواجبه نحو ربه ونحو الناس، فيحس الأفراد بعد الوفاء بهذه الواجبات اطمئنانًا قلبيًا أطول

(١) عبد الرحمن العيسوي: لماذا أنا مسلم، مكتبة وهبة، ١٩٨١م، ص ١١ - ١٦.

عمراً من السعادة العابرة التي تصدر عن طريق الأسلحة وتنبعث عن الرغبة في التدمير.

الإسلام يؤثر في كل مناحي الحياة:

يبين الدكتور جيرمانوس هذه الحقيقة بقوله:

والحق أن الكنائس الأوربية لا تكاد تفترق تعاليمها الروحية عن الإسلام، إذ أننا لو استبعدنا من المسيحية فكرة التثليث نجد أن أهدافها ومثلها، هي استخلاص القانون الإلهي. هذا القانون الذي يجب أن نطيعه.

أما الفارق القائم بين الشعوب الإسلامية والشعوب المسيحية، فيرجع في الحقيقة إلى الحضارة الأوربية، إذ أن الأوربيين لا يطبقون تعاليم دينهم على أمور حياتهم، بينما استمر الإسلام مؤثراً في كل ما يتصل بحياة المسلمين.

اقتصرت المسيحية على عبادة ساعات من كل أحد، بينما امتلأت بقية الأيام بكفر عظيم، وبكل شيء يتحدي تعاليم المسيح... - أما الإسلام فلا تزال العقيدة المتجددة أبداً، والتي يجب أن يعيش المسلمون طبقًا لقانونها، وليس مجرد تعاليم نظرية فقط:

وَهْمُ من قال: إن الإسلام سبب تخلف المسلمين:

ينفي جيرمانوس عن الإسلام كونه سبب تخلف المسلمين كما يدعي البعض فيقول: - « ولقد تدهورت ثروة المسلمين، واضمحلت معارفهم وضؤلت سلطتهم السياسية، حتى لقد أصبح من العسير بعد الحرب العظمي الماضية أن تجد أمة إسلامية حرة. وقد وهم السطحيون من الناس - حين قارنوا حال الدولة الإسلامية بتزايد نفوذ الدول المسيحية - أن الدين الإسلامي هو علة سقوط دولة المسلمين... ولكن أستطيع أن أجهر بمنتهى الجرأة بعد إذ قرأت كتاب المسلمين المقدس وثقافة

الإسلام، بأنه لا يوجد في تعاليم الإسلام كلمة واحدة أو عمل واحد من شأنه أن يعوق تقدم المسلم أو يمنع زيادة حظه من الثروة والمعرفة والقوة.

القرآن وحي من السماء ومحمد رسول الله أعظم مصلح:

إن تعاليم القرآن هي أوامر الله وهي مرشد أبدي للبشر، وبعد دراسة د. جيرمانوس للقرآن الكريم وللسيرة النبوية تأكد له أن القرآن نزل من عند الله وتأكدت له نبوة الرسول ﷺ. ولتستمع إليه يقر بذلك حيث يقول: «إنه كتاب ملؤه الصراحة والوضوح لمن صدقت رغبته في تنهمه وإن محمداً رسول الله لأعظم مصلح ثوري عرفه التاريخ مؤيد بوحي من عند الله، ونحن مأمورون أن نفهم تعاليمه نطبقها على شئون حياتنا الدنيوية مع الإيمان بأن ما أوحى به إليه إنما هو أساس لا يهتز ولا يتعثر لكونه إلهيا. ولقد أخطأ المسيحيون إذ لم يفهموا الإسلام على حقيقته وبالتالي لم يتشبعوا بروحه»(١).

الإسلام يهتم بالروح ولا يهمل المادة:

ومن الأمور التي جذبت دكتور جبرمانوس الى الإسلام ذلك التوازن بين الروح والمادة حيث لا يهتم بالروح وينسى البدن ولا بالبدن وينسى الروح، وهو يبين هذه الحقيقة فيقول: «إن ما يميز الإنسان عن الحيوان هو إدراكه أن الكون تحكمه قوانين روحية وتُسيّره قوى غير محسوسة.

وهذه الحقيقة هي أساس كل دين ولكنه لا يوجد دين يؤكدها أقوى مثل دين الإسلام الذي يبسط أمام الإنسان طريقًا وسطًا لا تتجرد فيه الروح عن البدن ولا البدن عن الروح، بل يكون وسطًا بين المادة والروح، على أن لا ينسى مطلقًا أنه كائن روحي قبل كل شيء».

(١) نفس المرجع ص ١٣ - ١٤.

الإسلام دين المساواة والإخاء والتسامح :

من الأمور التي لفتت نظره أن الإسلام يحقق عمليًا المساواة والإخاء ويدعو إلى التسامح ويحافظ على حقوق الإنسان لنستمع إليه يقول :ـ

وإن من أحجار الزاوية في بناء هذا الدين هي أن الناس أمام الله سواء. من آمن منهم بهذا الدين وارتضى شريعته. ويترتب على هذا أنهم أمام بعضهم البعض سواء.

«ليس في تعاليم الإسلام شيء لا يمكن تحقيقه عمليًّا وهو مفخرة عظيمة يتميز بها عن سواه. ويطلب الإسلام من المسلمين أن ينظر أحدهم إلى الآخر كأخ له لما بينهما من صلة الإيمان بالعدل وتقوى الله. ومن حق غير المسلمين من اهتدوا إلى حقيقة الله عن طريق أي كتاب من كتبه المنزلة، أن يعيشوا في هدوء وسلام مع المسلمين.

وفي التاريخ الإسلامي الدليل على أن المسلمين الصادقين لم يضطهدوا أحداً من جيرانهم.

على أن الفوارق القائمة بين المسلم وغير المسلم تسقط بمجرد اعتناق الإسلام، فلا ميزة للمسلم ابن المسلم على المسلم ابن المشرك، ولا فضل لقرشي على حبشي»(١).

وبين سبق الإسلام إلى هذه القيم فيقول «إن أوربا لم تعرف الإخاء بين الناس، إلا بعد الثورة الفرنسية بينما دعا الإسلام إليها وطبقها المسلمون قبل ثورة فرنسا بنحو ألف عام، ولقد كانت فكرة المساواة والديمقراطية، ابتكار القرن السابع عشر في أوربا بينما هي من حقائق الإسلام وأصوله منذ نشأته»(٢).

---

(١) عبد الرحمن العيسوي: لماذا أنا مسلم ص ١٥ ـ ١٦.

(٢) نفس المرجع ص ١٣ ـ ١٤.

ولم يعترف حكام أوربا بالاشتراكية إلا في السنوات الحديثة، بينما سبقهم الإسلام إلى المؤاخاة بين المسلمين وأهل الكتاب (يهود ومسيحيين وغيرهم) فأقام بذلك النظام الاشتراكي الصحيح واستمتع في ظل نظامه كافة الناس بكافة الحقوق الإنسانية. والاشتراكية / الأوربية تدهورت إلى حضيض الشيوعية المنطوية على حرب رؤوس الأموال، أو إلى الوطنية الألمانية الاشتراكية القائمة على اضطهاد وهمي لليهود وغلو في تطبيق نظرية (الجنس الممتاز) أما الإسلام فقد نسق نظامه الاشتراكي الطبقات والثقافات والأجناس على اختلافها - في عقد اجتماعي مرتكز على حسن التوازن.

الإسلام يحافظ على الصحة :

ولقد حرم الإسلام الخمور وسبق أوربا إلى قوانين الصحة الحديثة بأكثر من ألف عام. ولقد حض على النظافة.

الإسلام ينصف المرأة :

ومما لفت نظر الدكتور جيرمانوس إلى الإسلام موقفه الرائع من المرأة وهو يعبر عن هذا الموقف بقوله : « وإني لأجرؤ على القول بأن الإسلام منح المرأة حقوقًا قانونية أكثر مما كان في المسيحية، وقد أعترف، بإباحته تعدد الزوجات في حدود معقولة، بالأمر الواقع، أي بما تقتضيه غريزة الرجل، فحال بهذا دون تعدد الزوجات غير المشروعة الذي يسود الجماعة الأوربية في هذه الأيام ».

الإسلام يخدم الثقافة البشرية :

يبين الدكتور جيرمانوس بقوله : « ولقد تمخض الإسلام في العصور الوسطى عن ثقافة عظيمة صانت الثقافة القديمة من الضياع ونقلتها إلى العصور الحديثة.

بروز الجانب الروحي الإنساني في المسلم :

يشير الدكتور جيرمانوس إلى ذلك بقوله : « المسلم إذا كان صادق العقيدة فهو إنسان متدين روحي، مستنير، ذو حاسة إنسانية من طراز سام، مما يثير التقدير والحب له.

ضرر التقليد الأعمى للحضارة الأوربية على الأمة الإسلامية:

يبين الدكتور جيرمانوس خطورة التعلق بالمظاهر الكاذبة للحضارة الغريبة فيقول: «على أنه من القوانين الطبيعية أن يكن للنجاح والقوة والثروة من التأثير مثل ما للكواكب الكبيرة من الجاذبية علي المذنبات الصغيرة. لذلك لا يجب أن يقع في نفسنا موقع الاستغراب أن تغشى عيون طائفة كبيرة من المسلمين أمام أضواء السيادة السياسة التي ظفرت بها دول أوربا وإن تعلقوا بمظاهر حضارة هذه الدول.

ولقد قررت بعض الدول الإسلامية رسميًّا اصطناع الحضارة الأوربية وما تقضي به من أساليب الحياة وطرائق التفكير اصطناعًا هو التقليد الأعمى بعينه، ولقد كان لهذا التقليد أثر كريه على المسلمين الذين جعلوا يمارسون رذيلة السكر والطيش والاستهتار.

خلاص العالم من التهديد بالاصطدام الاجتماعي:

ويبين الدكتور جيرمانوس أن العالم مهدد بما كان في الجاهلية من نزعة طائفية تؤدي إلى التصادم الاجتماعيّ ولا انفكاك من ذلك إلا بالإسلام الذي يزاوج التقدم المادي بالروحية السامية، يقول في ذلك:-

«إن الأمم الإسلامية اليوم معدمة واهنة متخلفة في ميدان الحضارة لكن كنت ولا أزال متعلقًا بالإسلام على الرغم من أنني أوربي خالٍ من كل دم دخيل، وذلك لاعتقادي بأن مستقبل العالم وخلاصه من الاصطدام الاجتماعي الذي يهدده، لن يكون إلا في المزاوجة السعيدة بين الحضارة الأوربية بدرسها علمها... والروحية السامية التي تنطوي عليها عقائد الدين الإسلامي.

إن عاتق أوربا قد أبهظته أثقال جنونها بالرأسمالية والوطنية الاشتراكية ولا تزال أوربا قادرة على الدفع بالجنس البشري إلى بربرية شبيهة بما كان عليه الناس في عهد الجاهلية الذي علا فيه شأن النزعة الطائفية، حتى أصبحت كل قبيلة تحسب

أن دمها هو وحده الخالي من الشوائب. فتمزقت بفعل هذه النزعة الجماعة الإنسانية.

لقد كانت المادية الصارخة والتشيع للأجداد - أي الإيمان باللحم والدم - هي الدوافع المحركة قبل الإسلام، وكان العنف هو الحكم الأسمى وهنا جاء وحي القرآن وهبطت كلمة الله معلنة بأن التفاخر بالأنساب والاعتزاز بصلة الدم والتشيع للجنس، لن تؤدي إلى صيانة الحياة الإنسانية ولا إلى تحقيق الهدوء والنجاح وأن الطريق إلى ذلك هو تقوى الله والصلاح واتباع قوانين السماء.

لقد وضع الإسلام حداً للنظرية التي كانت تعتبر الإنسان وحدة في قبيلة، أو وحدة في شعب، أو ابنا للغة من اللغات وسما بالأفراد من وهدة الحيوانية إلى أفق إنسانية فسيحة.

وإني لآمل بل أتوقع أن يكون الإسلام قادراً مرة أخرى على تحقيق هذه المعجزة في الوقت الذي تحيط بنا فيه ظلمة كثيفة، وإني لأمد يدي لإخواني المسلمين وأنخرط في صفوفهم، مجاهداً في سبيل الإسلام، باذلاً ما أستطيع من إخلاص وحسن طوية كاشفًا عن الجروح، باحثًا عما يطهرها ويشفيها، متحملاً في سبيل ذلك ما يتحمله المجاهدون من نصب مؤملاً في النجاة التي كتبت للمتقين».

٤ - روجيه جارودي

نشأته:

نشأ روجيه جارودي في أسرة فرنسية ملحدة لكنها محافظة في السياسة.

رحلته الفكرية والروحية:

وهو يحكي لنا رحلته الفكرية والروحية التي انتهت به إلى الإسلام عام ١٩٨٦ حتى نعرف من خلالها كيف ولماذا أسلم حيث يقول:

أثناء الأزمة الاقتصادية العالمية(١) وانتشار الفاشية في إيطاليا والنازية في ألمانيا(٢).

بدأت أشعر أن الحياة عبثية ولا معنى لها، وقرأت في هذه السن المبكرة لكيرك جارد عن واقعة فداء سيدنا إبراهيم بابنه إسماعيل وتأثرت من تأملات كيرك جارد في إذعان إبراهيم وطاعته لربه وقبوله لكلام الله بلا قيد أو شرط، وقررت في سن الرابعة عشرة اعتناق البروتستانتية، وفي الثانية والعشرين قررت الانضمام إلى الحزب الشيوعي لكنني لم أكن في يوم من الآيام ملحداً، وعندما كنت عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنساوي كنت في الوقت ذاته رئيسًا للطلاب المسيحيين البروتستانت ودخلت الحزب الشيوعي كمسيحي، وكنت في هذه الأثناء طالب فلسفة وكنت أبحث عن منهج فوجدته في الماركسية، والماركسية لا علاقة لها بالأديان، ومن وجهة نظري أن الدين يضع الغاية القصوى للحياة ويجسد القيمة المطلقة ويجعل للوجود معنى(٣).

وإذا كان كيرك جارد قد أثر في روجيه جارودي من الناحية الروحية مما دفعه إلى اعتناقه البروتستانتية فإن كلا من آدم سميث وكارل ماركس قد أثر في اعتناقه الماركسية كمنهج مع استمرار وجود الدين عنده كغاية قصوى متمثلا في البروتستانتية يبين جارودي ذلك بقوله «اتجهت إلى المسيحية وإن كنت ما زلت أفتقد المنهج وأبحث عن الوسيلة لاتقاء هذه القيم المطلقة، وهو ما وجدته في الماركسية، وكان أمامي في ذلك الوقت اختيارات أن أولهما «لآدم سميث» المدافع عن الرأسمالية والذي يرى أن نشأة الغنى والثروة يتم عن طريق المصلحة الشخصية

(١) حدثت عام ١٩٢٩ وبدأت بالولايات المتحدة الأمريكية وكان لها انعكاسها على أوربا.

(٢) بدأت بوصول هتلر إلى السلطة عام ١٩٣٣.

(٣) رجاء جارودي الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ترجمة دار الغد، دار الغد العربي، القاهرة ١٩٩٦ ص ٢٧٩، ٣٨٠.

والتي يتبعها بالضرورة تحقيق المصلحة العامة وهذه الدعوة من آدم سميث لم يتحقق حتى الآن أما الاختيار الثاني فوجدته في كارل ماركسي الذي من خلاله عرفت أن تركيز الثروة في أيدي الأقلية ينتج أيضا الفقر في أيدي الأغلبية، فهناك فقط ٣٥٠ فردا في العالم يملكون ٢٫٥ مليار من ثروة العالم[١].

ويضيف جاروي قائلا: «كنت حتى ذلك الحين لا أرى تناقضا في مساري الروحي بل تكاملا فالدين عندي هو الغاية القصوى والنهاية أما الماركسية فتقدم لي المنهج والوسيلة حتى عرفت الإسلام فوجدت في القرآن دينا شاملا وعادلا»[٢].

لقاؤه الأول مع الإسلام:

أخلاق الإسلام تنقذ حياته:

كان لقاؤه الأول مع الإسلام لقاءً عجيبًا تأثر فيه بالأخلاق الإسلامية التي كانت سببا في إنقاذ حياته وهو يعلن هذه الحقيقة فيقول:

«لقائي الأول مع الإسلام كان ذا طابع عجيب وأدين له بحياتي»[٣].

ويروي الواقعة التي حدثت له في المعسكر الفرنسي الذي كان يخدم فيه في الجزائر عام ١٩٤١حيث اعتقل مع بعض زملائه يقول: «عندما كنت معتقلاً في أحد سجون الجزائر نظمنا اضراباً عام ١٩٤١ وطلب قائد المعتقل فك الإضراب فرفضنا، وعندما تأكد أننا مصرون على الرفض طلب من الجنود أن يطلقوا الرصاص فلم ينفذوا الأمر، وعلمت بعد ذلك أن هؤلاء الجنود جزائريون مسلمون، وأن الدين الإسلامي يمنع المسلم من إطلاق الرصاص على أعزل، وبدأت دراسة الإسلام وبخاصة الإسلام الذي كان سائداً في الأندلس»[٤].

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٣٠٣.

(٢) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(٣) نفس المرجع ص ٣٨٧.

(٤) المرجع السابق ص ٣٨٠.

ومن هنا بدأ اهتمام جاوردي بالثقافة الإسلامية، فقرأ للقرطبي وابن حزم وابن ماجه وابن طفيل وابن رشد وابن عربي.

لقاؤه الثاني مع الإسلام:

(طرده من الجزائر لثنائه على الثقافة الإسلامية)

يحكي لنا جارودي واقعة طرده من الجزائر بسبب ثنائه على الثقافة الإسلامية فيقول: «لقائي الثاني مع الإسلام كان بعد إطلاق سراحي من معسكرات النازية.. وقد بدأ اهتمامي أولاً بالثقافة الإسلامية وليس بالدين الإسلامي وكان أول أعمالي هو المحاضرة عن دور الثقافة الإسلامية في الثقافة العالمية «عام ١٩٤٦ في مدينة الجزائر... قرر على أثرها الجنرال «ماس» طردي من الجزائر بتهمة «الترويج لدعاية مناهضة لفرنسا».

هل تعرفون لماذا؟ لأني اقتطفت في هذه المحاضرة مقولة ل «أنا تول فرانس» يقول فيها إن أسود عام في التاريخ الأوروبي هو العام الذي حدثت فيه معركة بواتييه التي اندحرت فيها الحضارة العربية أمام البربرية الفرنسية»(١).

اهتمامه أولاً بالثقافة الإسلامية قبل اعتناقه الإسلام:

يقول جارودي «هكذا كان اهتمامي أولاً بالثقافة الإسلامية وكل كتبي التي كتبتها عن الإسلام كتبتها قبل أن أعتنق الإسلام فكتبت «الإسلام يسكن مستقبلنا» وكتبت «وعود الإسلام».... إلى آخره، لم أكن مسلمًا ولكن كان لديّ إلمام كبير بالثقافة الإسلامية وبشكل خاص الفكر الصوفي والصوفيين الأوائل وهو بالفكر الذي استهواني كثيراً ولا يزال يستهويني حتى هذه اللحظة.. إن قرطبة عاصمة الخلافة في أسبانيا أكبر شاهد على هذه الثقافة التي لا تزال تجذب مئات الآلاف إليها كل عام؛ مئة ألف زائر كل عام(٢).

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨٩.

(٢) المرجع السابق ص ٣٨٩.

وقد كان إعجاب جارودي بالثقافة الإسلامية التي ازدهرت على أيدي المسلمين وانتقلت من الأندلس إلى أوربا سببًا من أسباب اقترابه من الإسلام يقول: «لقد كانت قرطبة بحق هي عاصمة الثقافة في أوربا، خذ مثلاً الجراحة، لقد عرفت أعظم الجراحين في العمليات الجراحية، والولادة، وعمليات العيون أن كان الأدوات الجراحية التي استعملت فيما بعد في كل جامعات أوربا في لندن وباريس وباليرمو مونيليه اخترعها المسلمون وكتبهم في الطب كانت هي المراجع المعتمدة في كل معاهد الطب في أوربا، ونفس الشيء في الرياضيات والفلك، وكل العلوم وهم الذين بلوروا المناهج والتجارب العلمية..

باختصار الغزو العربي لم يكن غزواً عسكريًّا إنما هو فتح للحضارة والثقافة أو إذا أردت الدقة ثورة ثقافية.. وأنه لمن دواعي سعادتي أنني أسمع ملك أسبانيا الحالي «خوان كارلوس» يردد مقولة «إن فترة الخلافة الإسلامية هي فترة عظيمة في التاريخ الإسلامي» وإن كانت الحقيقة تتطلب القول إنها حقبة عظيمة في التاريخ الأوربي كله..»[1].

الإسلام يوظف الثقافة والعلم في خدمة الإنسان وليس في تدميره:

وإذا كان المظهر العلمي والثقافي عاملي جذب لجارودي إلى الإسلام فإن ماجذبه إليه اكثر إن العرب قدموا مفهومًا للعلم يختلف عن مفهوم الحضارة الغربية.. فقد كان البحث العلمي والكشف الفلسفي والمنهج التجريبي الذي كان موجودا في قرطبة في خدمة الإنسان وكان يبحث عن الحكمة في تطور الإنسان بينما على العكس الحضارة الغربية تستخدم العلم لتدمير الإنسان كما في اكتشاف الذرة والقنابل النووية[2].

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩٠.

(٢) المرجع السابق ص ٣٩١.

العلم في الإسلام لايقف عند حد السببية :

فالعلم في الإسلام لا ينفصل عن الإيمان، ومقصد العلوم هي اكتشاف قوانين الله في المادة لخدمة البشرية فالاسلام يستجلى حكمة الله وراء القوانين المادية.

وهناك دوائر البحث، وعند دائرة معينة يكون للعقل حدوده التي يتوقف عندها، لأن العلم المطلق عند الله وحده والإيمان الذي يدفع الإنسان للبحث وراء السببية يعطي للعقل دافعًا بدون حدود..

يقول: «الذي يعطي الإسلام تفرده الخلاق هو أن الإسلام يرى أن العلم في بحثه عن السببية.. لم يكن يعطي الأولوية للسببية المادية كما أن الحكمة في بحثها عن الوحي النهائي لم تعتبر نفسها نهائية»..(١).

ديمقراطية الثقافة :

* وما أعجب جارودي في الإسلام أيضًا ما أسماه بديمقراطيته الثقافية حيث ينهى الإسلام عن كتم العلم..(٢).

*يقول بعد اختراع الورق وأخذه عن الصينيين تصنيعه في دمشق ثم قرطبة، فبعد الورق ثم تعميم الثقافة ولم تعد مقصورة على فئة معينة(٣).

الجانب الروحي في الإسلام :

يقول جارودي «الذي جذبني إلى الإسلام هو جانبه الروحي والصوفي» وقد أخذ هذا الجانب عن طريق «رينيه جينو» الذي إعتنق الإسلام أيضًا وفسره بطريقة صوفية ومن خلاله اكتشف جلال الدين الرومي وفريد الدين العطار وابن عربي والحلاج..

(١) المرجع السابق ص ٣٩١، ٣٦٠، ٣٠٥، ٣٠٤.

(٢) المرجع السابق ص ٣٩٢.

(٣) المرجع السابق ص ٣٩٢.

يقول: «وهكذا أصبحت مسلماً، تدرجت من الإعجاب بالثقافة الإسلامية إلى «روحية الإسلام» ثم بين تحوله إلى مفهومه عن الإسلام الذي يتميز بالشمول والتجدد ونفي الوساطة بين العبد وربه..(١).

تأثره بالديمقراطية الاجتماعية في الإسلام:

ففي الإسلام نجد أن الفقير له حق في مال الغني فلا يزداد الأغنياء غنى والفقراء فقراً إنما كلما ازداد الأعنياء غنى كلما انعكس ذلك على رفع مستوى الفقراء وينتقد جارودى الفكر اللبرالي والرأسمالي قائلاً: «خذ مثلا الشمال والجنوب..إن ٨٠٪ من المصادر الطبيعية موجودة في الجنوب ولكن هذه الثروة مسيطر عليها ومستهلكة من قبل ٢٠٪ فقط من الشمال، والنتيجة الطبيعية لكل هذا أن ٤٥ مليون إنساناً يموتون من الجوع أو بسبب سوء التغذية.. بينهم ١٥ مليون طفل طبقًا لإحصاءات اليونسيف، هذا يعني أن نموذج النمو الغربي على طريقة آدم سميث والفكر الليبرالى الذي يتبناه الليبراليون يعني أن النمو الغربي يكلف بلدان العالم الثالث «هيروشيما» كل يومين..(٢).

* اعتراف الإسلام بكل الأنبياء:

يقول جارودي «هناك شيء آخر يدهشني في الإسلام، فعندما ترى اليهودية ترفض المسيح نبيًا، ونرى المسيحية ترفض محمداً ﷺ نبيًا، تجد الإسلام يعترف بأنبياء كل هذه الأديان»..(٣).

* النظام المالي في الإسلام ومعنى الخلافة في الأرض:

يقول: في الإسلام الله وحده هو المالك، له ما في السموات والأرض» والإنسان خليفة الله في الأرض مكلف بإدارة هذا الملك في سبيل الله، ولا يجوز للإنسان

(١) المرجع السابق ص ٣٩١، ٣٩٠، ٣٠٥، ٣٠٤.

(٢) المرجع السابق ص ٣٩٣.

(٣) المرجع السابق ص ٣٩٤.

المسئول عن إدارة ملك الله أن يتصرف فيه كما يشاء، فلا يمكن له أن يدمره وفقًا لنزواته أو أن يبدده أو أن يترك الأرض بلا زراعة دون أن يجعلها تثمر بالعمل، ولا يمكن له أيضًا أن يجمع المال ويكنزه، ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] وكل تعاليم القرآن تنادي بالزكاه والتي تتمثل في انتقال اجتماعي للثروات، كأحد متطلبات الدين ويحظر الربا، أي كل زيادة في الثروات بلا عمل في خدمة الله، وهي تعاليم تهدف إلى الحيلولة دون تكديس الثروات في أحد قطبي المجتمع وتَفَشِّي البؤس والفقر في القطب الآخر(١).

*** انتفاء الواسطة بين الإنسان وربه:**

ومن الأمور التي جذبت جارودي للإسلام انتفاء الواسطة بين الإنسان وربه يقول: «العلاقة بين الإنسان وربه في الإسلام علاقة مباشرة فلا توجد واسطة بينهما ولا يوجد كهنوت ولا واسطة رجال دين فلا كنيسة ولا قساوسة..»(٢).

*** سماحة الإسلام:** من خلال دراسته لنموذج الإسلام الذي كان سائداً في الأندلس تأثر جارودى بما يتيحه الإسلام من حرية العقيدة والتسامح حيث يقول: كان هناك مناخ رحب للحرية. فإلى جوار المساجد تجد الكنائس والمعابد وإلى جوار الفلاسفة المسلمين تواجد فلاسفة يهود مثل ابن ميمون وساهموا في الحضارة الإسلامية.

*** الإسلام يسمح بالتجديد والتغيير:**

يقول جارودي عن الإسلام: «إنه دين عام وشامل لايحتكر فيه أحد الحقيقة غير الله وحده، هو الذي يعلم وهو الذي يعرف، ومعرفة الله هي المعرفة المطلقة الثابتة، ومعرفة البشر نسبية ومتغيره، والله لم يخلق العالم مرة واحدة إنما هو مستمر

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨٤.

(٢) المرجع السابق ص ٣٨٤.

في الخلق. والفقه هو معرفة الفقهاء عن الإسلام، وبالتالي فهي معرفة بشرية متغيرة الزمان والمكان والظروف؛ فقه الشافعي غير فقه أبي حنيفة، هناك فقه قديم وفقه جديد نطالب به، والإخلاص للقدماء لا يعني الحفاظ على رماد القبور، وإنما يعني الحفاظ على شرارة الخلق والإبداع[١].

ويبين الدليل على تشجيع القرآن للإنسان على الاجتهاد فيقول: «وكما يقول صديقي الفيزيائى المسلم عبده سلام: «إن القرآن يحتوي على ثلاثمائة وخمسين مرة الدعوة إلى المبادرة الإنسانية أي أن هناك مغزى وهو تشجيع الإنسان على الاجتهاد وهو الأمر الذي كان معمولاً به خذ مثلاً أبا حنيفة والشافعي؛ هذان العبقريان عاشا في مجتمعات متغايرة، أظهرا كيف يمكن أن يتغير اجتهادهما..»[٢].

ويضيف قائلاً: «وعملنا كمسلمين هو أن نجتهد في تطبيق الشريعة، كما كان يجتهد العباقرة الأوائل كأبي حنيفة أو الشافعي. إن دور المسلم الآن هو تأسيس فكر إسلامي للقرن العشرين أو الحادي والعشرين كما فعلوا هم. إن دورنا هو تقليد القدوة وليس تقليد فتاواهم إننا لا نستطيع أن نجد لديهم حلاً لمشاكل الطاقة النووية ولا إدارة البنوك.. إذن من المبادئ المقدسة يجب أن نجد طريقنا في فهم مجتمع معين ولحظة تاريخية معينة...»[٣].

* الإسلام يحض علي المحبة الإنسانية:

مما جذب جارودي إلى الإسلام أنه دين يحض على المحبة بين البشر يقول: «عندما قرأت صدر الدين الشيرازى تعلمت أن المحبة الألهية في الإسلام تكتسب بالمحبة الإنسانية...»[٤]

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨٣.
(٢) المرجع السابق ص ٣٩٦.
(٣) المرجع السابق ص ٣٩٦، ٣٩٧.
(٤) المرجع السابق ص ٢٨٥ وهذا الكلام يريده الحديث القدسي: «وجبت محبتي للمتحابين في...».

جارودي وتحليل مغزى العبادات:

في كتابة الإسلام دين المستقبل يحلل جارودي مغزى العبادات تحليلاً عميقًا نلخصه في الآتي:

- إن الصلاة هي مشاركة الإنسان بشكل واع في تسبيحة الحمد التي تربط المخلوق بخالقه.

- والصيام هو انقطاع إرادى في إيقاع الحياة يعتبر تأكيداً على حرية الإنسان تجاه ذاته ورغباته.

- والزكاة نوع من العدالة الداخلية المفروضة بحكم الشرع والانتصار على الأنانية والبخل في قلوب أهل الإيمان، وتذكرهم بأن ثرواتهم - مثل كل شيء - تعود إلى الله تعالى لا يمكن للفرد التصرف فيها على هواه..

- والحج يجسد في أحد معانيه الحقيقة العالمية للأمة الإسلامية ككل..

الأصول الفكرية لجارودي:

قرأ جارودي في باكورة شبابه لكل من آدم سميث في الرأسمالية ولكارل ماركس في الشيوعية متأثراً بصورة أكبر بآراء كارل ماركس حيث وجد أن الرأسمالية تكرس الثروة في يد فئة قليلة مما يؤدي إلى موت الكثرة من الجوع وسوء التغذية ومن ثم انضم للحزب الشيوعي الفرنسي وكان عضواً في لجنته التنفيذية.

وممن أثروا أيضًا في مسيرته الفكرية كريكجارد الذي قرأ له تحليلاً لقصة تضحية إبراهيم بابنه إسماعيل عليهما السلام وكانت سببًا في اعتناقه المسيحية على المذهب البروتستانتي، وعندما تعرض للاعتقال في الجزائر وقام هو وزملاؤه بالتمرد وأعطى قائد المعسكر الجنود الأمر بإطلاق النار عليهم رفض الجنود الجزائريون المسلحون تنفيذ الأمر لأن الشرف العسكري وأخلاق الإسلام يأبيان إطلاق النار على العُزل من السلاح فتأثر بذلك وبدأ يقرأ في الإسلام، وكان ممن

شكلوا معلوماته الأولية عن الإسلام من المفكرين المسلمين ابن رشد وجلال الدين الرومي وابن العطار وصدر الدين الشيرازي وابن عربي وقد قدم له هؤلاء دينيه جينو المفكر الفرنسي الذي كان قد اعتنق الإسلام..

بعض أفكار جارودي:

١ ـ وحدة الأديان (العقيدة الإبراهيمية):

يقول جارودي في الجزء الثاني من كتاب «الإرهاب الغربي» وهو أحدث كتبه: «إن الله ليس إلهًا خاصًا للمسلمين والإسلام قائم على أن كل الأديان تعبد إلهًا واحداً منذ إبراهيم إلى محمد ﷺ، والله يأمر المسلمين في القرآن بالإيمان بأنبياء بني إسرائيل وبالمسيح، ولم يستخدم كلمة «الشريعة» في القرآن إلا مرة واحدة: **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾** [الجاثية: ١٨]. قال تعالى: **﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾** [الشورى: ١٣] وقال تعالى: **﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾** [المائدة: ٤٨] «وبهذا المفهوم فإن الأديان لا تتصارع ولكن تجتمع على الله ولكل دين طريق للوصول إلى الله...»(١).

من هنا يذهب جارودي إلى القول بوحدة الأديان إذ يرى الإسلام انفتاحًا شاملاً على كافة الديانات التي ليست في نظره إلا لحظات من الغطاء في الملحمة الإنسانية فهو يرى أن تندرج الأديان السماوية الثلاثة تحت لواء الديانة الإبراهيمية ويصبح لكل دين طريقته تكون الأديان تحت الديانة الإبراهيمية أشبه بالمذاهب الفقهية في الإسلام أي تستوعب الديانة الإبراهيمية الاختلافات كما يستوعب

---

(١) روجيه جارودي: الإرهاب العربي جـ٢، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٤م، ص ٥٥ ـ ٥٨، محمد عثمان الكاشف، لماذا أسلمت؟ مكتبة القرآن ١٩٨٦ ص ١١٧.

الإسلام المذاهب الفقهيه وقد أسس جارودي المتحف الإسلامي في أسبانيا وافتتحه بندوة عن أبناء إبراهيم وحضره ممثلون عن الأديان الثلاثة(١).

تقول: إنه بعد نزول القرآن مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه، والنص على عالمية الإسلام فإن الناس جميعًا مطالبون بالإيمان به واتباع طريقته في الوصول إلى الله، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال تعالى: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [آل عمران: ٦٧].

٢ ـ لماذا حدث الانكسار للعالم الإسلامي:

يجيب جارودي بتحليل أسباب الانكسار في عدة نقاط(٢).

١ ـ حصر الإسلام على فهم المسلمين له في القرون الأولى حيث كان عالم الإسلام محدوداً، والإسلام دعوة عالمية لكل زمان ومكان.

٢ ـ الشريعة وهي قانون الله أصبحت جامدة عند المتمسكين بالنصوص حرفيًّا دون محاولة الوصول إلى فهم الجوهر. ولم يساير هؤلاء طبيعة التطور وطبيعة المجتمعات المتنوعة التي ينبغي أن نجذبها للإسلام، وما يردده المتشددون يصور الإسلام على أنه يعطي لأصحاب الدعوة سلطة الحق الإلهي المقدس، ويبدو هؤلاء أمام الغرب على أنهم يطالبون بأن يحكموا دكتاتوريًا بادعاء أن أمرهم هو أمر الله وحكمهم هو حكم الله وكلمتهم هي كلمة الله، وبعض الفقهاء فسروا الشريعة بصورة محرفة ومفهوم تطبيق الشريعة عندهم يصطدم مع الفقه، وإذا كنا نرفض

(١) مصطفى حلمي. إسلام جارودي بين الحقيقة والاقتداء، الدعوة اسكندرية ١٩٩٦ ص ٤٥.

(٢) روجين جارودي، الإرهاب الغربي جـ٢، دار الشروق ـ القاهرة ٢٠٠٤، ص ٥٩ ـ ٦٥.

انحطاط ونفاق الغرب ونزعته الاستعمارية فإننا لابد أن نعترف أيضًا بأن الأيديولوجية الإسلامية تعاني من الجمود، وتفسير البعض للشريعة يتعارض مع ضرورة بناء مستقبل جديد للمسلمين، وعلى سبيل المثال فإن القرآن الكريم يذكر في ثمانية مواقف أن الله لا يميز بين الرجال والنساء، وإنما يميز بين من يفعلون الخير ومن يقترفون الشر من الرجال والنساء على حد سواء يري جارودي أن المسلمين إذا أرادوا تحقيق نهضة سياسية وروحية للعالم الإسلامي فعليهم أن يقرءوا القرآن قراءة جديدة في ضوء معطيات العلوم الحديثة والتقدم الحضاري الذي أحرزته البشرية دون رفض أو تصادم مع التجديد والتطور، وفي نفس الوقت يرى أن تحديث العالم الإسلامي يجب ألا يطرح انطلاقًا من أيديولوجية غربية.

٣ ـ العلم والحكمة:

يميز جارودي بين العلم الإسلامي والعلم الغربي، فالعلم الإسلامي له وسائله وله غاياته، والحكمة من غاياته، وهو يبدأ من محاولة فهم الإنسان احتياجاته وأهدافه، وقد نقل الغرب العلم والمنهج التجريبي عن المسلمين ولكنهم نزعوا منه الحكمة فلم ينتبهوا إلى أساس كل معرفة وهو تعليم وحدانية الله ووحدة الطبيعة، والإسلام لا يفصل بين علم الحكمة وحكمة الوحي ولذلك يدعو جارودي إلى تصحيح مناهج التعليم في العالم الإسلامي بما يوائم عقيدة الإسلام(١).

وبين أن مأساة العالم الإسلامي أن ثقافته الممثلة في الإسلام وعقيدته ونظمه تعرضت لحملة اقتلاع من الجذور من خلال الغزو الثقافي الغربي المنظم(٢).

---

(١) د. مصطفى حلمي، إسلام جارودي بين الحقيقة والافتراء، دار الدعوة اسكندرية ١٩٩٦، ص ١٩، ٣٠، ٣١ نقلاً عن جارودي، الإسلام دين المستقبل ص ٩١، ٦٩.

(٢) المرجع السابق: ١٩٩٦ ص ١٤.

٤ ـ العقيدة والسياسية :

يرى جارودي أن الإسلام ينظم العلاقة بين العقيدة والسياسة (علاقة بين بعدين للإنسان) دون أن يخلطها مع العلاقات بين الكنيسة والدولة (العلاقة بين مؤسستين) كما حدث في أوربا وبخاصة فرنسا[١].

٥ ـ السلفية :

تكلم جارودي عن التعصب السلفي معرفًا إياه بقوله : « فالتعصب السلفي يتمثل في تعريف عقيدة دينية أو سياسية أو غير ذلك في الشكل والإطار الثقافي والذاتي الذي كان لها في فترة زمنية سابقة من تاريخها، وربطها بهذه الفترة، أي هي الاعتقاد بحقيقة مطلقة ثم فرضها »[٢]، وهو في ذلك متأثر بأفكار أوجست كونت القائلة بتدرج المجتمعات من الطور الديني إلى الفكر الفلسفي ثم التفكير العلمي الوضعي. وأي رجوع إلى مرحلة سابقة يعد نكوصًا عن المرحلة المتطورة التي بلغتها البشرية. وفات جارودي أن أوجست كونت في نهاية حياته استثنى من قانونه ـ المعروف ـ الإسلام حيث يقول : « يمكن للشرق الإسلامي أن يحقق المرحلة الوضعية النهائية (العلمية) بسرعة فائقة حينما يتجه مباشرة إلى الهدف مختصراً الطريق بالقفز من الحالة الأولى (اللاهوتية) إلى الحالة الثالثة (الوضعية) مستفيداً من تجارب الآخرين مستنداً إلى مميزات ينفرد بها الإسلام لخاصية التسامح وعبقرية الإسلام أي تأكيده المكانة السامية للفكر والعقل في المبادئ الإسلامية[٣].

٦ ـ موقفه من السنة ومن الأئمة الفقهاء :

أشيع أن جارودي طعن في السنة وينال من الأئمة الفقهاء ولكنه نفى هذه الاتهامات المنسوبة إليه حيث قال لجريدة (الشعب) القاهرية : « ينتقدوني

(١) نفس المرجع ص ١٩.

(٢) روجيه جارودي، أصول الأصوليات والتعصبات السلفية، مكتبة الشروق ١٩٩٦ ص ٩.

(٣) أفكار بلا نهاية في حضارة الغرب، إعداد وتقديم سيد أبو دومة، مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٨٩، ص ٥١ ـ ٥٥، د. مصطفى حلمي : إسلام جارودي بين الحقيقة والافتراء، دار الدعوة اسكندرية ١٩٩٦.

ويوآخذوني بافتراء علي أنني أزرع الشك بحق أبي حنيفة والشافعي في حين أني أقدرهما بشكل خاص كمثال يحتذى به في جميع كتبي ومقالاتي.. يتهمونني برفض السنة، وهذه كذبة أخرى لأني ألومهم على الاستخدام السياسي للسنة».

واتضح أن الحملة ضده تتصل بالمحاكمة التي تعرض لها للمرة الثانية ضمن حملة صهيونية تتهمه بالعداء للسامية بسبب صدور كتابه (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) الذي صدر بترجمة دار الغد بالقاهرة عام ١٩٩٦ .

٧ ـ من أهم مؤلفاته التي تناول فيها الإسلام:

١ ـ حوار الحضارات

٢ ـ الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية.

٣ ـ ما يعانيه الإسلام.

٤ ـ الإسلام دين المستقبل.

٥ ـ أصول الأصوليات والتعصبات السلفية.

٥ ـ رينية جنيو (عبد الواحد يحيى)

هو عالم فيلسوف حكيم صوفي يدوي اسمه في أوربا وأمريكا ويعرفه كل الذين لهم اتصال بالدراسات الفلسفية الدينية.

نشأ رينية جينو في فرنسا من أسرة كاثوليكية ثرية محافظة، نشأ مرهف الحس، مرهف الشعور، مرهف الوجدان، متجهاً بطبيعته إلى التفكير العميق والأبحاث الدقيقة، وهاله، حينما نضج تفكيره ماعليه قومه من ضلال، فأخذ يبحث في جد عن الحقيقة.

أين الحقيقة؟ سؤال سأله لنفسه مثل كل الذين اهتدوا من المفكرين الذين أبوا أن يخضعوا للتقليد الأعمى. وبعد فترة الشك والحيرة والألم يأتي عون الله.

فبعد دراسة عميقة وجد أن النص المقدس الذي يمكن أن يعتصم به هو القرآن، حيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهو الكتاب الوحيد الذي لم ينله التحريف ولا التبديل، لأن الله تكفل بحفظه فقال: «إنا نحن نزلنا الذكر إنا له لحافظون».

فلما درس القرآن غمره الأمن النفسي في رحابه وأحس بما في الإسلام من روحانية عالية لا توجد في المسيحية ولا حتي في التصوف المسيحي المسمى بـ (المستيسزم) فأعلن إسلامه وسمى نفسه عبد الواحد يحيى.. ولما كان رينيه جيو مفكرًا من الطراز الأول حتى إن من كتب عنه من كبار الكتاب جعلوه في المكانة بجوار أفلاطون والإمام الغزالي وأمثالهما، وقال عنه (أندريه جيد) في صراحة لا لبس فيها (إن آراء رينيه جينو لا تنقض) فإن إسلامه كان ثورة كبرى هزت ضمائر الكثيرين من ذوي البصائر الطاهرة، فاقتدوا به واعتنقوا الإسلام، وكانوا جماعات مؤمنة مخلصة، تعبد الله على يقين في معاقل الكاثوليكية في الغرب.

وبمجرد إسلامه أصبح جنديًا من جنود الإسلام يدافع عنه ويدعو إليه.

فند في كتابه (رمزية الصليب) الفرية التي تقول إن الإسلام انتشر بالسيف.

كتب في مجلة (كاييه دي سود) في عددها الخاص بالإسلام والغرب دفاعًا عن الروحانية الإسلامية والتصوف الإسلامي، وانتهى إلى أن التصوف المسيحي المسمى بـ(المستيسزم) لا يمكنه أن يبلغ ما بلغ التصوف الإسلامي من سمو ومن جلال.

ولم يشد بالإسلام فحسب بل أشاد في جميع كتبه بالشرق، فبين أن الشرقيين ليسوا كما غرس الاستعمار في نفوسهم أقل إنسانية وأقل حضارة من الغربيين بل إنه منبع النور والهداية، ومشرق الوحي والإلهام.

وقد وقفت منه الكنيسة موقف العداء، فحرمت قراءة كتبه وهي لا تفعل ذلك إلا مع كبار المفكرين الذين تخشى خطرهم، بل إنها رأت فيه خطرًا يكبر كل خطر سابق فحرمت حتى الحديث عنه.

ورغم تحريم الكنيسة لقراءة كتبه فقد انتشرت في جميع أرجاء العالم، وطبعت المرة بعد الأخرى، وترجم الكثير منها إلى جميع اللغات الحية الناهضة.

قد اقتدى به الكثيرون من ذوي البصائر وأسلموا وألفوا جمعيات في جميع العواصم الكبرى في العالم وعلى الخصوص في سويسرا وفي فرنسا ليكونوا وسط المادية السابغة والشهوات المتغلبة واحات جميلة يلجأ إليها كل من أراد الطهر والطمأنينة.

قد ألف عبد الواحد يحيى العديد من الكتب التي تدافع عن الإسلام والشرق منها كتاب (رمزية الصليب) الذي بين فيه أن الإسلام انتشر بالحكمة والموعظة الحسنة والقدوة الطيبة.

ومنها كتاب (أزمة العالم الحديث) الذي بين فيه الانحراف الذي تسير فيه أوربا.

ومنها كتاب (الشرق والغرب) وهو من الكتب التي رد فيها إلى الشرق اعتباره مبيناً أصالته في الحضارة وسموه في التفكير، وإنسانيته التي تقاس بها مادية الغرب وفساده وامتصاصه للدماء وعدوانه الذي لا يقف عند حد، وظلمه المؤسس على المادية والاستغلال، ومظهراً في كل صفحاته من صفحته نبل الشرقيين وعلمهم، وفهمهم للأمور فهماً يتفق مع الفضيلة ومع أسمي المبادئ الإنسانية.

وقد ترجمت بعض كتبه إلى لغة الهند الصينية، ووضعت كشرح للوصية الأخيرة من وصايا (الدالاي لاما) ولم يكن في الغرب شخص متخصص في تاريخ الأديان إلا هو على علم بكتابات (رينيه جينو) وإذا كان (رينيه جينو) قد لقي تقديراً كبيراً في حياته متمثلاً في معاداة الكنيسة له وتحريمها كتبه، والحديث عنه، مما أدى إلى إعادة طبع كتبه عدة مرات وترجمتها إلى كثير من اللغات. فإن هذا التقدير قد زاد بعد وفاته فكتبت عنه جميع صحف العالم، وفيها بعض الصحف

المصرية والعربية وقد خصصت له مجلة «فرنسا ـ آسيا» وهي مجلة محترمة عدداً ضخماً كتب فيه كبار الكتاب الشرقيين والغربيين وافتتحته بمقالة لكاتب فرنسا الأكبر «اندريه جيد» الذي أشاد فيه أيما إشادة بـ «رينيه جينو». وخصصت مجلة أبتوديتزا «وهي المجلة التي تعتبر في الغرب كله لسان التصوف الصحيح، عدداً ضخماً من أعدادها، كتب فيه كبار الكتاب الغربيين والشرقيين وخصص له الكاتب الصحفي الشهير «بول سيرات» كتاباً ضخماً تحدث فيه عن حياته وعن آرائه وجعله في منزلة الغز الي وأفلاطون، وكتب عنه الدكتور عبد الحليم محمود تقريراً لإحدى الجامعات المصرية بين فيه مكانته العلمية(١).

ويمكن إيجاز أهم الأسباب التي دفعت بالمفكر «رينيه جيو» إلى الإسلام في الآتي:

١ ـ ما اكتشفه من فساد العقائد المسيحية في التثليث وتجسد الإله، والصلب.

٢ ـ التأثر بالروحانية الموجودة في الإسلام من خلال قراءته لابن رشد وجلال الدين الرومي وابن العطارُ صدر الدين الشيرازي وغيرهم لذلك كان يشيد بالتصوف الإسلامي.

٣ ـ تأثره بالقرآن الكريم وما فيه من روحانيات وأحكام من ناحية وعدم استطاعة أي يد أن تمتد إليه بالتحريف على مدى القرون من ناحية أخرى.

٤ ـ تأثر بأسلوب الإقناع في الدعوة الإسلامية، وما حمله الفاتحون معهم من أخلاق عالية وتصرفات نبيلة.

٥ ـ تأثره بحضارة الشرق وما تحمله من أصالة وإنسانية.

٦ ـ نفوره من المادية السابغة والشهوات المتغلبة التي تسود الحياة في أوربا.

---

(١) تبين دينية: محمد رسول الله: ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود، دار المعارف، ١٩٧٩، ص ٢٧ ـ ٣٠.

٦ ـ محمد أسد

كان اسمه ليوبولد فايس. ولد في ليفو بالنمسا (تتبع الآن بولندا) سنة ١٩٠٠م، ولما بلغ عمره اثنين وعشرين عاماً زار الشرق الأوسط، ثم أصبح بعد ذلك مراسلاً أجنبيًا مرموقًا لجريدة «فرانكفور رزنتج» وبعد إسلامه تنقل في العالم الإسلامي عمل فيه من شمال أفريقيا إلى أفغانستان شرقًا وبعد سنوات من الانقضاء لدراسة الإسلام صار علمًا من أعلام الإسلام في العصر الحديث. وبعد قيام باكستان اشتغل مديراً لدائرة تجديد الإسلام في البنجاب الغربية ثم صار فيما بعد مندوبًا مناوبًا للباكستان في الأمم المتحدة، وله كتابان هامان هما «الإسلام على مفترق الطرق» و«الطريق إلى مكة» وأصدر جريدة شهرية اسمها: «عرفات» وقام بترجمة معاني القرآن باللغة الإنجليزية، فهو كاتب صحفي ومؤلف سياسي ولأنه كان يعمل مراسلاً لبعض أمهات الصحف الأوربية وتجول في بلاد آسيا وأفريقيا احتك بنظم اجتماعية ونظرة إلى الحياة تختلف اختلافًا أساسيًّا مما هي الحال في أورربا الأمر الذي جعله يفكر في الإسلام، كيف اعتنق الإسلام ولماذا اعتنقه؟ لنستمع إليه وهو يحكي لنا تجربته في ذلك يقول[١]:

«في عام ١٩٢٢ تركت النمسا بلادي لأتجول في أفريقيا وآسيا بصفتي مراسلاً لبعض أمهات الصحف الأوربية، ومنذ ذلك الحين قضيت كل أوقاتي تقريبًا في الشرق الإسلامي، كان اهتمامي بالشعوب التي احتككت بها في أول الأمر اهتمام رجل غريب، لقد رأيت نظامًا اجتماعيًّا ونظرة للحياة أكثر هدوءاً، أو إذا شئت أكثر إنسانية إذا قيست تلك الحياة بطريقة الحياة الآلية العملية في أوربا، ثم قادني هذا الميل إلى أن أنظر في أسباب هذا الاختلاف وهكذا أصبحت شديد الاهتمام

(١) ... مجموعة مقالات النخبة من رجال الفكر عن سبب إسلامهم مكتبة الحرمين للعلوم، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ دار الاعتصام ص ١٢ ـ ١٦.

بتعاليم الإسلام الدينية إلا أن هذا الميل لم يكن في الزمن الذي نتكلم عنه كافيًا لجذبي إلى حظيرة الإسلام، ولكنه كان كافيًا لأن يعرض أمامي رأيًا جديدًا في إمكان تنظيم الحياة الإنسانية بأقل قدر ممكن من النزاع الداخلي وأكبر قدر من الشعور الأخوي الحقيقي أن الحياة الإسلامية في الواقع تظهر على كل حال في أيامنا الحاضرة بعيدًا جدًا عن الإمكانيات المثلى التي تقدمها التعاليم الدينية في الإسلام، من ذلك مثلاً أن كل ما كان في الإسلام تقدمًا وحيوية أصبح بين المسلمين اليوم تراخيًا وركودًا وكل ما كان في الإسلام من قبل كرمًا وإيثارًا أصبح اليوم بين المسلمين ضيقًا في النظر وأنانية وحبًا للحياة المهنية.

لقد شجعني هذا الاكتشاف، ولكن الذي حيرني كان ذلك التباعد البين بين الماضي والحاضر من أجل ذلك حاولت الاقتراب من هذه المشكلة البادية أمامي من ناحية أشد صلة، لقد تخيلت نفسي واحدًا من الذين يهمهم الإسلام، على أن ذلك كان تجربة عقلية بحتة لكنه كشف لي في وقت قصير عن الحل الصحيح، ولقد تحققت أن ثمة سببًا واحدًا فقط للانحلال الاجتماعي والثقافي بين المسلمين، ذلك السبب يرجع إلى الحقيقة الدالة على أن المسلمين أخذوا شيئًا فشيئًا يتركون اتباع روح التعاليم الإسلامية.

نتج عن ذلك أن الإسلام ظل بعد ذلك موجودًا ولكنه كان جسدًا بلا روح ثم إن العنصر الذي خلق قوة الكيان الإسلامي من قبل هو المسئول الآن عن ضعف المسلمين. فإن المجتمع الإسلامي بني منذ أوله على أسس دينية. وضعف هذا الأساس قاد بالضرورة إلى إضعاف البناء الثقافي فيه، وربما كان سببًا لاضمحلاله بالكلية وكنت كلما زدت فهمًا لتعاليم إسلامية من ناحيتها الذاتية، وعظم ناحيتها العملية ازددت رغبة في التساؤل عما دفع المسلمين إلى هجر تطبيقها تطبيقًا تامًا على الحياة الحقيقية، لقد ناقشت هذه المشكلة مع كبير من المفكرين المسلمين في جميع البلاد ما بين طرابلس الغرب إلى هضبة البامير (في الهند) ومن

البسفور إلى بحر العرب، فاصبح ذلك تقريبًا شذى في نفسي طفل في النهاية على سائر أوجه اهتمامي بالعالم الإسلامي من الناحية الثقافية.. ثم زادت رغبتي في ذلك شدة حتى إني وأنا غير مسلم أصبحت أتكلم إلى المسلمين أنفسهم مشفقًا على الإسلام من إهمال المسلمين وتراخيهم.

لم يكن هذا التطور بينا في نفسي، إلى أن كان يوم، وذلك في خريف عام ١٩٢٥ - وأنا حينئذ في جبال الأفغان. فقد تلقاني حاكم إداري شاب بقوله «ولكنك مسلم» غير أنك لا تعرف ذلك من نفسك لقد أثرت في هذه الكلمات، غير أني بقيت صامتًا ولكن لما عدت إلى أوربا مرة ثانية في عام ١٩٢٦ وجدت أن النتيجة المنطقية الوحيدة لميلي هذا أن أعتنق الإسلام.

هذا القدر من الأحوال التي لابست اعتناقي الإسلام يكفي في هذا المقام: ومنذ ذلك الحين وهذا السؤال يلقى علي مرة بعد مرة؛ لماذا اعتنقت الإسلام، وما الذي جذبك منه خاصة؟ وهنا يجب أن أعترف بأنني لا أعرف جوابًا شافيًا لم يكن الذي جذبني تعليمًا خاصًا من التعاليم، بل ذلك البناء المجموع العجيب، المتراص مما لا تستطيع له تفسيراً. من تلك التعاليم الأخلاقية بالإضافة إلى منهاج الحياة، ولا أستطيع اليوم أن أقول: إن ناحية من النواحي استهوتني أكثر من غيرها، فإن الإسلام على ما يبدو لي بناء تام الصنعة، كل أجزائه قد صيغت ليتمم بعضها بعضًا ويشد بعضها بعضا، فليس هناك شيء لا حاجة إليه، وليس هناك نقص في شيء فنتج عن ذلك كله ائتلاف متزن مرصوص، ولعل هذا الشعور من أن جميع ما في الإسلام من تعاليم وفرائض قد وضعت مواضعها هو الذي كان له أقوى الأثر في نفسي، وربما كانت مع هذا كله أيضًا مؤثرات أخرى يصعب عليّ الآن أن أحللها، وبالإيجاز لقد كان ذلك قضية من قضايا الحب، والحب يتألف من أشياء كثيرة: من رغباتنا وتوحدنا، ومن أهدافنا السامية وعثراتنا، ومن قوتنا وضعفنا

وبين ذلك في قوله[١]: . . . «فرق آخر بين الإسلام وبين سائر النظم الدينية المعروفة، ذلك أن الإسلام على أنه تعاليم - لا يكتفي بأن يأخذ على عاتقه تحديد الصلات المتعلقة بموارد الطبيعة فيما بين الإنسان وخالقه فقط، ولكنه يعرض أيضًا بمثل هذا التأكيد على الأقل.. للصلات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية، وترتيبًا على ماسبق قرر محمد أسد أن الإنسان يمكن أن يبلغ الكمال في إطار حياته الدنيوية أي وهو يمارس حياته ولا ينعزل عنها ولايشترط لبلوغ الكمال أن يميت المرء شهواته الجسدية، والإسلام بذلك يختلف عن سائر النظم الدينية يقول في ذلك:

«نرى الإسلام وحده يعلن أن الكمال الفردي ممكن في الحياة الدنيا أن الإسلام لا يؤجل هذا الكمال إلى ما بعد إماتة الشهوات الجسدية ولا هو يبعدنا بسلسلة متلاحقة من تناسخ الأرواح على مراتب متدرجة كما هو الحال في الهندوكية، ولا هو يوافق البوذية التي تقول بأن الكمال والنجاة لايتمان إلا بعد انعدام النفس الجزئية وانفصام علاقاتها الشعورية من العالم، كلا إن الإسلام يؤكد في إعلانه أن الإنسان يستطيع بلوغ الكمال في حياته الدنيا الفردية، وذلك بأن يستفيد استفادة تامة من وجوه الإمكان الدنيوى في حياته هو[٢] ويضيف إلى ذلك قوله: «ومن بين سائر الأديان نجد الإسلام وحده يتيح للإنسان أن يتمتع بحياته الدنيا إلى أقصى حد من غير أن يضيع اتجاهه الروحي دقيقة واحدة»[٣].

ويبين أن هذه الميزة كانت سببًا في الإقبال على الإسلام وقبوله أينما حل وسببًا في ظهور الإسلام أبان قوته فيقول في ذلك: «لقد أتى الإسلام بالرسالة الجديدة التي لا تجعل احتقار الدنيا شرطًا للنجاة في الآخرة تلك الخاصية الظاهرة في الإسلام

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٤ - ٢٥.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٤ - ٢٥.

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٨.

تجلو الحقيقة الدالة على أن نبينا، الذي كان في رسالته الدليل الهادي للإنسانية، كان شديد الاهتمام بالحياة الإنسانية في كلا اتجاهيها: في المظهر الروحي والمظهر المادي، وإنه لمن الجهل بالإسلام أن يحاول أحدنا أن يفرق بين أوامر للرسول تتعلق بأمور تعبدية وروحية خالصة وبين غيرها التي تتصل بقضايا المجتمع وقضايا حياتنا اليومية وقضايانا وإن القول بأنا مجبرون على اتباع الأوامر المتعلقة بالنوع الأول، ولكننا لسنا مجبرين على أن نتبع الأوامر المتعلقة بالنوع الثاني إنما هو سطحي، وهو فوق ذلك مناهض لروح الإسلام»(١).

يتحدث محمد أسد بإعجاب عن نظرة الإسلام إلى الإنسان حيث يقرر الإسلام أن الإنسان خلق في أحسن تقويم وأن الأصل في طبيعته الخير على خلاف الهندوكية التي تؤكد أن الإنسان خلق دنسًا أو على خلاف النصرانية التي تقول إن الإنسان خلق خاطئا فالإنسان حسب العقيدة الإسلامية - في الأصل خير طاهر ولكن الجحود وترك الأعمال الصالحات يهدمان هذا الكمال الأصلي؟ قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا﴾ [التين: ٤، ٥]. ومن مزايا الإسلام التي يراها محمد أسد أن الإسلام ليس فيه خطيئة أصلية موروثه، فبنوا آدم لا يتحملون وزر خطيئة أبيهم آدم حينما عصى وأكل من الشجرة بعد أن سمع نصيحة الأمير الجهنمي للظلمة والمادة (يعني إبليس) لا حاجة إذا لأن يضحي المسيح بنفسه ليفدي البشرية ويخلصها من الخطيئة الموروثة لأنه ليست هناك خطيئة موروثة وفي الإسلام كل مسلم رهين بما كسب(٢) قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩].

(١) نفس المرجع السابق ص ٨٨.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٩.

وكذلك كان شأني، لقد هبط عليّ الإسلام كاللص الذي يهبط المنزل في جوف الليل، ولكنه لا يشبه اللص؛ لأنه هبط علي ليبقى إلى الإبد .

ومنذ ذلك الحين سعيت لأتعلم من الإسلام كل ما أقدر عليه: لقد درست القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ لقد درست لغة الإسلام وتاريخ الإسلام، وكثيراً مما كتب عنه، أو كتب في الرد عليه، وقد قضيت أكثر من خمس سنوات في الحجاز ونجد وأكثر من ذلك في المدينة ليطمئن قلبي بشيء من البيئة الأصلية للدين الذي قام النبي العربي بالدعوة إليه فيها، وبما إن الحجاز ملتقى المسلمين من جميع الأقطار فقد تمكنت من المقارنة بين أكثر وجهات النظر الدينية والاجتماعية التي تسود العالم الإسلامي في أيامنا هذه والدراسات والمقارنات خلقت فيّ العقيدة الراسخة بأن الإسلام من جهتيه الروحية والاجتماعية لا يزال ـ بالرغم من جميع العقبات التي خلفها تأخير المسلمين ـ أعظم قوة ناهضة بالهمم عرفها البشر، هكذا تجمعت رغباتي كلها منذ ذلك الحين حول مسألة بعثه من جديد ومن الأمور التي تجعل للإسلام ميزة على غيره من الأديان والتي جذبت محمد أسد إلى الإيمان به أن الإسلام يجمع بين الروح والمادة، وبين الدنيا والآخرة، وبين العبادة والعمل، وهو منهج للحياة لنستمع إليه يقول: «الإنسان في الإسلام غير مجبر على أن يرفض الدنيا، وليس ثمة حاجة إلى تقشف يفتح به الإنسان باباً سرياً إلى التطهير الروحي، ذلك أمر غريب كل الغرابة عن الإسلام فالإسلام ليس عقيدة صوفية ولاهو فلسفة، ولكنه نهج من الحياة حسب قوانين الطبيعة التي سنها الله لخلقه، وما عمله الأسمى سوى التوفيق التام بين الواجهتين الروحية والمادية في الحياة الإنسانية، وإنك لترى هاتين الجهتين في تعاليم الإسلام تتفقان في أنهما لا تدعان تناقضاً أساسيا بين حياة الإنسان الجسدية وحياته الأدبية فحسب، ولكن تلازمهما هذا وعدم افتراقهما فعلاً أمر يؤكده الإسلام، إذ يراه الأساس الطبيعي للحياة[1] .

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١١ .

هو السبب على ما أظن لهذا الشكل في الصلاة الإسلامية حيث يمتزج الخشوع ببعض الحركات الجسمانية، ويؤكد هذا المعنى قائلاً: إن الكعبة التي يولي كل مسلم وجهه شطرها في صلاته ترمز إلى وحدانية الله وأن الطواف حولها يرمز إلى جهود الحياة الإنسانية ويبين أن العبادة في الإسلام ليست حضوره في طقوس ومراسم معينة ولكن كل الأعمال التي يقوم بها المسلم امتثالاً لأمر الله في إطار الشرع حتى ولو ظهرت على أنها أعمال تافهة تدخل في مسمى العبادة حتى إن أعمال الإنسان كلها تسمى عبادة لله مطبقًا بذلك قول الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾. ولنستمع إليه وهو يؤكد هذه الحقيقة معجبًا بها قائلاً: «يختلف إدراك العبادة في الإسلام عما هو في كل دين آخر» إن العبادة في الإسلام ليست محصورة في أعمال من الخضوع الخالص كالصلوات والصيام مثلاً، ولكنها تتناول كل حياة الإنسان العملية أيضًا[(١)].

ويضيف أن تطبيق الأوامر الشرعية في الحياة العملية مقصد من مقاصد الدين وبه تتحق المثل العليا في الوجود والواقع ويؤكد ذلك قائلاً: «إن موقف الإسلام في هذا الصدد لا يحتمل التأويل.. إنه يعلمنا أولاً أن عبادة الله الدائمة المتمثلة في أعمال الحياة الإنسانية المتعددة جميعها، هي معنى هذه الحياة نفسها، ويعلمنا ثانيًا أن بلوغ هاتان الحياتان في وعينا وفي أعمالنا ليكون لحياتنا المادية وحياتنا الروحية. يجب أن تقترن هاتين الحياتين في وعينا وفي أعمالنا، لتكون كلا واحداً متسقا، إن فكرتنا عن وحدانية الله يجب أن تتجلى في طيها للتوفيق والتوحيد بين المظاهر المختلفة لحياتنا»[(٢)].

قد جذب محمد أسد أيضًا إلى الإسلام كونه لايهتم فقط بالعلاقة بين الإنسان وخالقه وإنما يهتم أيضًا بالعلاقات الاجتماعية فينظم علاقة الأفراد بعضهم ببعض

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٣.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٣ - ٢٤.

١٩٢١م أقمت في القاهرة شهراً زرت أثناءه الأزهر. وإلى جانب اللغة العربية تعلمت اللغة السنسكريتية ولغتي الملاي وجاوه، وفي سنة ١٩٢٧م سافرت إلى جزر الهند الهولندية (وهكذا كان اسمها في ذلك الوقت) لتدريس اللغة الجاوية وتاريخ الثقافة الهندية في إحدى المدارس الثانوية الخاصة بالدراسات العليا في جاكارتا.

تخصصت مدة خمسة عشر عامًا في دراسة اللغة والثقافة الجاوية قديمًا وحديثًا، وفي هذه الفترة كان اتصالي بالإسلام قليلاً، وكنت منقطعًا تمامًا عن اللغة العربية.

قضيت بعد ذلك فترة عصيبة كنت فيها أسير حرب عند اليابنيين وعدت بعدها إلى هولندا ١٩٤٦م حيث التحقت بعمل جديد في المعهد الاستوائي الملكي في أمستردام هنا أتيحت لي الفرصة لمعاودة دراسة الإسلام، بمناسبة تكليفي بكتابة دليل موجز عن الإسلام في جاوه.

شرعت في دراسة عن دولة باكستان الإسلامية الجديدة واختتمت دراستي برحلة إلى باكستان في شتاء سنة ١٩٥٤م - ١٩٥٥م، ولما كانت دراساتي السابقة عن الإسلام محصورة فيما كتبه الأوربيون وحدهم، فإنني عندما وصلت إلى لاهور، وجدتني فجأة أمام واجهة أخرى جديدة عن الإسلام فطلبت من أصدقائي المسلمين أن أصحبهم إلى صلاة الجمعة في المساجد، من تلك اللحظة بدأت أكتشف القيم الكبرى في دين الإسلام وبدأت أشعر في قرارة نفسي أنني مسلم منذ طلب إلي أن أخطب الناس في أحد المساجد بلاهور وصاحبت بعدها من الإخوة والأصدقاء الجدد من لا أحصيهم عدداً، وكتبت في تلك المناسبة مقالاً نشرته في مجلة (باكستان كوارترك) في المجلد الخامس رقم سنة ١٩٥٥م، وضمنته السطور التالية:

«ثم زرنا بعد ذلك مسجدا أصغر كثيراً: وخطب الجمعة عالم يتكلم الإنجليزية بانطلاق له مركز مرموق في جامعة البنجاب، قال لجموع المصلين إنه تعمد تطعيم خطبته باللغة الأردية بكلمات إنجليزية أكثر من المعتاد، حتى ييسر بذلك فهمها على أخيهم الذي جاء من بلاده البعيدة في هولندا، وبعد الخطبة صلى الحاضرون ركعتين خلف الإمام، وبعدها صلى من شاء ركعات أخرى.

كنت على وشك الانصراف حين التفت إلي «علامة صاحب» الإمام وإشار إلي أن الجموع تنتظر مني أن ألقي فيهم كلمة، وكان عليه هو أن يترجمها إلى الأردية فاتجهت إلى مكان الميكروفون وبدأت الحديث في هدوء ذكرت أنني أتيت من بلاد بعيدة ليس فيها من المسلمين إلا القليل، وإنني أحمل تحياتهم إلى إخوانهم الحاضرين في المسجد الذين كان من حسن طالعهم أن أقاموا دولتهم الإسلامية منذ سبع سنوات تمكنت فيها من قصر المدة من تدعيم مكانتها، وأنها رغم المشاكل والعقبات التي صادفت نشأتها لتنظر في اطمئنان إلى مستقبل مزدهر.

ووعدت المستمعين أن أكون لسان صدق عند عودتي إلى بلادى لما لاقيته من عطف وكرم من جميع قطاعات شعب باكستان المسلم.

ماكاد الجمع يستمع إلى الترجمة الأردية لهذه الكلمات، حتى سرت أثارها فيهم بقوة أذهلتني، وقبل أن أعرف ماذا جرى بينهم رأيت مئات المصلين مسارعين إلي شباباً وشيوخاً يشدون على يدي مهنئين وعلى وجوههم مشاعر المحبة العميقة، غير أن أشد ما أسر قلبي وسلب لبي، كان البريق الهادئ العميق الذي كان يشع من عيون الحاضرين، وفي هذه اللحظة شعرت أنني أصبحت أحد أفراد الأسرة الإسلامية العظيمة، التي تمتد في أرجاء الدنيا، وعندئذ أحسست بسعادة ليس في مقدوري وصفها.

ويرى محمد أسد الإسلام لا يهمل الدنيا وفي ذات الوقت يعلمنا ألا نعلق على الحياة أهمية مغالي فيها والتي تقول بها المدينة الغربية الحاضرة، فالمسلم لايعبد الحياة، ولكنه ينظر إليها على أنها دار ممر ضرورية ولها قيمة عظمى، ولكن يجب ألا ننسى أنها قيمة الواسطة إلى غاية فقط إن الإسلام يتخير الطريق الوسط بين آلية الحياة في الغرب الحديث الذي يقول «مملكتي في هذا العالم وحده» وبين احتقار الحياة الذي يجرى على لسان النصرانية: إن مملكتي ليست من هذا العالم»(١) ومن ثم يعلمنا القران الكريم أن ندعوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، فالإنسان في الإسلام مسئول عن كل أعماله جليلة أو ضئيلة سواء كانت هذه الأعمال متصلة بالمطالب الروحية أم المطالب المادية، فيجب مراعاة الحق في كل أعمالنا. ومن محاسن الإسلام التي يراها محمد أسد أنه يجعل كل مسلم مسئولاً عن نشر السعادة فيمن حوله و مسئولاً عن إقرار الحق وإزهاق الباطل في كل زمان وفي كل ناحية(٢)، ويؤيد ذلك بقوله تعالي: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولذلك فهو ينظر إلى الفتوحات الإسلامية بهذا المنظار ويفرق بينها وبين المطامع الاستعمارية في نهب ثروات الشعوب يبين أن جهداً من هذا النوع لم يحث عليه حب السيطرة ليس فيه شيء من الأنانية الاقتصادية أو القومية، ولاشيء من الطمع في أن تزيد أسباب رفاهيتنا الخاصة على حساب شعب آخر. ولم يقصد منه في يوم من الأيام إكراه غير المؤمنين على الدخول في الإسلام، لقد قصد به دائماً ما يقصد به اليوم من بناء أطار عالمي لأحسن ما يمكن من التطور الروحي للإنسان، إن الأخلاق في الإسلام تحيا مع المسعاة الإنسانية للعمل على نصرتها في الأرض»(٣).

(١) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق ص ٣٠.

(٢) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق ص ٣١.

(٣) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق ص ٣١.

نخلص مما سبق إلى أن العوامل التي دفعت محمد أسد إلى أن يعتنق الإسلام تتلخص في شيوع النمط الإنساني في الحياة في البلاد الإسلامية الذي يختلف عن النمط الآلي للحياة في الغرب ثم ذلك البناء المتكامل للإسلام الذي يهتم بالروح لا يهمل المادة ويدعو للاستعداد للآخرة ولا يهمل الدنيا ـ يهتم بالمجتمع ولا يهمل الفرد ـ يهتم بالعلاقة مع الخالق كما يهتم بالعلاقة مع المخلوق، وهو دين يراعي الطبيعة البشرية فلايميت ما جبل عليه الإنسان من الشهوات لكن يهذبها وينظم طريقة إشباعها وهو دين لا يحتقر الأصول التي بنى عليها الإنسان وفطر، فيجعل الأصل في الإنسان حب الخير، وأصل الخلقة حسن التقويم.. وأنه دين لايعترف بالخطيئة الموروثة وأن كل فرد يتحمل مسئولية ماجنته يداه لما جناه غيره، وإنه دين يحث كل فرد على أن يعمل من أجل نشر السعادة وإحقاق الحق وإبطال الباطل في كل زمان ومكان وإن مقصد الجهاد في الإسلام ليس نهب الثروات واستذلال الشعوب وإنما نشر الفضائل والأخذ بيد البشرية إلى السمو الخلقي والروحي.

٧ ـ مستر لال ملما (هولندا)

Mr . R . L . Mellema

عالم في تاريخ الأجناس البشرية كاتب وأديب هولندي عمل رئيساً للقسم الإسلامي في المتحف الاستواني بأمستردام وله عدة مؤلفات يحكي حكايته مع الإسلام ليبين أجمل ماراقه في الإسلام وما الذي اجتذبه للإيمان به فيقول: «بدأت بدراسة اللغات الشرقية في جامعة ليدن عام ١٩١٩م وحضرت محاضرات البروفسور (س. سنوك هيرجرونج C.Snouck Huyrgronje عالم اللغة العربية المعروف. فتعلمت العربية، وقرأت وترجمت تفسير البيضاوي للقرآن وخواطر الغزالي عن الشريعة، ثم قرأت عن تاريخ الإسلام ومذاهبه في الكتب الصغيرة المتداولة في أوربا وكان ذلك هو الشيء الممكن العادي في ذلك الوقت. وفي سنة

وهكذا علمني شعب باكستان أن الإسلام ليس مجرد علم بتفاصيل الشريعة، وأن الإيمان بالقيم الروحية الإسلامية يأتي في المقدمة وأن العلم واجب للوصول إلى ذلك الإيمان.

والآن نأتي إلى السؤال: «ما هو أجمل ما راقني في الإسلام، وما هو على التحديد ذلك الشيء الذي اجتذبني إلى الإيمان به»؟

سأحاول الإجابة في ايجاز على هذين السؤالين في ست نقاط:

١ ـ الإيمان بالله وحده له السلطان المطلق فكرة تقتنع بها كل العقول المفكرة، وأنه الله الذي يحتاج إليه الخلق جميعًا، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأنه متصف بأكمل الكمال في الحكمة والقوة والجمال، ليس لبره ورحمته حدود.

٢ ـ الصلة بين خالق الكون ومخلوقاته، التي ميز الله الإنسان عليها، صلة مباشرة، فلا يحتاج المؤمن أى وساطة، كما لا يحتاج الإسلام إلى كهنوت. ومن تعاليم الإسلام أن الصلة بالله ترجع إلى الإنسان نفسه، وإن على الإنسان أن يعمل في حياته الدنيا للحياة الأخرى، وأنه مسئول عن عمله ولن تكفر ذنوبه تضحية نفس أخرى بريئة، وأنه لايكلف الله نفسًا إلا وسعها.

٣ ـ مبدأ التسامح في الإسلام، كما يبدو في هذه الكلمات الخالدة ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ وإن المسلم مطالب بالبحث عن الحق حيثما وجده ومطالب كذلك باحترام مافي الأديان الأخرى من خير.

٤ ـ مبدأ الأخوة في الإسلام الذي يمتد ليشمل البشرية عامة، بغير اعتبار للون أو جنس أو عقيدة وينفرد الإسلام بين كل الأديان في أنه الوحيد الذي طبق هذا المبدأ عمليًا، والمسلمون أينما كانوا على سطح هذه المعمورة، ينظر الواحد منهم إلى الآخر نظرة الأخ لأخيه.

والمساواة بين الناس جميعًا أمام الله تتمثل واضحة في لباس الإحرام في الحج.

٥ ـ تقدير الإسلام للعقل والمادة ولقيمة كل منهما، باعتبارهما حقائق قائمة، وأن العقل في الإنسان يسير جنبًا إلى جنب مع احتياجاته الجسدية، وأن على الإنسان أن يسلك في الحياة سبيلاً يهيمن فيه بالعقل على المادة، ويخضع فيه المادة لحكم العقل.

٦ ـ تحريم الخمور والمواد المخدرة، وهذا بالأخص أمر يمكن أن يقال فيه إن الإسلام سبق به زمانه.

المبحث الرابع

الإسلام دين المستقبل

لقد أسفر التقدم المادي فيما أسفر عنه عن الخراب والدمار في كثير من أنحاء العالم وازداد الفقراء فقراً والأغنياء غنى، بسبب ضعف القيم الروحية في المجتمعات الغربية مما أدى إلى عدم العدالة في توزيع الثروة في العالم ودفع الدول الغنية لاستغلال الدول الفقيرة فلم يستفد الفقير من غنى الغنى بل أضره ذلك.

وهذه الأزمة ناتجة عن عدم ارتقاء القيم الروحية في عالم الغرب إلى ما ارتقت إليه القيم المادية، وأصبح يعيش في خواء روحي، وما قيم الحرية والإخاء والمساواة وحقوق الإنسان التي يتشدق بها الغرب إلا ألفاظًا تتخذها بعض الدول ستاراً وراء سعيهم للسيطرة على مقدرات الدول المتخلفة.

والبشرية في حاجة إلى دين يسد حاجتها الروحية، ويعالج ما تعانيه من خواء روحي ويراعي في نفس الوقت الاحتياجات المادية للبشرية.

والإسلام هو الدين المرشح لهذه المهمة لما يتسم به من العظمة وما يشمله من المحاسن التي تغري غير المسلمين بالدخول فيه وتؤهله لكي يكون دين المستقبل في هذا العالم.

ونحن في هذا الفصل نذكر نماذج من هذه المحاسن التي تفوق الحصر.

وقبل أن نبدأ في ذلك يحسن بنا أن نشير إلى الدور البارز الذي يبذله الأزهر الشريف لتوضيح هذه المزايا والمحاسن، وتوضيح حقيقة الإسلام وما يتسم به من البساطة والوضوح والشمول، وذلك من خلال العديد من الكتب الصادرة باللغات الأجنبية ويأتي في مقدمتها كتاب الدكتور عبد الودود شلبي باللغة الإنجليزية بعنوان «الإسلام دين الحياة» "Islam : Religion of life" ذلكم الكتاب الذي

حاول فيه مؤلفه الحديث عن مزايا الإسلام وأصوله ومناهجه، وأثره في الحياة المعاصرة، وصلاحيته للتطبيق في كل زمان ومكان، وقارن فيه بين سماحة الإسلام مع مخالفيه على مر العصور بين التعصب والاضطهاد الذي مارسه الغرب على المسلمين في الأندلس وأثناء الحروب الصلبية(١).

من الجهود المبذولة أيضًا في هذا الإطار ما كتبه الدكتور عبد الشافي عبد اللطيف في كتابه القيم الذي ألفه باللغة الإنجليزية تحت عنوان «ظهور الإسلام» The rise of Islam حيث يوضح فيه أن خمس سكان العالم من المسلمين وهم يعتبرون في المرتبة الثانية من حيث العدد في كثير من بلاد العالم وينشرون مبادئ الإسلام السمحة في كل البقاع ويحظون باحترام وتقدير من يتعاملون معهم رغم ما يثار ضدهم من زوابع وأعاصير(٢).

يؤكد المؤلف على قدرة الإسلام على البقاء وعلى الذيوع والانتشار رغم ما يحاك ضده من مؤامرات صليبية وصهيونية لوأده والقضاء عليه.

ويضرب المثل لحيوية الإسلام وقدرته على الانتشار بما حدث من فتوحات وانتشار للثقافة الإسلامية في زمن الأمويين والعباسيين الذين حرصوا على ترجمة الثقافة العالمية إلى لغة الإسلام، اللغة العربية ثم هضموها ونقحوها وأضافوا إليها ووضعوا عليها بصمتهم ونقلوها إلى أوربا حيث بها تأثر الغرب حتى عصر النهضة الأوربية(٣).

تلك الحيوية والقدرة على الانتشار السريع وراءها ما يتسم به الإسلام من سمات، وما يبرز فيه من محاسن تؤهله للتأثير في القلوب وغزوها وما سنذكره من محاسن ومزايا هو قطرة من بحر وجزء من كل.

---

(١) عبد الودود شلبي: الإسلام دين الحياة Islam: Religion of life، الأزهر الشريف ١٩٩٢.

(٢) د. عبد الشافي عبد اللطيف: ظهور الإسلام the reise of Islam، سفير، القاهرة ص ٧.

(٣) المرجع السابق ص ١٤٨ ـ ١٥٠.

١ ـ وسطية الإسلام:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

الوسطية تعني المثالية والعدالة والأفضلية وهو المعنى الوارد في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ﴾ «أي أنفعهم وأعدلهم وأصدقهم».

والوسطية تعني أيضًا التوسط بين المادية والروحانية أي أن شريعتها تهتم بالروح وفي نفس الوقت تعطي الجسم حقه وحظه ولا تميت الغرائز بل تهذبها وإذا كانت العبادة في الإسلام مقصدها تطهير الروح فإنها تهدف أيضًا من خلال تطهير الروح إلى إصلاح الجماعة الإنسانية وتطهيرها من أرجاس الأهواء والشهوات والشرور، وتهتم الشريعة الإسلامية بأمري الدنيا والآخرة معًا.

فالوسطية إذن تعني الاهتمام بالروح والجسد، الاهتمام بالفرد والمجتمع، الاهتمام بالدنيا والآخرة، الاهتمام بالعبادة والعمل وتعني أيضًا رفض الغلو في العبادة ورفض الغلو في العقيدة ورفض الغلو في التمتع بالدنيا ومن ثم فإنه لا رهبانية في الإسلام كما قال ﷺ فلو اعتكف كل الناس في الصوامع لتعطلت الحياة.

ولما كان الإسلام حريصًا على تهذيب النفس من غير إهمال الجسم كانت العبادة فيه ليس فيها تعذيب للجسم لتقوية الروح أو تهذيب النفس، إنما الذي اشتمل عليه هو تقوية الإرادة الإنسانية والتحكم في الشهوات، فيقوى الجسم والروح معًا ولتحقق السعادة الحقيقية في هذه الأرض(١).

ولذا عندما رأى رسول الله ﷺ ـ وهو يخطب ـ رجلاً قائمًا فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل، نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد، ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبي ﷺ: «مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه»(٢).

---

(١) د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم: موقف الإسلام من الدنيا، هجر للطباعة والنشر، ١٩٨٦.

(٢) رواه البخاري.

ومن الآيات التي تبين منهج الإسلام في الاهتمام بكل من الجسد والروح وبالدنيا والآخرة.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]

وقوله تعالى: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾**

[النساء: ١٣٤]

وقوله تعالي: **﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف: ١-٣-٣٣].

وقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾** [المائدة: ٨٧].

أما الأحاديث التي تدل على هذا المنهج فمنها:

عن أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً وقال الآخر: وأنا أصوم النهار ولا أفطر أبداً، وقال الثالث: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا!؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»(١).

(١) متفق عليه (البخاري ٥٠٦٣، ومسلم ١٤٠١).

وعن أبي جحيفة وهب بن عبد الله رضي الله عنه قال آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال ما شأنك؟! قالت: أخوك أبو الدرداء ليست له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعاماً، فقال له: كل فإني صائم قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال له: نم فنام، ثم ذهب يقوم، فقال له: نم، فلما كان من آخر الليل، قال سلمان قم الآن؛ فصليا جميعا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًّا، وإن لنفسك عليك حقًّا ولأهلك عليك حقًّا فأعط كل ذي حق حقه فأتي النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «صدق سلمان»(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنةً، فقال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»(٢).

والإسلام يجمع بين العبادة والعمل والعبادة والأخلاق.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧].

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

(١) رواه البخاري (١٩٦٨).

(٢) رواه مسلم (٩١) ومعنى غمط الناس احتقارهم، ومعنى بطر الحق رده على قائله.

الإسلام يعالج ما نتج عن اهتمام المسيحية بالروح فقط واهتمام المدنية الغربية بالمادية البحتة وما نتج عن ذلك من تعاسة وشقاء.

قد انتبه علماء الغرب إلى خطورة التركيز على الجانب المادي في المدينة الحديثة يقول العالم الفرنسي الدكتور دي بروجبي **Dr De Brogbi**

«إن الخطر الكامن في المدنية المادية البحتة يمكن تلخيصه في أنه موجه إلى هذه المدنية نفسها هذا الخطر هو الاختلال وعدم التوازن المتوقع حدوثه إذا لم تجد الحياة الروحية لها طريقًا إلى جانب المدنية المادية لتعيد إلى الحياة الإنسانية توازنها الذي تفتقر إليه»(١).

ويقول لوردسنل: «لقد أسسنا بنيانًا ظاهره النبل والتناسق، ولكننا أهملنا المتطلبات الرئيسية الملازمة لتنظيم داخليته، لقد وضعنا التصميم الدقيق للوعاء وزخرفنا ظاهره وبدا جميلاً نظيفًا، أما باطنه فسلب واغتصاب وتطرف؛ إننا لم نستخدم ما عندنا من علم وقوة متزايدين على مر الأيام إلا للمتاع الجسدي، ولكننا تركنا الجانب الروحي ضعيفًا قاصرًا(٢).

فالإسلام إذن دين الوسطية لأنه دين ينظر إلى الحياة من جميع وجوهها فلا يجعل وجهاً منها يطغى على غيره، ولا أن يتضاءل أحدها حتى يتلاشى في سائرها؛ فهو لا يسعى للآخرة دون الدنيا ولا يهتم بالدنيا وحدها دون الآخرة، ولكنه دين ينظر إلى الحياة الإنسانية على أنها وحدة كاملة بكل ما فيها: إن الإسلام يهتم بالحرب كما يهتم بالسلم ويستحسن الزهد المعتدل كما يحث على الأخذ من الدنيا بنصيب وافر يقول الإمام الغزالي: (٤٥٠-٥٠٥هـ - ١٠٥٨ - ١١١١م) «إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا.. فنظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن، وبقاء الحياة، وسلامة قدر

(٢) لماذا أسلمنا، مكتبة الحرمين للعلوم النافعة ص ٣٥.

(٣) نفس المرجع السابق ص ٣٦.

الحاجات من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن، فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية وإلا فمن كانت جميع أوقاته غارقة بحراسة نفسه من سيوف الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يفرغ للعلم والعمل، وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة فإذن إن نظام الدنيا حتى مقادير الحاجة شرط لنظام الدين»(١).

وكذلك يوازن الإسلام بين الفرد والمجتمع، فقد ربطت مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع وعُلِّقت كل منهما على الأخرى فلا يضحي الإسلام بالفرد من أجل المجتمع ولا بالمجتمع من أجل الفرد. يقول الماوردي (٤٦٤ - ٤٥٠هـ - ٩٧٤ - ١٠٥٨م) «اعلم أن صلاح الدنيا معتبر من وجهين: أولهما ما ينتظم به أمور جملتها والثاني ما يصلح به حال كل واحد من أهلها، فهما شيئان لا صلاح لأحدهما إلا مصاحبة، من صلحت حاله، مع فساد الدنيا واختلال أمورها لن يعدم أن يتعدى الله فسادها ويقدح فيه اختلالها لأن منها يستمد ولها يستعد ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا ونظام أمورها لم يجد لصالحها ولا لاستقامتها أثر لأن الإنسان دنيا نفسه فليس يرى الصلاح إلا إذا أصلحت له ولا يجد الفساد إلا إذا أفسدت عليه لأن نفسه أخص وحاله أمس فصار نظره إلى ما يخصه مصروفًا وفكره على ما يمسه موقوفًا(٢).

٣ ـ عموم الرسالة وشمولها:

إن الإسلام ليس دينًا لأمة خاصة ولا دنيا لبلد بعينه ولا دينا يناسب زمنًا واحدًا، إنه دين يتفق مع كل مكان وزمان ويصلح لكل قوم ولكل حال من أحوال المدنية.

---

(١) أبو حامد الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد، ط القاهرة ـ محمود علي صبيح، ص ١٣٥.

(٢) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي: أدب الدنيا والدين، تحقيق مصطفى السقا تقديم دكتور عبد الحكيم راضي، هيئة قصور الثقافة، سلسلة الزخائر رقم ١٢٧، ٢٠٠٤ ـ ص ١١.

ولذلك يخاطب ربنا سبحانه وتعالى في كتابه العزيز الناس جميعًا على اختلاف أجناسهم قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

ويخاطبهم قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ويخاطبهم قائلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

ويبين سبحانه وتعالى أن محمداً ﷺ مبعوثًا لكل الخلق فيقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ويقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨] ويقول تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ويقول ﷺ: «كان كل نبي يبعث في قومه خاصة وبعثت للناس كافة».

وكما أنه دين يصلح لكل قوم ولكل زمان وكل مكان لأنه نبيه هو خاتم النبيين ولا نبي بعده، فهو أيضًا دين يشمل جميع مناحي الحياة «فالسياسة والعلم والفلسفة، والإحسان والحرب والتجارة، والزواج، والدولة، والأسرة كلها تنطوي في الإسلام كما تنطوي الجبال والأنهار والأشجار في نور الشمس، فإهمال الإسلام إذن ليس معناه إهمالاً للدين فحسب، بل إهمال للحياة بأسرها»(١).

وبناءً على ذلك فإن أصول الإسلام ومبادئه لا تزال فيها قوة الاستمرار حتى بعد أن ضعف أهله، وذلك لأن الإسلام شُرِع لإحداث إصلاح عام بين البشر، يقول محمد فريد وجدي: «قام الإسلام على مبدأ إصلاح العقول، يلفتها إلى أعلام

(١) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق ـ دار الاعتصام ـ ت. ص ١٠.

الكون، عدم الخبط فيما لا تعلم وعلى إصلاح القلوب بتخليصها من العقائد الموروثة، وإقامتها على الفطرة السليمة، وعلى إصلاح المعيشة بحضها على استخراج كنوز الأرض وتخليص الإنسان من جرائم المنكرات الخلقية، وعلى إصلاح الإنسانية قاطبة من جهتها المادية والروحية واعتبارها كلا لا يتجزأ وشُرِع ليكون إصلاحًا لهاتين الجهتين معا[1].

« جاءت الأديان إقليمية وقومية وجاء الإسلام عالميًا للبشرية كلها، خاتمة لها جميعًا ونزل في الأمة العربية بلسانها رابطًا أول الدين بآخره، فالإسلام هو دين الأنبياء جميعًا من لدن آدم ونوح وهو دين إبراهيم أبي الأنبياء الذي امتد في إسماعيل وإسحاق ومنه جاء موسى وعيسى.

ومن أبرز الدلائل على عالمية الإسلام واستحقاقه للبقاء والانتشار:

١ ـ تطابقه مع الفطرة الإنسانية.

٢ ـ قدرته على العطاء لكل العصور والأزمنة والبيئات.

٣ ـ طابعه الإنساني في الإخاء البشري ورفع إصر عبودية الوثنية في الفكر[2].

ويقول في بيان شمول الإسلام: « أفرغ الإسلام مفاهيمة وتعاليمه ومقاصده التي تشمل مختلف جوانب الحياة من سياسية واقتصادية وأخلاقية وتربوية في صيغة كلية وأصول عامة ثم أطلق لأهل العصور، والبيئات المختلفة حرية الحركة لوضع النماذج التي تتناسب معها.. وليس الإسلام دينًا بمعنى العبادة واللاهوت ولكنه حركة اجتماعية ومنهج حياة وإنما يمثل الدين جانبًا من جانبها ولذلك فإن الشريعة الإسلامية هي شريعة تطبيقية يلزم بها الفرد المسلم والمجتمع الإسلامي في مختلف المعاملات كالبيوع والإجارة والرهن وأمور المال والاقتصاد والزواج وشئون الأسرة.

---

(١) محمد فريد وجدي: فصول من سيرة الرسول، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ط ـ ١٩٩٧، ص ١٤٣.

(٢) أنور الجندي معلمة الإسلام (الإسلام) ص ٤ ـ ٥.

٣ ـ الإسلام دين الفطرة والعقل:

الدليل من القرآن على أن الإسلام دين الفطرة قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

والدليل من السنة قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»(١).

فكل مولود يولد على الفطرة وهي دين الله الخالص وهو دين الحق وحده، وإنما أبواه يلقنانه من التعاليم ما هم عليه منها، وهو ما ينافي الإسلام جملة وتفصيلاً، لأنه لا يعتد بدين غير ذلك الفطرة النقية يقول محمد فريد وجدي: الإسلام هو الدين الفطري أو الدين الطبيعي، لأنه لا يكلف الإنسان إلا بما هو مطبوع على البحث فيه واعتقاده، ولا يـ.ـبئه من العقائد بما يقف حجر عثرة في سبيل تقدمه ورقيه لأن غرضه الأول تخليص العقائد من تلك الحجب التي أسدلها عليه حفظة العقائد وسدنة المعابد، والزاعمون بأن لهم حق الوساطة بين المخلوق والخالق وليطهر الأفئدة مما ران عليها من آثار الوراثات والتقاليد ومما تراكم على سويدائها من غلف التعصب والجمود(٢).

والإسلام دين العقل، على خلاف ما يقول المستشرقون والعلمانيون من أن الإسلام دين لا عقلي، فالإسلام يطالب باستعمال العقل وأن يتخلى المسلم عن جميع ما ورثه من التقاليد والأوهام، وأن يكون أمام الحقائق كيوم ولدته أمه خالي الذهن من كل صور خياله، أو وراثة تقليدية، ومتى تم له إحداث هذه التخلية، الذهنية طلب بالأخذ بحكم العقل لا بحكم الهوي والوهم. ولذا فإن التفكير

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٥٨، ومسلم في القرار ٢٦٥٨.

(٢) د. أحمد محمد سالم البربري: الفكر الإصلاحي عند محمد فريد وجدي، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي جامعة الكويت العدد ٥٩ شوال ١٤٢٥ ـ ديسمبر ٢٠٠٤. ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

فريضة إسلامية، وكما يقول العقاد: «فإن العقل الذي يخاطبه الإسلام هو العقل الذي يعصم الضمير، ويدرك الحقائق، ويميز بين الأمور ويوازن بين الأضاد، وأنه مع العقل الذي يقابل الجمود والعنت والضلال(١).

وكم هي كثيرة تلك الآيات التي تنتهي بقوله تعالى: ﴿أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾.

وبين الماوردي في كتابه «أدب الدنيا» والدين أن أساس التكليف العقل والشرع فيقول: «وجعل ما تعبدهم به مأخذوا من عقل متبوع وشرع مسموع فالعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع، والشرع مسموع فيما لا يمنع منه العقل، لأن الشرع لا يرد بما يمنع منه العقل، العقل لا يتبع فيما يمنع منه الشرع، لذلك توجه التكليف إلى من كمل عقله(٢).

ويبين أحمد زكي أبو شادي في محاضرة ألقيت بندوة الثقافة بالإسكندرية عام ١٩٣٧ «إن تعزيز الإسلام للعقل يمثل جانباً من جوانب عظمته فيقول نقلاً عن الشيخ عبد العزيز جاويش: أن القرآن الذي هو كتاب دين الفطرة. ما كان ليأتي بما ينافي الآراء القويمة، أو تغم حكمته على العقول السليمة، ولم يكن ليكلف العقل الإيمان بما لا يعقل أو يحمل الجسم ما لا طاقة له به، أو من يفرض على الإنسان ما ليس في موسوعات فطرته»(٣).

وقد اتفق علماء الخلف على أنه إذا كان هناك من الشرع ما يخالف ظاهره العقل وجب تأويله على حكم العقل(٤).

(١) عباس محمود العقاد: التفكير فريضة إسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨ ص ٢٠، وانظر أيضًا د. محمد عبد المنعم القيعي: الإسلام تعقل واستنباط، دار الشعب ١٩٨٨ ص ٧٣.

(٢) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي: أدب الدنيا والدين تحقيق مصطفى السقا تقديم د. عبد الحكيم راضي هيئة مصور الثقافي سلسلة الذخائر ١٢٧ بالقاهرة ٢٠٠٤، ص ٧٨.

(٣) أحمد زكي أبو شادي: عظمة الإسلام، مطبعة التعاون ـ الإسكندرية د. ت ص ٧.

(٤) نفس المرجع ص ٦.

فليس هناك تعارض بين العقل والنقل[1]. يبين هذه الحقيقة حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي بقوله: «فإن مثال العقل: البصر السليم عن الآفات والإذاء، ومثلا القرآن: الشمس المنتشرة الضياء.. فالمعرض عن العقل مكتفيا بنور القرآن مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضاً للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان فالعقل مع الشرع نور على نور[2].

٤ ـ بين التقليد والتجديد

الإسلام يرفض التقليد الأعمى ويدعو إلى الاجتهاد والتجديد: قال تعالى: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾** [البقرة: ١٧٠].

ولا يتحقق التجديد إلا من خلال الاجتهاد (فمن أصول الإسلام فتح باب الاجتهاد في الدين إلى يوم القيامة ذلك أن القرآن فيما يختص بالتشريع لا يحتوي إلا على أصول أولية، وقوانين كلية، تاركًا الجزئيات لأهل الاجتهاد، يستنبطونها على حسب الزمان والمكان من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والتجديد هو مسايرة التطور وهو كما يقول الشيخ أمين الخولي: «ليس إعادة قديم كان، وإنما هو اهتداء إلى جديد بعد إن لم يكن، سواء كان الاهتداء إلى هذا الجديد بطريق الأخذ من قديم كان موجودا أم بطريق الاجتهاد في استخراج هذا الجديد بعد أن لم يكن»[3].

وهناك من يرى أن التجديد معناه إعادة الدين إلى أصله يوم نشأ عن طريق تنقيته من الأدران والأباطيل التي قد تعلق به بسبب أهواء البشر على مر العصور،

---

(١) ويشيد «شاخت» بمنهج الإسلام في ذلك فيقول: «وقد جمع القانون الإلهي في الإسلام بين العقل والنقل على نحو «بديع» انظر كتابه أصول التشريع الإسلامي.

The origins of Muhammadian Jurisprudence P.

(٢) أبو حامد الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد، صبيح، القاهرة د. ت ص ٣٢.

(٣) الشيخ أمين الخولي: المجددون في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢، ص ٣٢-٣٣.

وإعادة الدين إلى أصله ليس معناه الابتعاد عن عصره الذي يعيش فيه وإنما معناه الحكم على العصر الحديث طبقًا لشريعة الله بعد تنقيتها من الأدران والأوهام والأباطيل التي يحاول الضالون إلحاقها بالشريعة(١).

والتجديد في الدين لا يعني تغيير أسسه أو التصرف في أحكامه فتجديد شيء ما لا يعني إزالته، واستحداث شيء آخر مكانه. وتشمل عملية تجديد الدين في الإسلام جوانب متعددة منها الجانب الفكري، والجانب الفقهي والجانب الروحي، ولكنها لا تتجاوز دائرة القطعيات التي فصل فيها الإسلام(٢) «والإسلام هو الدين الوحيد الذي أقر شريعة التجديد وعدها سنة من سنن الله الدائمة على مر القرون بسبب كون الإسلام هو خاتم الرسالات وحتى يكون صالحًا لكل زمان ومكان»(٣).

وقد أكد الرسول ﷺ هذا الأمر في الحديث الشريف «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها» (رواه أبو داود والحاكم).

وقد جمع الإسلام بين الثبات والتطور فأقام الثوابت في الفرائض والحدود وأباح التغيير والحركة في ا لفروع، كما فتح باب الاجتهاد مما يحقق المرونة والقدرة على مراجعة اختلاف العصور والبيئات(٤).

ويري د. طه حسين أن تبعات المسيحيين أثقل من تبعات المسلمين في مناهضة العلماء والمفكرين الذين أوذوا في ظل المسيحية، فتراهم كثيرين جدًّا، ومصدر هذا أن الإسلام حر طليق، لا يأخذ العقل الإنساني بما لا يطيق، ولا يكرهه على الإيمان بما لا يفهم، ولذا فإن الإسلام أشد نصير للتجديد(٥).

(١) د. محمد رزرمان: فلسفة التجديد الإسلامي، دار الصحوة، القاهرة ١٩٩٩ م، ص ١٨.

(٢) نفس المرجع ص ١٩.

(٣) د. محمد عمارة: الإسلام والمستقبل. ص ١٠.

(٤) أنور الجندي: معلمة الإسلام (الإسلام) ص ٧.

(٥) د. طه حسين: من بعيد ص ٤٦.

وقد نبه الإسلام إلى ضرر التقليد الأعمى للآباء والقادة، ودعا إلى طلب الدليل المقنع على كل عقيدة، فالإسلام يدعو إلى الدليل على صحة رأي الغير، ولا يأنف المسلم أن يبحث عن الحقيقة ويأخذها ممن يخالفه في دينه ولغته وألا يتعصب لرأي أو مذهب تعصبًا يمنعه عن النظر فيما وراء ذلك(١).

٥ - الإسلام يدعو إلى وحدة الدين

يبين القرآن الكريم أن الدين عند الله واحد وهو الإسلام: **﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾** [آل عمران: ١٩] وقال تعالى: **﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾** فدين الله واحد في جميع العصور، ولذا فإن المسلمين يؤمنون بجميع الأنبياء لأن دينهم جميعًا الإسلام.

يقول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: **﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾** [البقرة: ١٢٨].

ويقول تعالى: **﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾** [البقرة: ١٣٢].

ويقول القرآن الكريم في الرسالة التي أرسل بها سليمان الي بلقيس ملكة سبأ يدعوها إلى الإسلام: **﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾** [النمل ٣٠، ٣١].

ويقول تعالى على لسان يوسف عليه السلام: **﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾** [يوسف ١٠١].

وقال تعالى: **﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾** [البقرة: ١٣٦].

---

(١) أنور الجندي: معلمة الإسلام (الإسلام) ص ١٢.

ويرى محمد فريد وجدي أن الإسلام قد بنى دعوته لوحدة الدين على مجموعة من القواعد:

١ - قرر الإسلام إن دين الله واحد في جميع العصور وأنه أوحاه إلى أول رسول أرسله إلى البشر، ثم والى إنزاله على المرسلين في فترات من تاريخ الأمم تجديد لما طمس من معالمه وبيانًا لما غمض من أصوله وتصحيحًا لما حرف من آدابه، وقال تعالى: **﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾** [الشورى: ١٣].

٢ - إن الدين وضع إلهي غرزه الله في صميم الفطرة البشرية لا تشذ عنه النفس الإنسانية، وإنه في هذا الاعتبار أصبح في حكم جميع الغرائز الجبلة التي لا يختلف فيها اثنان. قال تعالى: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾**

[الروم: ٣٠]

٣ - إن منشأ كل خلاف يشق عصا الناس في أمر الدين يوجب عليهم التفرقة هو إردة البغي، وإهمال العقل، والتقليد الأعمى **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾** [البقرة: ١٧](١).

والإسلام يدعو إلى الإيمان بجميع الأنبياء وإجلالهم فموسى عليه السلام كليم الله وعيسى عليه السلام روح الله ومحمد ﷺ حبيب الله «لا نفرق بين أحد من رسله».

---

(١) محمد فريد وجدي: مهمة الإسلام في العالم جمع وتقديم محمد رجب البيومي إصدار اللجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف ط ١ ١٩٨٩ م ص ٨٩.

يقول ناصر الدين دينيه «ولن يجرؤ مسلم قط على التفوه بأقل بادرة في حق عيسي. وكذلك لن يقبل أن يدع أحداً يتفوه بمثل هذا في حضرته، حتى وإن كان من يحدثه من هؤلاء المسيحيين الأصليين الذين يريدون أن يجعلوا من عيسى المسئول عن الأخطاء الكهنوتية، وسب المسيح لا شك يعتبر سبًّا للإسلام الذي يأمر باحترامه»(١).

مكانة العلم والعلماء في الرسالة المحمدية:

لا يوجد دين من الأديان ولا نظام اجتماعي - من النظم المعروفة قديمًا أو حديثًا - يبلغ شأن الإسلام في رفع شأن العلم والتنويه بقيمته، وفي الدعوة إليه والتعويل عليه، فيقول تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ**﴾ [آل عمران: ١٨].

ورفع من قدر العلماء حيث قال: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الزمر: ٩].

وقال تعالى: ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ وأول مانزل من القرآن ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ وقال رسول الله ﷺ «طلب العلم فريضة على كل مسلم»(٢).

ويقول محمد فريد وجدي: «فتح الإسلام للعقول أبواب العلوم الصادقة، والمعارف الحقة، وأراهم أن طلبها. والسعي في اكتسابها هو مما يعبد به الخالق جل شأنه ولا يعقل أن يعارض الإسلام علمًا أو يصادم حكمه، أما إذا كان هناك تعارض ظاهرى بين نظريات العلم والنصوص القرآنية فإن هذا الإشكال يمكن حله والخروج من هذا التعارض الظاهرى من خلال مبدأ «التأويل»(٣).

---

(١) ناصر الدين دينية (محمد رسول الله) ترجمة عبد الحليم محمود، دار المعارف ١٩٧٩ ص ٣٥٢.

(٢) رواه ابن عبد البر عن أنس.

(٣) محمد فريد وجدي. المدنية والإسلام بمطبعة الترقي، القاهرة ١٩٠١م ص ٦٩.

ولم لا يتفق العلم والدين، ويكون الأول مؤيداً للثاني وناصره، وحاميه من شائبات الشكوك، ومؤازره ما دام العلم منتزعًا من أشياء الكون، والدين وحي من خالقه؟ وهل يعقل أن يكون وحي سماوي مخالف لوضع طبيعي، وكلاهما مستمد وجوده من خالق تتنزه أفعاله عن التناقض، وتتعالى إفاضته عن التعارض(١).

فالشرع لايأتي بما تحيله العقول، ولابما ينقضه العلم الصحيح.. وهذا من أكبر الأدلة على أن ما عند الله محكم ثابت لكل زمان ومكان.

وهذه الجمل المختصرة تعرف على وجه التفصيل بالتتبع والاستقراء لجميع الحوادث الكونية وحوادث علوم الاجتماع وتطبيق ذلك إذا كان من الحقائق الصحيحة على ما جاء به الشرع، فبذلك يعرف أنه تبيان لكل شيء وإنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها(٢).

«والعلم في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ دليل الإيمان والداعي إليه بل إن العلم والإيمان يأتيان مقترنين متعاضدين لم يأتيا متعارضين أبداً، وأزيد من ذلك نجد أن كلمة علم ومشتقاتها قد ذكرت في القرآن الكريم مئات المرات، أما عن المكانة الرفيعة للعلماء بل وطالبي العلم، فحدث ولا حرج(٣).

* القرآن والمنهج الاستقرائي:

نقد المسلمون المنطق اليوناني، ولم يرضوا عن التفكير النظري المجرد الذي امتازت به الفلسفة اليونانية لأنهم أرادوا التماس طريقة تفيد العلم على وجه أقرب لليقين، فنفذ ابن تيمية والأشراقي وأبو بكر الرازى المنطق اليوناني نقداً منظمًا، وذلك لأنهم علموا أن روح القرآن تتجلى فيها النظرة الواقعية.

---

(١) محمد فريد وجدي، الإسلام في عصر العلم - مكتبة مصر. القاهرة ٢٠٠٠م.

(٢) الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي. من محاسن الإسلام - دار العاصمة الرياض - ١٤٠٩، ص ٣٤.

(٣) د. أحمد شوقي - العلم ثقافة المستقبل - الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م ص ١٨٠.

ومن ثم أكدوا أن الحس أصل من أصول العلم والاستقراء وهو الطريقة الوحيدة الموصلة إلى اليقين(١) وهكذا قام المنهج التجريبي القائل بأن الملاحظة والتجربة هما أساس العلم وأصله لا التفكير النظري المجرد.

قد أخذ هذا المنهج من القرآن الذي يدعو إلى النظر في عالم الحس، والاستشهادية وهكذا يجعل القرآن الطبيعة والتاريخ مصدرين من مصادر المعرفة، يقول الله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ويقول: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] والله جل وعلا ذكر للإنسان آيات كثيرة في الكون تتكشف في إدراكه الحسي ويأمرهم بالاعتبار بهذه الآيات.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] دعوة للبشر للنظر في ظواهر الكون والبحث فيها لمعرفة بعض مظاهر القدرة الإلهية في القوانين، التي تحكم تلك الظواهر.

يقول محمد إقبال في كتابه «تجديد التفكير الديني في الإسلام»: «الزعم بأن أوربا هي التي استحدثت المنهج التجريبي زعم خاطئ» ويقول «ومن أين استمد روجر بيكون ما حصّله في العلوم؟» من الجامعات الإسلامية في الأندلس والقسم الخامس من كتابه (Cepus Maius) الذي خصصه للبحث في البصريات هو في حقيقة الأمر نسخة من كتاب المناظر لابن الهيثم وكتاب بيكون في جملته شاهد على تأثره بابن حزم»(٢).

(١) علي سامي النشار: مناهج البحث عن مفكري الإسلام ص ١٧٧.

(٢) محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام - ترجمة عباس محمود ومراجعة الدكتور مهدي علام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ص ١٤٨ - ١٤٩، وانظر أيضاً أنور الجندي: الإسلام والتكنولوجيا، ص ٦١ - ٧٢.

وأخيراً جاء الاعتراف من أوربا بالأصل الإسلامي للمنهج العلمي يقول Brif-fauit في كتابه "Making of Humanity" على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا يمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون وأهم ما تكون. في نشأة تلك الطاقة التي تكون ما للعلم الحديث من قوة متميزة ثابتة، وفي المصدر القوي لازدهاره في العلوم الطبيعية وروح البحث العلمي»[١].

ويقول إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا، إنه يدين لها بوجوده نفسه فالعالم القديم كما رأينا لم يكن للعلم فيه وجود... أما ما ندعوه الآن «علماً»، فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ولطرق من الاستقصاء مستحدثة لطرق التجربة، والملاحظة، والمقاييس وتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان... وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوربي[٢]، والقرآن الكريم قد جعل البحث والتجربة والاكتشاف لأسرار الله في الطبيعة والكون، بواسطة العلوم الطبيعية والتجربية في مقدمة الأسباب الداعمة للإيمان الديني والمفضية إلى أن يكون علماء هذه العلوم الطبيعة هم الأكثر خشية لله سبحانه وتعالى[٣] **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾** [فاطر: ٢٧-٢٨].

---

(١) Making Of Humanaty P190.

(٢) نفس المرجع نفس المكتبة.

(٣) د. محمد عمارة، الإسلام في عيون عربية، دار الشروق - القاهرة ٢٠٠٥.

* الأخوة الإنسانية والمساواة:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وقال رسول الله ﷺ: «إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى».

ففكرة الأخوة في الإسلام تجعلها أخوة إنسانية لاتعرف التمييز فيما بين الأجناس والألوان والمراتب.

والإسلام ينظر إلى أتباع الأديان الأخرى نظرة أخوة وتسامح ورفق، وقد عاشت طوائف أصحاب الأديان في ظل مجتمعات المسلمين سعيدة راضية، فقد حفظ لها الإسلام كنائسها وأديرتها وسمح لهم بإقامة شعائرها ونظمها.

وقد أثبتت وقائع التاريخ أن الأقليات المسيحية واليهودية لم تجد اضطهاداً في ظل حكم العرب المسلمين بينما وجدت الأقليات المسلمة ذلك(١).

وكما يقول الأستاذ أنور الجندي: «أقام الإسلام أصول الأخوة العالمية هادمًا لعبودية العبيد والاستعلاء الطبيعة الخاصة ولاغيًا للرق والسخرة محرراً للعبيد حيث لايقر التفرقة بالعنصر أو التعصب للنساء والأجناس والألوان وتقوم دعواه على المساواة الشاملة والأخوة الإنسانية أمام الدولة وأمام الله والإسلام لايفرض قومية على قومية ولا عرقًا على عرق ولكنه دعوة إلى كل صيغة إنسانية للحضارة. كما دعا الإسلام إلى روح الإخاء الصحيح التي تقرر أن إيمان المرء لا يكتمل حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه(٢).

---

(١) أنور الجندي الإسلام (معلمة الإسلام/ ١) ١٩٧٠م ص ٢٠.

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٠.

وقد طبق الإسلام الإخاء بين الناس قبل أن يدعو إليه الغرب بألف عام.

من حيث أقر الإسلام المساواة ومحا الفوارق البشرية فالناس في الإسلام تتكافأ دماؤهم وأموالهم، ويعارض الإسلام وجود جماعة معينة بينها وبين الله عقد خاص للسيادة العالمية أو وساطة للمغفرة.

وسوى الإسلام بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات وجعل للرجال على النساء درجة(١).

(حقوق المرأة في الشريعة الإسلامية):

فللمرأة في الإسلام أن تزاول التجارة والصناعة والزراعة وأن تتولى العقود والمعاملات وأن تملك كافة أنواع الملك واختص الإسلام المرأة بنصيب من الميراث يتكافأ مع مسئوليتها المادية، فجعلها مكفولة العيش قبل الزواج وبعده ومنها حق المهر وشرط الكفاءة رعاية لمنزلتها، فلولي الأمر أن يعترض على زواجها ممن هو أقل منزلة منها رعاية لها وصونًا لكرامتها ومن تكريم الإسلام للمرأة أن أقر بعدم كفاءة الفاسق للزواج بالمرأة العفيفة، كما وضع لها النظم المتعلقة بالطلاق حماية لها وللأسرة، ودعا إلى قدر من الأدب والاحتشام في العلاقة بين الرجل والمرأة مع تسويتهما في الحقوق والواجبات واختلف مفهوم الإسلام للمرأة عن مفهوم الشرائع الأخرى التي تجعل ضعف المرأة عقاباً إلهيًا(٢).

وأباح الإسلام للرجل أن ينكح ما طاب له من النساء مثنى وثلاث ورباع مع الحث على الاقتصار على واحدة عند خوف الظلم وعدم القدرة على إقامة حدود الله في الزوجية وهذا التشريع يحل كثير من المشاكل في حالة الحروب والمرض، وعدم الإنجاب واستحالة التفاهم ويقضي على اتخاذ الخليلات وفي ذلك مصلحة للطرفين ودفع ضرر الجانبين.

(١) نفس المرجع السابق نفس الصفحة.

(٢) المرجع السابق ص ١٣، ١٤.

وانظر أيضًا: Mohammad Ali : Islamic law of marriage and Divorse, Lahore. Pakistani 1944, P. P. 50 - 51

* حقوق الطفولة :

راعى الإسلام حقوق الطفولة قبل الميلاد وبعده فأوصى باختيار الزوجة (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس) وأوجب على الوالدين حق اختيار اسم الطفل وتعليمه الكتابة وتزوجه إذا بلغ مبلغ الرجال وجعل له على والده حق السمع والطاعة مالم يؤمر بمعصية فإن أُمر بمعصية فمصاحبته بمعروف من غير طاعة فيما يغضب الله[١] .

* السلم والحرب :

السلم في الإسلام قاعدة، والحرب ضرورة، فالأصل في الحياة السلام ولاتستخدم القوة إلا لرفع الظلم أو التحرر من عدوان أو إصلاح معوج، فالحرب جهاد مقدس في سبيل الدين والحق، ودعوة إلى احترام العهود، والإسلام لايقاتل غير المسلمين إلا إذا حاربوا دعوته وقاوموا فكرته وعمدوا إلى إيذاء أهله . ولا يمتنع من إقامة العلاقات معهم إذا هم لم يحاربوا الإسلام والمسلمين[٢] وقد حرم الإسلام في الحرب قتل الأطفال والشيوخ والنساء والرهبان إلا من اشترك في الحرب فعلاً وأضر بالمسلمين .

*الإسلام وفلسفة التوازن بين الثبات والتطور :

لقد كان القاضي كاردوزا Mr. Justice Cardoza على حق عندما قرر « أن أقصى ما يحتاج إليه وقتنا الحاضر هو فلسفة وسط بين الدعاوى المتصارعة ما بين الجمود والثبات وبين التطور والتقدم، تمد العالم بمبدأ يؤمن نحوه » فالإسلام يقدم للعالم هذه الفلسفة الكفيلة بالتوازن بين الثبات والتطور معًا . وعدم ثبات الحياة والتغير السريع والمتلاحق فيها قد يسبب القلاقل والقلق، كما أنه قد يستجد من

(١) المرجع السابق ص ١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨ .

الظروف ما يسبب العبث، والمشاكل ما لم يكن هناك من التغيير ما يسايره، فالحياة إذاً ليست جموداً بحتا لا يقبل التطور ولا تغييراً شاملاً بمعنى كلمة التغيير، والإسلام نظم حالتي الثبات، والتطور حيث أن تعليم الإسلام الهادية هي من عند الله الذي لايحده زمان، ولا مكان وهي بذلك سواء منها مايتعلق بالفرد أو الجماعة متناسقة مع خواص الطبيعة التي خلقها الله رب العالمين. وهذه التعاليم أزلية باقية غير أن الخالق جل شأنه رسم لنا المبادئ والأصول وترك للإنسان الحرية في كيفية تطبيقها في العصور المختلفة. فيما يتفق مع الروح والظروف القائمة في كل منها فكان «الاجتهاد» هو السبيل التي يترسمها رجال كل عصر لتطبيق هذه الهداية الربانية لمواجهة مشاكل الحياة في زمانهم فتعاليم الهداية الأساسية ثابته لاتتغير. أما وسائل تطبيقها فيمكن أن تتغير طبقًا لاحتياجات الحياة في كل عصر من العصور وفي هذا ما يفسر لنا السر في بقاء تعاليم الإسلام ناضرة مع تجدد اليوم والغد(١).

يقول محمد فريد وجدي (إن القرآن فيما يختص بالتشريع، والأخلاق، وهيئة الاجتماع، لايحتوي إلا على أصول أولية، وقوانين كلية، تاركا الجزئيات لأهل الاجتهاد يستنبطونها على حسب الزمان والمكان من كتاب الله وسنة رسوله»(٢).

النظام المالي بين الملكية بالأصاله والملكية بالاستخلاف:

قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الشورى: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، فنظرة الإسلام إلى المال على أنه مال الله وحده والإنسان مستخلف فيه للانتفاع به وتوجيهه لمصلحته ولمصلحة المجتمع، ولذا قيد الإسلام حق التصرف في هذا المال بمنع الربا والقمار والاكتناز لأن المال وسيلة لا غاية وطريق لا هدف.

(١) لماذا أسلمنا، ص ٤٤٣.

(٢) د. محمد فريد وجدي: مقدمة المصحف المفسر، دار الشعب، القاهرة ١٩٧٧ ص ٣٠٤.

وقد شرع الإسلام الصدقة والزكاة وهي تنمي المال وتطهره وهي نظام التعاون والتكافل بين الغني والفقير من خلالها تزداد الفئة المنتفعة بالمال بما يشيع المحبة بين الناس فلا يحقد الفقير على الغني، ويتم تداول المال فلا يكون حكرًا على طائفة خاصة[1]، وينكر الإسلام الاحتكار سواء احتكار التجارة في الأسواق العامة أو احتكار الثروة في طبقة واحدة أو عدد من الأفراد، ويحرم أكل أموال الناس بالباطل، ويفرق بين البيع والربا فقد حرم الربا تحريمًا تامًا وأحل البيع[2] قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

***البساطة والمنطقية والقابلية للتطبيق:**

نلمس في العقيدة الإسلامية البساطة والبعد عن التعقيد، فالله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن كفوًا أحد.

وهذه العقيدة يفهمها الأمي والمتعلم على حد سواء وهي تختلف عن عقيدة النصارى في الإله حيث أنه عندهم إله واحد في ثلاثة وفهم التوحيد بهذه الكيفية أهم صفة تميز العقيدة الإسلامية والإله أيضًا في الإسلام له طبيعة واحدة وهي الطبيعة الإلهية وليست له طبيعة بشرية فهو متنزه عن التجسد في صورة البشر وهو «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» وهذا التنزيه يقره العقل والمنطق.

والعبادات في الإسلام أيضًا تتسم بالبساطة واليسر فالذي لا يستطيع الصلاة واقفا يصلي قاعداً وإن لم يستطع فراقداً ومن لم يجد الماء أو وجده وتعذر استخدامه يتيمم، والمريض والمسافر والحامل والمرضع والشيخ الكبير يرخص لهم جميعًا في الإفطار، حُج البيت فقط لمن استطاع إليه سبيلا، و الزكاة على من بلغ النصاب وكان فائضًا عن حاجاته الضرورية ومكث عنده عامًا هجريًا كاملاً وصدق

(١) أنور الجندي معلمة الإسلام (إسلامنا) ٥ب١٩٧ ص ١٨.

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٩.

الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وإذ يقول: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٢].

العبادات في الإسلام تسمو بالروح وترتقي بالحياة الإنسانية:

يقول شيخ الأزهر سيد طنطاوي «والعبادات في الإسلام شرعها الله لتطهير الإنسان والارتقاء بالحياة الإنسانية «فالصلاة مفروضة لكي تنهى عن الفحشاء والمنكر. والزكاة لمساعدة الفقراء، والصيام لتدريب الإنسان على الصبر وقوة الإرادة والإخلاص[١]، والإحساس بالجائع والفقير «والحج بذل للأموال وتحمل للمشقات وتعرض للأخطار والصعوبات طلباً لرضا الله، والوفادة على الله، والتملق له في بيته وفي عرصاته، والتنوع في عبوديات الله في تلك المشاعر التي هي موائد مدها الله لعباده ووفود بيته وما فيها من التعظيم والخضوع العام لله، والتذكر لأحوال الأنبياء والمرسلين، والأصفياء والمخلصين، وتقوية الإيمان بهم، وشدة التعلق بمحبتهم، وما فيه من التعارف بين المسلمين، والسعي في جمع كلمتهم. والتقائهم على مصالحهم الخاصة والعامة مما لا يمكن تعداده[٢].

* العدل فريضة إسلامية:

والعدل في الإسلام اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى يأمر بالعدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

ولأن العدل نقيض الظلم، فلقد حرم الله الظلم على نفسه، وعلى عباده: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]. ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] ولذلك كان العدل هو الروح السارية في الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية، فلقد حرم

---

(١) رجب البنا: الغرب والإسلام دار المعارف، القاهرة ١٩٩٧، ص ١٣٥.

(٢) الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي من محاسن الدين الإسلامي، دار العاصمة؟ الرياض شعبان ١٤٠٩، ص ١٦.

الإسلام حتى ظلم الإنسان لنفسه ومن باب أولى ظلمه لغيره ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧] ولقد أوجب الإسلام العدل في كل المعاملات حتى مع من يكره ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا﴾ [المائدة: ٨] ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] ولقد أسس الإسلام فريضة العدل مع الآخرين على سنة من سنن الله الكونية وهي التنوع والاختلاف(١).

ونظرة الإسلام إلى الآخر نظرة عادلة، فهو لا يضع أهل الكتاب مثلاً في سلة واحدة فيميز بين الفرقاء وفق معاييرهم وعلاقاتهم بالكلمة السواء فيقول: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾

[آل عمران: ١١٣]

* الأديان وصحة الأبدان:

الإسلام هو الدين الذي يقرن الطهارة - وهي من لوازم صحة البدن - بالإيمان فعن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان» (رواه مسلم) والوضوء وهو نظافة الأجزاء الظاهرة من البدن شرط من شروط صحة الصلاة كذلك طهارة الثوب والبدن والمكان. وسن الإسلام غسل الجمعة، وغسل العيدين وأوجب غسل الجنابة.

وقد جعل الإسلام نظافة البدن من سنن الفطرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «الفطرة خمس أو خمس من الفطرة - الختان، والاستحداد، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط، وقص الشارب». [متفق عليه] ولما كان كثير من الأمراض سببها عدم

(١) د. محمد عمارة: الإسلام في عيون غربية بين افتراء الجهلاء وأنصاف العلماء، دار الشروق - القاهرة ٢٠٠٥ ص ١١.

وانظر محمد عطية الأبراشي: روح الإسلام، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٣م ص ٢١٢ - ٢٣٥.

نظافة الأسنان فقد حرص الإسلام على نظافتها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة».

[متفق عليه]

والإسلام يحرص علي تطهير البيوت والطرقات وتخليتها من القمامات والفضلات حتى لا تكن مباءة للحشرات، قال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم ولاتشبهوا باليهود». [رواه الترمذي]

وقال ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» [رواه مسلم] ونهى رسول الله ﷺ عن التغوط في طريق الناس وظلهم وموارد الماء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا اللاعنين» قالوا وما اللاعنان؟ قال الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلهم» [رواه مسلم]. عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى أن يبال في الماء الراكد.

[رواه مسلم]

والإسلام سبق كل التشريعات الحديثة في الأخذ بمفهوم الحجر الصحي والطب الوقائي الذي لم تعرفه البشرية إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ولاتزال تتعثر في تنفيذه إلى اليوم[1] فعن أسامة بن زيد وعبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ عندما سئل عن الطاعون قال: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها».

[متفق عليه]

وكشف الطب الحديث عن كثير من الأمراض الخطيرة التي يسببها تناول الخمور، وقد نهى الإسلام عن تناولها حيث قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

---

(١) محمد علي البار العدوي بين الطب وحديث المصطفى ر. ت ص ٦٦.

وأمر رسول الله ﷺ بتغطية الأواني التي تحوي الأطعمة حفاظًا على الصحة فقال ﷺ : «غطوا الإناء وأوكئوا السقاء» (رواه مسلم).

*** الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي لحقوق الإنسان :**

تقر الشريعة الإسلامية للفرد بمجموعة من الحقوق بصفته فرداً أو مجموعة بصفته عضواً له علاقة بالدولة أو الجماعة السياسية.. كما تقر الشريعة حقوقًا لبعض الأفراد والجماعات استناداً لبعض الاحتياجات الخاصة(٢).

*** حقوق الإنسان وحرياته بصفته فرداً :**

١ ـ الحق في الحياة :

ارتقى الإسلام بهذا الحق إلى الحد الذي اعتبر أن الاعتداء عليه يرقى إلى مرتبة الاعتداء على الناس كافة. قال تعالى: **﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾** [المائدة: ٣٢] وورد النهي عن قتل الإنسان نفسه قال تعالى: **﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾** [النساء: ٢٩].

٢ ـ حماية العرض :

فلكفالة هذا الحق قرر الإسلام عقوبات رادعة لمن يعتدى على عرض إنسان فقرر رجم الزاني المحصن وجلد الزاني غير المحصن مائة جلدة وقرر ثمانين جلدة كحد لقذف المحصنات. قال تعالى: **﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾** [النور: ٢]، وقال تعالى : **﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** [النور: ٤]، كما نهى الإسلام عن الغيبة والنميمة والتجسس والتنابز بالألقاب.

(٢) أحمد الرشيدي، حقوق الإنسان نحو مدخل إلى وعي ثقافي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، إصدارات خاصة ٢٠٠٠ ص ٥١ ـ ٨٩.

٣ ـ كفالة حرية العقيدة :

فالإسلام لايرغم أحداً على الدخول فيه ولكن سبيله إلى ذلك الدعوة والإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة. قال تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]

* حقوق الإنسان من منظور علاقته بالجماعة السياسية :

١ ـ رفض التمييز العنصري وتقرير المساواة بين البشر :

فالنظرية الإسلامية في حقوق الإنسان تنهض على مبدأ مؤداه عدم التميز فيما يتعلق بحقوق المواطنة. كالحقوق المدنية، والحقوق الاقتصادية، والحقوق الاجتماعية، أو غيرها من حقوق الإنسان المسلم وحقوق الإنسان غير المسلم، وذلك كقاعدة عامة(١).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي الحديث الجامع لرسول الله ﷺ في حجة الوداع «أيها الناس: إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب وليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى» وتطبيقا عمليا لهذا المبدأ استعمل الرسول ﷺ بلالاً ـ العبد الحبشي الأسود ـ لوظيفة الأذان.

(١) المرجع السابق ص ٦٧.

٢ ـ الحق في حرية الرأي والتعبير :

يؤكد كل من القرآن والسنة على هذا الحق حتى أنه ليرقى إلى مرتبة الواجب. قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وفي الحديث: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» ومن منطلق استخدام هذا الحق عملياً راجعت امرأة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو على المنبر عندما أراد تحديد المهور فقالت له أين أنت من قول الله: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾ ؟ فقال: أصابت امرأة وأخطأ عمر.

٣ ـ حق الملكية :

الشريعة لها خمسة مقاصد وهي حفظ الدين وحفظ النفس وحفظ العرض وحفظ العقل وحفظ المال ومن ثم فقد نظر الإسلام إلى حق التملك بوصفه إحدى القيم العليا وكفل الشرع لكل إنسان الحق في حماية ماله وفي الدفاع عنه. قال ﷺ: «من أخذ مال أخيه بيمينه أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة». فقال رجل: وإن كان شيئًا يسيراً يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «وإن كان عوداً من أراك». وقال ﷺ: «من قُتل دون ماله فهو شهيد».

٤ ـ الحق في الضمان الاجتماعي :

ويعني هذا الحق التزام الدولة تجاه مواطنيها بتقديم العون والمساعدة لمن ليس لهم مورد رزق يضمن لهم حق الكفاية بالذات في حالات المرض والعجز والشيخوخة. قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ - ٣] والترجمة العملية لكفالة هذا الحق الذي ينص عليه الشرع إنما يتمثل في مؤسسة الزكاة التي من ضمن أهدافها ضمان مستوى معيشي لائق لكل أفراد المجتمع.

الحماية الخاصة لبعض الأفراد والجماعات:

١ - حقوق غير المسلمين:

أقر الإسلام بمبدأ الحرية المدنية لغير المسلمين في إطار الدولة الإسلامية قال تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] وأباح الإسلام لهم ما أباحه دينهم من طعام وشراب فلا يقتل لهم خنزير ولا تراق لهم خمر(١).

وأمر الإسلام بالإقساط إليهم ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨] وأمر بألا تجادلهم إلا بالتى هي أحسن قال تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العكبوت: ٤٦](٢).

* حقوق الإنسان في الظروف الاستثنائية (الحروب):

فحماية حقوق المحاربين لم توليها التشريعات الوضعية اهتماماً إلا منذ نحو قرن من الزمان تقريباً أي منذ انعقاد مؤتمرى لاهاى للسلام عامي ١٩٠٧، ١٨٩٩ بينما اهتم بها الإسلام منذ أكثر من ١٥ قرن فمن وصايا الرسول ﷺ لجيش أرسله: «انطلقوا باسم الله، وبالله، وعلى بركة رسول الله، لاتقتلوا شيخًا فانيًا، ولاطفلا، ولاصغيراً، و لاامرأة، ....». وقال ﷺ: «استوصوا بالأسارى خيراً»(٣).

(١) المرجع السابق ص ٨٢.

(٢) المرجع السابق ص ٨٧-٨٩.

(٣) المرجع السابق ص ٨٨-٨٩.

الخاتمة

يتضح لنا من تلك النماذج التي أشهرت إسلامها وما عرضنا من مزايا هذا الدين العظيم أن العالم الغربي الذي يعيش ثمار التقدم المادي لن يجد التوازن النفسي إلا في ظل عقيدة تحترم تقدمه النفسي والمادي وتحقق له الإشباع الروحي الذي يفتقده وتجنبه ويلات الآثار السلبية لهذا التقدم المادي والإسلام هو المرشح للقيام بهذا الدور.

وإذا كان هناك من أهل الغرب من سئموا من الانهماك في الحياة المادية بالدرجة التي أحسوا فيها بالخواء الروحي فإن الأجدر بنا كمسلمين ألا نلهث وراء المادية الغربية مضحين بما لدينا من قيم عليا تحقق للإنسان التوازن المنشود وسط هذه المادية الجارفة.

وعلى الأمة أن تقوم بمسئوليتها نحو تقديم الدين الإسلامي للعالم بصورته الحقيقية بالقدوة وبالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يكشف للعالم عن تلك الجوانب التي تسهم في صلاح البشرية وتحقق لها غاياتها المنشودة.

وتطور وسائل الدعوة وتجديد الخطاب الديني بما يكشف عن القوة الكامنة في الإسلام الدافعة إلى التطور والتقدم وتحقيق المثل العليا في عالم يفتقر إليها أشد الافتقار، والقراءة الواعية للنصوص الدينية في ضوء مقاصد الإسلام وكلياته عامل مهم في تفتح القلوب لهذا الدين والتواصل المستمر بين الأمة وبين هؤلاء الذين جندوا أنفسهم بمجرد إسلامهم للدفاع عن الإسلام وسط بيئة تجتهد ما وسعها في تشويهه أمر من الأهمية بمكان حيث يشعر هؤلاء بأنهم فعلاً جزء من بنيان متكامل يشد بعضه بعضاً.

ويوم أن يأخذ المسلمون بأسباب التقدم التي أخذ بها أجدادهم في إطار القيم والمثل العليا التي فرضها الإسلام على أتباعه ودونما إهمال للمعطيات الإيجابية للتقدم الحضاري العالمي يوم أن يكون الدين الإسلامي مصدر جذب، وتكون الأمة محط الأنظار وموضع الاحترام.

فبعض الذين أسلموا كان من أسباب انجذابهم إلى الإسلام إعجابهم بالثقافة العلمية في إطارها الإسلامي التي كانت سببًا لإخراج أوربا من ظلمات الجهل ودياجير التخلف تلك الثقافة التي نشأت في إطار من السمو الروحي الذي يحكم ما أفرزته الثقافة العلمية من تطبيقات عملية ودارت بوسائلها ومقاصدها في هذا الإطار.

لقد حرصت في بحثي على إجلاء الصورة الرائعة للإسلام كما يجب أن يكون مما حبب لذلك الفريق الجميل ممن دخلوا فيه للمنافحة عنه بكل ما أوتوا من جهد وإخلاص.

ففي المبحث الأول أردت أن يقف القارئ على الصورة المشوهة التي رسمها له أعداء الإسلام مثل جولد تسيهر ولامنسي.

وفي المبحث الثاني عرضت لشهادات المنصفين الذين شهدوا للإسلام بأنه الدين المناسب الذي به تنصلح الدنيا والآخرة وتعرضت لبعض ما أشادوا به في مؤلفاتهم المنصفة من روعة الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان.

وفي المبحث الثالث عرضت لنماذج من المفكرين الغربيين الذين تفاعلوا مع الإسلام فأسلموا ودافعوا عن الإسلام وشرحوه وفسروا قضاياه ومن ـ هؤلاء رجاء جارودي وعبد الواحد يحيى.

وفي المبحث الرابع والأخير تحدثت عن مزايا الإسلام والتي استحق بها أن يكون الدين القائد في كل زمان ومكان.

وفي الختام أرجو أن يكون ما كتبته ـ خالصًا لوجه الله ـ والله من وراء القصد والسلام.

* * * * *



الرسول محمد ﷺ

الجزء الثالث

الفصل الخامس

منهاج النبوة

في الدعوة إلى الله

تمهيد

الحمد لله الذي فتح على قلوب أوليائه أنوار الهدى والبصيرة ، وأمتعهم بنسيم اليقين ولذة العافية ، وجعلهم هداة مهتدين ، ودعاة صالحين. يصلحون إذا فسد الناس ، ويصلحون ما أفسد الناس بما أوتوا من الكتاب والحكمة، وما منحهم الله من كريم الأخلاق وحميد السيرة، وصفاء السريرة.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إمام الهدى وقدوة المهتدين ، والرحمة المهداة من رب العالمين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين..

أما بعد :

فإن الدعوة إلى الله سبيل الأنبياء ، وحلية الأولياء الذين اصطفاهم الله لحمل رسالته، واختارهم للسعي في إصلاح عباده؛ لأنها سبيل لا تخضع للأهواء فتلتبس بها ، ولا للشهوات فتمتزج بها ، ولا للآراء المجردة عن الدليل فتنحرف بها ، بل بنور الله تسير ، ومن منهاج رسول الله ﷺ تستنير. فإذا رأيت انحرافاً في دعوة ، وجنوحاً إلى باطل في دعاة فاعلم أن ذلك انحراف عن نور الله ، وميل عن منهاج رسول الله ﷺ قال تعالى: **﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾** [طه:١٢٣، ١٢٤].

وإذا كانت الدعوة في اللغة تطلق على طلب الإقبال كما في قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وإني ليدعــوني الندى فأجيبه   وأضرب بيض العارض المتوقد(١)

وعلى أمارات الطلب وأسبابه ودواعيه كما في قولهم لصريخ الخيل في الحروب وما يترك في الضرع من اللبن ليدعو مابعده [داعية] ومنه قوله تعالى : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾[القمر:٦] والمقصود نفخ الصور من قبل إسرافيل ، وتطلق أيضاً على المسألة ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] أي: اسألوني. ومنه تسمية السبابة [دعّاءة] لأنه يشار بها إلى التوحيد الذي هو من أعظم أسباب إنجاح المسألة؛ فإن الدعوة إلى الله تشتمل على هذه المعاني فهي طلب إقبال حين تُوَجَّهُ الدعوة مباشرةً إلى المدعو، وهي أمارة لها حين يكون الداعية أسوة صالحة تذكر بالله رؤيته ، وهي أسباب و بواعث حين تقع العظات والعبر، وهي مسألة بالنظر إلى الداعي وتقربه بما يدعو إلى الله تعالى(٢) وسيأتي – إن شاء الله – من النصوص ما يوضح هذه المعاني. وإذاً فالدعوة إلى الله تعالى تعني الدعوة إلى دينه وعبادته ومحبته على بصيرة. ودين الله هو سبيله وهو الصراط المستقيم . والبصيرة هي العلم بالكتاب والسنة وهي الحكمة -كما سيأتي بيانه – فتضمنت أموراً ثلاثة هي لها أركان: داعيًا، ومدعواً ، ومدعواً إليه(٣)، فالداعي : هو رسول الله ﷺ ومن تبعه، والمدعو: سائر الناس، والمدعو إليه: سبيل الله الذي هو دينه فاقتضى ذلك ممن دعا إلى الله أن يكون عالماً بدينه متخلقاً بخلق رسوله عليه الصلاة والسلام مقدماً لما قدم معظماً لما عظم ، فيبدأ بغرس عقيدة

(١) الديوان : (١٨٢) .الندى: السخاء والكرم ، وأضرب: أسرع وأسبق ، وبيض العارض: مطر السحاب والمتوقد: الذي يلمع برقه والمعنى: أني أسبق المطر في البذل.

(٢) انظر هذه المعاني اللغوية في المصادر التالية : القاموس المحيط (١٦٥٥) ط ٢ ، مجمل اللغة (٣٢٢٦ ، ٣٢٢٧/ ١) ط١ سنة ١٤١٤هـ، المصباح المنير (١٩٤) ، لسان العرب (٢٥٩/ ١٤).

(٣) والشرك : صرف نوع من أنواع العبادة لغير الله مثل الدعاء والرجاء والاستغاثة والاستعاذة والذبح والنذر والخوف ونحوها.

التوحيد صافية نقية محذراً من الشرك بالله في عبادته فإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

وليحذر من الشرك الخفي وهو الرياء فإنه محبط ما قارنه من العبادة وليتأدب مع الله عند ملاحظة الأسباب فإذا استفاد مصلحة [ما] من جهة فلا يقل لولا الله وفلان أو الشيء الفلاني ولكن ليقل لولا الله ثم فلان وليحذر أيضاً من الإلحاد في أسمائه وصفاته بتأويل أو تحريف أو تعطيل أو تشبيه أو تمثيل بل تمر كما جاءت وتحمل على حقائق معانيها على ما يليق بجلال الله وعظمته ولا يسأل عنها بصيغة كيف فإن ذلك من البدع المحدثة. وما حدث من الخلاف في الأسماء والصفات فمنشؤه من تقديم العقل على النقل وذلك مخالف لهدى الله فإن العقل تابع للشرع وهو خلاف ما عليه الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم أجمعين. ومما يجب تقديمه الإيمان بأن محمداً عبده ورسوله ﷺ وأنه عبد لا يعبد ونبي لا يكذب بل يطاع ويتبع عليه الصلاة والسلام وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول وروح منه وأن الجنة حق والنار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ومن ذلك الإيمان بجميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون(١).

إن الداعي إلى الله إنسان عرف الله فآمن به وأحبه، وعرف دينه فرضي به واستمسك به وعرف رسوله ﷺ فآمن به وأحبه واتبعه فهو يطلب رضى الله في دعوته ويبتغي الزلفى لديه بحسن عبادته ويرى في الحرص على نشر دين الله وإصلاح عباده عز الدنيا وكرامة الآخرة. إنني لا أعني أنه معصوم من الخطأ ولكنه لا يصر عليه إذا تبين له. شأنه في ذلك شأن عباد الله المتقين الذين قال الله في حقهم: **﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾** [الأعراف: ٢٠١].

(١) انظر مفتاح دار السعادة: (١/١٩٤).

ولا أعني أنه لا يدعو إلى الله إلا أهل العلم دون العامة من المسلمين لأن المهمة أعظم من أن تستطيعها هذه الطائفة من المسلمين ولكن ليَدْعُ كل بحسب حاله على أن يصدروا عن العلماء وينهوا إليهم ما أشكل عليهم «فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»(١)، وقد قال الله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً**﴾ [الكهف:٣٠].

إن الدعوة إلى الله تعالى لا تعني الفساد في الأرض بل هي ضده، ولا زعزعة الأمن بل تمكينه وتثبيته لأنها دعوة إلى الإيمان بالله ورسوله ﷺ وما أنزل عليه من الكتاب والحكمة والله يقول: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام:٨٢] وقال ﷺ: «والله لَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه»(٢) فربط تمام الأمن بتمام هذا الأمر وهو الدين. وقد وقع ما أخبر به ﷺ. وفي هذا العصر تشتد الحاجة للدعوة إلى الله لكثرة ما يتوارد على المسلمين من أنواع التضليل ووسائل الصد المختلفة تستهدف إقصاء الدين عن حياة المسلمين، وإقصاء المسلمين عن حياة الصالحين. بحيث لا يبقى من الدين إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه ﴿**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [يوسف:٢١] وقد جعل الله للحق سمة وللباطل سمة لئلا يلتبس الحق بالباطل، قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ**﴾ [الأنعام:٥٥] فرأيت أن أجمع ما تيسر لي من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما يتحقق به هذا الغرض ويظهر به الحق على الباطل لأن الباطل إذا عرف هجر؛ ولأن مثل ذلك يكشف النقاب عن دعاة

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

الضلالة وليُعْلَمَ أن الدعاة إلى الله لهم طريق مشروع وعلم مرفوع وقدوة متبعة يصدرون عنها، ويردون إليها ما خفي عليهم في جميع أمورهم وأحوالهم، وليستأنس بها أهل هذا الطريق ممن يحب الخير للناس ويسعى في إيصاله إليهم.

وقد حاولت سلوك سبيل السلف الصالح من علماء هذه الأمة في وضع التراجم وإيراد النصوص متبعاً كل نص بما يوضحه ومردفاً كل فصل بالمسائل المستفادة منه، وجعلته بابين:

الباب الأول : في دعاة الهدى وبيان دعوتهم.

الباب الثاني : في دعاة الضلالة وبيان دعوتهم.

وسميته : «منهاج النبوة في الدعوة إلى الله».

فأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به عباده، وأن يطرح له القبول في العالمين. فلا إله إلاّ هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

* * *

الباب الأول

في دعاة الهدى وبيان دعوتهم

المبحث الأول

الدعاة صنفان، دعاة هدى ودعاة ضلالة

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾﴾ [غافر:٣٨-٤١].

دلت هذه الآيات على أن من الدعاة من دعوته دعوة هدى ورشاد ونجاة من النار، ومن دعوته دعوة ضلالة وغواية من الشرك بالله تعالى وتعدي حدوده، وهي الدعوة إلى النار.

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**»(١) ولا يكون إماما إلا إذا كان داعية مقتدى به فيما يدعو إليه أو يسعى إلى أن يكون كذلك. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ﴾ [القصص:٤١] وقال في شأن أئمة الهدى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:٧٣].

---

(١) رواه الترمذي بسند صحيح.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريباً من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله»(١) أي يقول أوحي إلي ولم يوح إليه بشيء ، والمعنى أنهم يهدون الناس بغير أمر الله ويزعمون أنهم يهدون بأمره ، فهم دعاة ضلالة.

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا »(٢) ، فبين أن من الناس من يدعو إلى هدى ، ومنهم من يدعو إلى ضلالة.

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت : يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : «نعم». قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال : «نعم وفيه دخن»(٣). قلت وما دخنه ؟ قال : قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر». قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال : «نعم»، دعاة على أبواب جهنم(٤) من أجابهم إليها قذفوه فيها». قلت : يا رسول الله صفهم لنا. قال : «هم من جلدتنا(٥) ويتكلمون بألسنتنا». قلت : فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال : «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم». قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : «فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) دخن : قال الحافظ بن حجر : هو الحقد ، وقيل : الدغل ، وقيل : فساد في القلب ومعنى الثلاثة متقارب.

(٤) دعاة على أبواب جهنم : أطلق عليهم ذلك باعتبار ما يؤول إليه حالهم قاله الحافظ أيضا.

(٥) من جلدتنا : أي قومنا ومن أهل لساننا وملتنا وفيه إشارة إلى أنهم من العرب قاله الحافظ أيضا.

شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»[1]. فبين ﷺ أن وجود قوم يهدون بغير هديه أوقع دخناً في ذلك الخير، وأن وجود دعاة على أبواب جهنم وهم الذين يصطادون الناس بالشهوات والشبهات شر عظيم يعقب ذلك الخير، وبان[2] من ذلك كله أن من الناس دعاة خير ومنهم دعاة شر وضلالة ، فدعاة الخير يهدون الناس بأمر الله ودعاة الضلالة على خلاف أمره.

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل:

الأولى: أن الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى النجاة من النار لقول العبد المؤمن : **﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾** وقال تعالى : **﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾** وهي الدعوة إلى توحيد الله والانقياد له.

الثانية : أن الدعوة إلى الشرك بالله هي دعوة إلى النار، لأنها مآل المشركين ولهذا قال العبد المؤمن **﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾**.

الثالثة : خوف النبي ﷺ على أمته من الأئمة المضلين وأنهم دعاة ضلالة مقتدًى بهم فيها .

الرابعة : وصف من يدعي النبوة بعد رسول الله ﷺ بأنه (دجال كذاب) وبيان عددهم ، وأنه لا نبي بعده ﷺ .

الخامسة : عظم ثواب من دعا إلى الهدى، وجرم من دعا إلى الضلالة.

السادسة : أن الناس قبل الإسلام كانوا في جاهلية وشر من الكفر بالله والقتل والنهب وإتيان الفواحش لقول حذيفة : (كنا في جاهلية وشر) وقد أقره النبي ﷺ على ذلك.

---

(١) متفق عليه.

(٢) أي تبين ووضح.

السابعة : تَحَوُّلِ أمر الناس بالإسلام إلى الخير من الإيمان بالله ورسوله والأمن وصلاح الحال واجتناب الفواحش لقول حذيفة : (فجاءنا الله بهذا الخير) وقد أقره النبي ﷺ على ذلك .

الثامنة : الإخبار بوقوع الشر في هذه الأمة لقول حذيفة : (فهل بعد هذا الخير من شر ؟) وجواب النبي ﷺ بقوله : « نعم » .

التاسعة : الإخبار بوقوع دخن في الخير الثاني لوجود دعاة يهدون الناس بغير هدي رسول الله ﷺ ففيه تنبيه على أن الخير والهدى متلازمان وأن من يهدي الناس بغير هدي رسول الله فقد لبس عليهم أمر الحق والهدى وفي ذلك شر عظيم .

العاشرة : عظم الشر الثاني وشدة بلائه لوجود دعاة على أبواب جهنم يدعون الناس إليها .

الحادية عشرة : وصف هؤلاء الدعاة وأنهم « من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا » وهذا فيه زيادة تهويل وتحذير من شرهم لما في ذلك من التغرير والمكر بالمسلمين .

* * *

المبحث الثاني

أن من هدي النبيين عليهم الصلاة والسلام تقديم الدعوة إلى توحيد الله تعالى والاهتمام به وأنه أول الواجبات

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥] أخبر تعالى أنه أوحى إلى جميع رسله أنه لا إله إلاّ هو، وأنه أمرهم بأن يعبدوه وحده لا شريك له وقد رتب أمره هذا على خبره بأنه لا إله إلاّ هو بحرف (الفاء) التعليلية ليعلم العباد أن تحقيق هذه الكلمة إنما يتم بإخلاص العبادة لله وحده.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل:٣٦].

الطاغوت: كل ما عُبِدَ من دون الله. وما جاء في هذه الآية هو تحقيق كلمة (لا إله إلاّ الله) فإنها مكونة من نفي (لا إله) وإثبات (إلاّ الله) فهي بمعنى لا معبود بحق إلاّ الله وما جاء في هذه الآية مكون من أمرين أحدهما أمر بفعل فهو بمنزلة الإثبات في كلمة الإخلاص والثاني أمر بترك فهو بمنزلة النفي فيها فبالأول يتحقق ما أثبتته وبالثاني يتحقق ما نفته[1] فعلم من هاتين الآيتين أهمية التوحيد وعظم مكانته عند الله عز وجل.

---

(١) يعني كلمة الإخلاص وهي لاإله إلا الله

قال ابن كثير – رحمه الله – : (فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضاً ، والمشركون لا برهان لهم . وحجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد)(١) .

وقال تعالى: ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود:١، ٢] أخبر تعالى عن كتابه الذي هو القرآن أنه أحكم آياته وفصلها بحيث تشمل جميع مصالح عباده الدينية والدنيوية، فأمر ونهى، ووعد وتوعّد، وأنذر وبشّر ، وضرب الأمثال وأتى بالعبر، وقص القصص وقسم البشر، فهذا مؤمن، وذاك منافق، وذا قد كفر، وكلٌّ هذا وغيره(٢) من أجل أن يعبدوا الله وحده لا شريك له وأن يقيموا هذه العبادة على علم وبصيرة ويكون تحقيقهم لكلمة الإخلاص على أكمل وجه وأتمه فعلم بهذا أن الدين كله مبني على التوحيد لا سيما وقد أكد هذا بقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ سبحانه وتعالى.

قال ابن كثير – رحمه الله – : « أي نزَّل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له »(٣) وقد أخبر الله تعالى أن نوحاً وهوداً وصالحاً وشعيباً عليهم الصلاة والسلام كل منهم: ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:٢٣] وقال تعالى : ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٦ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:١٦-١٧] .

---

(١) تفسير ابن كثير : (٣/١٧٦).

(٢) حذف الأصل (مما ورد فيه).

تم حذف جملة [وكل هذا وغيره مماورد فيه] ليتضح المعنى وتستقيم العبارة .

(٣) تفسير ابن كثير : (٢/٤٣٥).

وقال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

وقال تعالى في شأن موسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:١٣-١٤].

وقال تعالى في شأن لقمان وهو يعظ ابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] وقال تعالى لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد:١٩] وهو صريح مفهوم الآية الأولى فكما أوحى إلى جميع الرسل أنه لا إله إلاّ هو أوحى إلى نبيه ورسوله محمد ﷺ بذلك.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان»(١).

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحق الإسلام وحسابهم على الله»(٢).

يستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: عظم أهمية التوحيد وأن الله بعث جميع الرسل للدعوة إليه والنهى عن ضده وهو الشرك.

الثانية: أن الله ما أنزل القرآن محكماً مفصلاً إلاّ من أجل عبادة الله وحده.

---

(١) متفق عليه. فقدم التوحيد

(٢) متفق عليه. فقدم التوحيد

الثالثة : أن الدعوة إلى توحيد الله هي أول دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

الرابعة : أن الواجب أن يعبد الله وحده دون سواه لأنه الخالق الرازق وإليه المرجع.

الخامسة : الرد على النصارى في اعتقادهم ألوهية عيسى وبيان أنه عبد الله ورسوله.

السادسة : الرد على اليهود في اعتقادهم ألوهية العزير وزعمهم أنهم على دين موسى وما أرسل موسى إلاّ بالتوحيد.

السابعة : أن التوحيد أساس هذا الدين فالعلم به والاستقامة عليه منهاج الأنبياء عليهم السلام.

الثامنة : أن الشرك ظلم عظيم.

التاسعة : أن تحقيق كلمة الإخلاص يكون بعبادة الله وحده لا شريك له.

العاشرة : بيان أركان الإسلام وأن التوحيد أول هذه الأركان.

الحادية عشرة : بيان أن الدخول في هذا الدين إنما يكون بالتوحيد (أن يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله).

* * *

المبحث الثالث

فضل من دعا إلى الله عز وجل وعظم ثوابه

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣] قال الشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن سعدي – رحمه الله – : «هذا استفهام بمعنى النفي المتقرر أي لا أحد أحسن قولاً أي كلامًا وطريقة وحالة (مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ) بتعليم الجاهلين ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين بالأمر بعبادة الله بجميع أنواعها والحث عليها وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه خصوصًا [من هذه][(١)] الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤] قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما وغيره: «أئمة يقتدى بنا في الخير»[(٣)] لينالوا مثل ثوابهم قال ابن كثير وقال غيرهم: «هداة مهتدين دعاة إلى الخير فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم، وأن يكون هداهم متعديًا إلى غيرهم بالنفع وذلك أكثر ثوابًا وأحسن مآبًا»[(٤)].

---

(١) ما بين المعكوفين يظهر أنها زائدة وان الأصل ((خصوصاً الدعوة إلى أصل دين الإسلام .....الخ).

(٢) تفسير ابن سعدي: (٥٧٥/٦).

(٣) تفسير ابن كثير: (٣٣٠/٣).

(٤) المرجع نفسه.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾

[الأحزاب: ٧٠-٧١]

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ [النساء:١٢٥]. قال ابن كثير – رحمه الله –: «أي أخلص العمل لربه عز وجل فعمل إيمانًا واحتسابًا ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي اتبع في عمله ما شرعه الله له وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق. وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما، أي يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون متابعاً للشريعة فيصح ظاهره بالمتابعة، وباطنه بالإخلاص فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد. فمن فقد الإخلاص كان منافقاً وهم الذين يراءون الناس. ومن فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً ومتى جمعهما كان عمل المؤمنين الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ وهم «محمد وأتباعه إلى يوم القيامة»، قال: «والحنيف هو المائل عن الشرك قصداً أي تاركاً له عن بصيرة، ومقبل على الحق بكليته لا يصده عنه صاد ولا يرده عنه راد»(١) وملة إبراهيم هي توحيد الله والدعوة إليه والبراءة من الشرك وأهله.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: «الحنيفية: هي الاستقامة بإخلاص الدين لله وذلك يتضمن حبه تعالى والذل له لا يُشرَك به شيء لا في الحب ولا في الذل، فإن العبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل وذلك لا يستحقه إلا الله وحده وكذلك الخشية والتقوى لله وحده والتوكل على الله وحده»(٢) فتأمل

(١) تفسير ابن كثير: (١/٥٥٩).

(٢) مجموعة الفتاوى (١٠/٤٦٦).

هذا المعنى مع قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الممتحنة:٤].

وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم:٧٦] وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الحج:٥٠] ولا شك أن من دعا إلى الله على بصيرة مخلصاً لله في دعوته داخل في هذا الوعد لأنهم مهتدون وعملهم هذا عمل صالح بل من أفضل الأعمال الصالحة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به، أو صدقة جارية» رواه مسلم. والدعوة إلى الله من باب تعليم العلم النافع.

وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا يَنْقُصُ من أجورهم شيء. ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا يَنْقُصُ من أوزارهم شيء» رواه مسلم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا يَنْقُصُ ذلك من أجورهم شيئًا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا يَنْقُصُ ذلك من آثامهم شيئًا». رواه مسلم. قال النووي – رحمه الله –: «هذان الحديثان صريحان في الحث على استحباب سن الأمور الحسنة وتحريم سن الأمور السيئة، وأن من سن سنة حسنة كان له مثل أجر كل من يعمل بها إلى يوم القيامة وأن من سن سنة سيئة كان عليه مثل وزر من يعمل بها إلى يوم القيامة وأن من دعا إلى هدى كان له مثل أجور متابعيه، أو إلى الضلالة كان عليه مثل آثام متابعيه سواء كان ذلك الهدى هو الذي ابتدأه أم كان مسبوقًا إليه، وسواء

كان ذلك بتعليم علم أو عبادة أو أي أدب أو غير ذلك »[١] ، وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : « من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة »[٢] .

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى: فضل من دعا إلى الله تعالى وأنه لا أحد أحسن قولاً منه وتفسير ذلك .

الثانية: فضل الدعوة إلى الله ، وبيان أهمية العمل الصالح لمن دعا إلى الله تعالى .

الثالثة: فضل من جمع بين الدعوة إلى الله والعمل الصالح والانتماء إلى المسلمين الذين أسلموا لله بالتوحيد وانقادوا له بالطاعة وخلصوا من الشرك .

الرابعة: فضل رسول الله ﷺ ، فهو إمام كل داع إلى الله تعالى على بصيرة ، ولهذا كان الحسن البصري – رحمه الله – إذا تلا هذه الآية **﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾** يقول : « هذا رسول الله ، هذا حبيب الله ، هذا ولي الله هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا – والله – أحب أهل الأرض إلى الله وأجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحاً في إجابته وقال إنني من المسلمين ، هذا خليفة الله »[٣] .

الخامسة: في هذه الآية أيضا معنى قوله تعالى: **﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾** لقوله : **﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾** لأن العمل إذا وافق القول كان تصديقاً .

السادسة: فضل الإمامة في الدين وأن أهلها هم الهداة المهتدون ففيها معنى قوله تعالى : **﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾** .

---

(١) شرح صحيح مسلم للإمام النووي : (١٦/٢٢٦) .

(٢) تفسير ابن كثير : (١/١٦٤) .

(٣) تفسير ابن كثير : (٤/١٠١) .

السابعة : شفقة أهل التقوى على أزواجهم وذرياتهم وحرصهم عليهم وأنه بصلاحهم تقر عيونهم.

الثامنة: حرص دعاة الخير والهدى على استمرار الخير فيمن بعدهم وما ذلك إلا لعلمهم بالله وما يقرب إليه من الطاعات من واجبات ومستحبات من أفعال ومتروكات ولم يكن علمهم هذا مأخوذاً من غير شرع الله لأنه وحده (المرجع في القرب والطاعات والديانات والمستحبات)[1].

التاسعة: أن الإخلاص والمتابعة شرطان في صحة العمل ومنه الدعوة إلى الله تعالى.

العاشرة: بيان المراد بملة إبراهيم وإيضاح معنى الحنيف.

الحادية عشرة: بشارة من دعا إلى الله على بصيرة بزيادة الهدى وهو من الثواب العاجل الذي ينبني عليه زيادة العمل الصالح فيعظم به ثواب الآخرة.

الثانية عشرة : أن الإيمان والعمل الصالح ومنه الدعوة إلى الله من أسباب مغفرة الذنوب والرزق الكريم.

الثالثة عشرة : أن الدعوة إلى الله من العلم النافع الذي يُنْتَفَعُ به بعد الموت فهي من العمل الذي لا ينقطع ثوابه بالموت فتدخل في قوله «أو علم ينتفع به» وتدخل بعض صورها في قوله «من سن سنة حسنة».

* * *

(١) الاستقامة : (١/٢٤٨).

المبحث الرابع

أن الدعوة إلى الله تعالى من لوازم عموم رسالة النبي ﷺ إقامةً للحجة وبياناً للمَحَجة وكشفاً لشبه الزائغين ورداً لكيد الكائدين

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨].

قال أبو حيان الأندلسي – رحمه الله –: «أمر الله نبيه بإشهار دعوته ورسالته إلى الناس كافة والدعاء إلى الإيمان بالله ورسوله وكلماته واتباعه. ودعوة رسوله ﷺ للإنس والجن قاله الحسن وتقتضيه الأحاديث»(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ [سبأ:٢٨].

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي – رحمه الله –: «يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله إلاّ ليبشر جميع الناس بثواب الله ويخبرهم بالأعمال الموجبة لذلك وينذرهم عقاب الله ويخبرهم بالأعمال الموجبة له، فليس لك من الأمر شيء وكل ما اقترح أهل التكذيب والعناد فليس من وظيفتك إنما ذلك بيد الله تعالى»(٢).

(١) البحر المحيط: (٤/٤٠٥).

(٢) تفسير ابن سعدي: (٦/٢٨٢).

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

قال ابن كثير – رحمه الله – : «فهذه الآية نص على أنه لا نبي بعده وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأحرى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة فإن كل رسول نبي ولا ينعكس وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة»(١).

وقال تعالى: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

قال ابن كثير – رحمه الله – : «في أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه لئلا يبقى لمعتذر عذر»(٢).

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦–٢٨].

قال القرطبي – رحمه الله – : «أي ليبين لكم أمر دينكم ومصالح أمركم وما يحل لكم وما يحرم عليكم وذلك يدل على امتناع خلو واقعه عن حكم الله تعالى»(٣).

قال ابن كثير – رحمه الله – : «يخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم ما أحل لكم وما حرم عليكم مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها: ﴿يَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/٤٩٣).

(٢) تفسير ابن كثير: (١/١٨٨).

(٣) القرطبي: (٥/١٤٧).

﴿قَبْلِكُمْ﴾ يعني طرائقهم الحميدة واتباعهم شرائعه التي يحبها ويرضاها ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي من الإثم والمحارم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله. وقوله: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾ أي يريد أتْباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة أن تميلوا عن الحق إلى الباطل ميلاً عظيماً ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ أي في شرائعه وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم ولهذا أباح الإماء بشروط كما قال مجاهد وغيره: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه وضعف عزمه وهمته»(١).

وفي حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» متفق عليه.

وفي حديث أنس رضي الله عنه في الإسراء قال ﷺ: «ففرض الله على أمتي خمسين صلاة فرجعت بذلك حتى مررت على موسى فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة قال فارجع فإن أمتك لا تطيق ذلك فراجع فوضع شطرها». متفق عليه. وعند البخاري في كتاب «التوحيد»: «فقال: يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً فارجع فليخفف عنك ربك». وفيه فرفعه عند الخامسة فقال: «يا رب أمتي ضعفاء، أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم فخفف عنا». فقال الجبار: يا محمد. قال: «لبيك وسعديك». قال: إنه لا يبدل القول لدي كما فرضت عليك في أم الكتاب. قال: فكل حسنة بعشر أمثالها فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك».

وعن أنس رضي الله عنه: لا يأتي عليكم زمان إلاّ والذي بعده شر منه؛ حتى تلقوا ربكم سمعته من نبيكم. رواه البخاري.

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤٧٩/١).

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رءوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » . متفق عليه .

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل من أجل ذلك مدح نفسه وليس أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش وليس أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل » . متفق عليه واللفظ لمسلم .

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » وفي رواية « أفضلكم » . رواه البخاري .

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى : الأمر بإشهار رسالته ﷺ للناس جميعاً وقد قام النبي ﷺ بهذا الأمر فأعلن ذلك في مجامع الناس على اختلاف أديانهم من يهود ونصارى ومشركين وعن طريق كتبه للملوك والرؤساء وقال للناس : « ليبلغ الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع » . وقال : « بلغوا عني ولو آية » . فدخل في ذلك الدعوة إلى الله تعالى .

الثانية : الإخبار بأن رسالة النبي ﷺ لكافة الناس عربهم وعجمهم سواء أكانوا من أهل الكتاب أم لا . يستوي في هذا من كان في عهده ومن جاء بعده إلى يوم القيامة ويتضمن لفظ البشارة والنذارة بيان ما يبشر به من الأعمال والأقوال والمعتقدات وما ينذر عنه من ذلك فدخل في ذلك الدعوة إلى الله تعالى . ففيها معنى قوله تعالى : ﴿ **وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ**

مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم:٤٤-٤٥] ، وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:١٧-١٨] .

الثالثة : أن رسول الله ﷺ خاتم النبيين فلا نبي بعده عليه الصلاة والسلام وإذا كان كذلك فلا بد ممن يحمل رسالته إلى يوم القيامة ولن يحملها على وجهها الصحيح سوى ورثته من أهل العلم بالذكر الحكيم والسنة المطهرة ومن هذا قوله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : «**ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ إلاّ أنه ليس نبي بعدي**» .متفق عليه . وقوله ﷺ : «**إن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر**» . رواه الترمذي وابن ماجه .

الرابعة : أن الله إنما أرسل رسله وأنزل كتبه قطعاً للمعاذير وإقامة للحجة ولا يتأتى ذلك إلاّ باستمرار الدعوة إلى الله على منهاج رسل الله عليهم الصلاة والسلام ففيها معنى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧] وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:١٠] فأي عذر يكون لمن أهمل هذا الكتاب عملاً به ودعوة إليه بعد هذا البيان .

الخامسة : رحمة الله تعالى بهذه الأمة حيث بين لها ما يحل وما يحرم وأرشدها لسنن الصالحين من أتباع الأنبياء وحذرها من أتباع الشياطين من اليهود والنصارى وذوي الفواحش وأخبرها بمقاصدهم وبين أنه يريد أن يتوب عليها من المآثم والمحارم وأخبر أنه راعى ضعفها فيما شرع من شرائع فخفف عنها فلزم من هذا

نشر ما أراد الله بها من إيضاح الحلال والحرام في العقائد والمعاملات والأخلاق والتحذير ممن حذر منهم حتى تعم هذه الرحمة كافة الناس ففيها معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١١٠].

السادسة: في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾.

السابعة: في حديث أنس رضي الله عنه في الإسراء معنى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾.

الثامنة: أن الحاجة للدعوة إلى الله تعالى تشتد كلما تباعد العهد من النبوة لحديث: «**لا يأتي عليكم زمان إلاّ الذي بعده شر منه**»(١).

التاسعة: فضل أهل العلم وأن وجودهم أمان من الضلال بإذن الله تعالى ولا يكونون كذلك إلاّ إذا قاموا بواجب الدعوة إلى الله تعالى(٢).

العاشرة: إثبات صفة الغيرة لله تعالى على الوجه الذي يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه وفيها التحذير من الفواحش وأنه تعالى يحب المدح ويحب العذر وأن من مقاصد شرعه بيان الطريق لرجوع عباده إليه ففيه معنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ومعلوم أن ذلك يتوقف على نشر دينه وتبيينه للناس فيدخل فيه الدعوة إلى الله تعالى.

الحادية عشرة: فضل من تعلم القرآن وعلمه وأنه خير هذه الأمة وأفضلها ولا شك أن ذلك من قواعد الدعوة إلى الله في كل مكان وزمان. وعلى ذلك دأب السلف الصالح رحمة الله عليهم أجمعين.

(١) وكلما زاد الشر زادت الحاجة إلى الإسلام واشتدت الحاجة إلى الدعوة إلى الله.

(٢) وفي هذا تأكيد لواجب تعليم العلم الشرعي ونشره بين الناس حتى لا ينقطع هذا الخير بموت حملته، لأنه لا يحصل هذا إلا إذا أعرض الناس عن تعلم العلم الشرعي من أهله فإذا ماتوا لم يكن لهم وارث في العلم والعمل وحينئذ يتصدر لهذا الأمر العظيم الجهلة من الناس فيفتون الناس بغير علم فيَضلون ويُضلون.

المبحث الخامس

أن دعاة الهدى على صراط مستقيم

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون:٧٣] بين سبحانه أنه يدعو الناس إلى صراط مستقيم، وهو ما جاء به من عند الله من الهدى والنور وهو الإسلام كما قال أبو العالية: «عليكم بالصراط المستقيم فإنه الإسلام»(١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٦١] بين تعالى أن رسول الله ﷺ على صراط مستقيم وأنه هو الذي هداه إليه؛ لأنه ربه ولا رب له سواه، وأن هذا الصراط الذي هدى نبيه إليه دين قيم، وأن إبراهيم عليه السلام كان على ذلك ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ومن اتبع النبي ﷺ في دعوته هم على هذا الصراط في دعوتهم وفي أنفسهم. وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤] والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الصراط المستقيم، فتبين بهذا أن دعاة الهدى هم الدعاة إلى الخير وهكذا أنبياء الله وأتباعهم وقد جمع الله لهم الخير فيما أعطاهم من الهدى ولهذا جاء في معنى الخير أنه الكتاب والسنة(٢) وما ذلك إلا لانحصار الخير في اتباعهما وهما الصراط المستقيم وإنما يدعون إلى الخير لأنهم من أهله ولهذا أفلحوا فلو لم يكونوا كذلك ما وصلوا إلى هذه النتيجة. وقال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٥٧]

---

(١) الاستقامة: (١/٢٥٤).

(٢) تفسير ابن كثير: (١/٣٩٠).

فوصف الله دعوة رسوله ﷺ بأنها دعوة إلى الهدى وما كان لدعوة الهدى أن ترد لولا أن الله قد طبع على قلوبهم بما كسبوا.

قال أبو حيان الأندلسي -رحمه الله- وهذا من العام المراد به الخصوص وهو من طبع الله على قلبه وقضى عليه بالموافاة على الكفر إذ قد اهتدى كثير من الكفرة(١).

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم، أمرهم من الأعمال بما يطيقون. قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول : «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**»(٢) فتبين بهذا أن أهل الهدى أهل تيسير ورحمة وبر وتقوى لله تعالى وعلم به سبحانه وهذا هو الصراط المستقيم بخلاف دعاة الضلالة. وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن بعض المشايخ أنه إذا أمر بعض متبعيه بالتوبة وأحب أن لا ينفر ولا يشعب قلبه أمره بالصدق(٣) وذلك لأن الصدق يهدي إلى البر كما صح بذلك الخبر عن رسول الله ﷺ وقال مسروق : «**ما نسأل أصحاب محمد عن شيء إلا وعلمه في القرآن ولكن علمنا قصر عنه**»(٤).

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى : أن دعوة النبي ﷺ إلى صراط مستقيم أي طريق لا عوج فيه وهو الإسلام.

(١) البحر المحيط : (٦/١٤٠).
(٢) رواه البخاري.
(٣) مجموع الفتاوى : (١٠/١١).
(٤) درء تعارض العقل والنقل : (١/٢٠٨).

الثانيــة : أن الرسول ﷺ على صراط مستقيم في أقواله وأعماله وعقيدته وحركته وسكونه لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ .

الثـالثـة : أن الصراط الذي هدي إليه رسول الله ﷺ هو الدين القيم لقوله تعالى : ﴿ **دِينًا قِيَمًا** ﴾ أي قيماً .

الرابعــة : أن إبراهيم عليه السلام على مثل ذلك لقوله تعالى : ﴿ **مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ .

الخامسة : أن هذا الصراط هو التوحيد لقوله : ﴿ **حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ .

السادسة : أن الإسلام يدعو إلى الخير وهو الهدى والنور وبه يأمر أتباعه عملاً به ودعوة إليه ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ** ﴾ .

السابعة : أن الخير كله في اتباع الكتاب والسنة وهو الإسلام وشرائعه التي شرعها الله لعباده لتفسير السلف معنى الخير بذلك ومن تأمل فيما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في الأمور المحمودة والمذمومة شرعاً سهل عليه إدراك ذلك إن شاء الله تعالى فإنه قال : (والأمور المذمومة في الشريعة ... هو ما ترجح فساده على صلاحه كما أن الأمور المحمودة ما ترجح صلاحه على فساده فالحسنات تُغَلّب فيها المصالح والسيئات تغلب فيها المفاسد)[1] فإن هذا الميزان لا تكاد تخرج عنه مسألة من مسائل الدين والدنيا .

الثامنة : الاهتمام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حيث نبه عليه مع كونه داخلاً في معنى الخير.

التاسعة : فضل دعاة الخير وأنهم ﴿ **الْمُفْلِحُونَ** ﴾ في الدنيا والآخرة لعموم هذا اللفظ .

---

(١) الاستقامة : (١/٤٦١).

العاشرة : أنه لا يمتنع من دعوة الإسلام إلا من طبع الله على قلبه وفي ذلك تحريض على الدعوة إلى الله لأنه لا يعلم من طبع على قلبه إلا الله فليس كل من امتنع من قبول الحق في وقت مطبوعاً على قلبه مختوماً له بالشقاء .

الحادية عشرة : سماحة دين الإسلام ويسر تعاليمه حيث لا يؤمر أحد إلا بما يطيق ففيه معنى الحديث الآخر : «**عليكم من الأعمال بما تطيقون**» .

الثانية عشرة : غضبه ﷺ حين قيل له : «إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله . . .الخ»، منبهاً إلى مسألة عظيمة وهي أن العبد كلما كان بالله أعلم كان له أشد خشية ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ وكان أحرص على اتباع سبيل الهدى .

الثالثة عشرة : أن رسول الله ﷺ أعلم هذه الأمة بالله وأتقاها له سبحانه وتعالى . ففيه تنبيه على ضلال غلاة الصوفية حيث يرون سقوط التكاليف عن العارف بالله[١] وفيه تأويل قوله تعالى : ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾ [الأحزاب:٢١] حيث دل الحديث على لزوم المتابعة وهو كالتعليل لهذه الآية الكريمة .

الرابعة عشرة : فيه تنبيه على ضلال من يدعي الهدى مع مجانبته لهدي الكتاب والسنة لقول الصحابة : إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله. وما رد به رسول الله ﷺ ، فإنهم قالوا ذلك حين تقالّوا عبادة رسول الله ﷺ وظنوا أن السبب كون الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فأخبرهم أنه أعلمهم بالله وأتقاهم له منبهاً بذلك إلى ضرورة متابعته في هديه وأن ما يعمله هو ما شرعه الله له ففيه معنى قوله ﷺ : «**من رغب عن سنتي فليس مني**» ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : «كل علم دين لا يطلب من القرآن فهو ضلال»[٢]. وقال :

---

(١) انظر مجموع الفتاوى : (٦٠٥-٦٠٧/ ١١).

(٢) الاستقامة : (٢١/ ١).

كانوا – أي الصحابة والتابعون – يجعلون القرآن يحيط بكل ما يطلب من علم الدين[1].

وقال الشعبي : «ما ابتدع قوم بدعة إلاّ في كتاب الله بيانها»[2] وفي الحديث: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنتي».

* * *

(١) درء تعارض العقل والنقل : (١/٢٠٨).

(٢) نفس المرجع.

المبحث السادس

في بيان منهج النبوة في الدعوة إلى الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٥٢] قال الشيخ ابن سعدي – رحمه الله – : (أي ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح بالحكمة أي كل أحد على حسب حاله وفهمه وقبوله وانقياده... فإن انقاد بالحكمة وإلا فينتقل معه إلى الدعوة بالموعظة الحسنة وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها. وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به. وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل، وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق أو كان داعية إلى الباطل فيجادل بالتي هي أحسن؛ وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً، ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها فإنه أقرب إلى حصول المقصود وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها[١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] وهذه الآية كالتعليل للآية السابقة والمعنى أنه عليه الصلاة والسلام إنما أمر بالدعوة بهذه الصفة لأنه أرسل رحمة للعالمين.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (٢٥٤، ٢٥٥/٤).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان محمد ﷺ رحمة لجميع الناس فمن آمن به وصدق به سعد، ومن لم يؤمن به سلم مما لحق الأمم من الخسف والغرق(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : «والله بعث محمداً بالكتاب والحكمة وجعله رحمة للعباد وهادياً لهم يأمر كل إنسان بما هو أصلح له»(٢) ووجه ـ رحمه الله ـ إلى أن على كل أحد أن يأتي من طاعة الله ورسوله بما استطاعه(٣).

وقال – رحمه الله – : «فما يقدر عليه من العبادات أفضل في حقه مما يعجز عنه وإن كان جنس المعجوز عنه أفضل»(٤).

وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : «ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يرخص لهم في معاصي الله ولم يؤمنهم مكر الله»(٥).

وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال : (بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم) [متفق عليه]. ومن النصح أن تدعوه إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة... إلخ وعن زياد بن علاقة قال : (سمعت جرير بن عبدالله يقول يوم مات المغيرة بن شعبة قام فحمد الله وأثنى عليه وقال: عليكم باتقاء الله وحده لا شريك له والوقار والسكينة حتى يأتيكم أمير فإنما يأتيكم الآن. ثم قال: استعفوا لأميركم فإنه كان يحب العفو(*). ثم قال : أما بعد فإني أتيت

(١) تفسير القرطبي : (٣٥٠ / ١١).
(٢) مجموع الفتاوى : (٤٢٨ / ١٠).
(٣) المصدر نفسه : (٤٣٣،٤٣٤ / ١٤).
(٤) المصدر نفسه : (٤٢٨ / ١٠).
(٥) تذكرة الحفاظ : (١٣ / ١).
*كان المغيرة واليا على الكوفة في خلافة معاوية بن أبي سفيان وكانت وفاته سنة خمسين من الهجرة النبوية.

النبي (قلت أبايعك على الإسلام فشرط عليّ، والنصح لكل مسلم «فبايعته على هذا». ورب هذا المسجد إني لناصح لكم ثم استغفر ونزل). [رواه البخارى].

فدعاهم رضي الله عنه إلى جماع الخير وهو لزوم تقوى الله ونبههم على ما يعينهم في ساعتهم وهو لزوم الوقار والسكينة لئلاّ يتسلل إليهم شياطين الإنس والجن فيوقعوا الفتنة بينهم وأخبرهم أنما قاله لهم هو مقتضى النصح الذي بايع عليه رسول الله ﷺ مؤكداً ذلك بيمينه فقد استعمل ﷺ في مقامه هذا، الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولـى : بيان المنهج الصحيح للدعوة إلى الله وأنه الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

الثانية : بيان البصيرة التي وصفت بها دعوة النبي ﷺ وأنها الدعوة بالحكمة ...الخ.

الثالثة : وجوب التزام هذا المنهج في الدعوة إلى الله تعالى لأن الله أمر به والأمر ظاهر في الوجوب.

الرابعة : فضل رسالة النبي ﷺ وأنها رحمة للعالمين برهم وفاجرهم.

الخامسة : تأكيد هذا المنهج القويم بقيامه على قاعدة النصح لكل مسلم.

السادسة : التزام جرير بما بايع عليه رسول الله ﷺ يمثل أنموذجاً لهذا المنهج الدعوي الجليل.

السابعة : بيان الأصول التي يبنى عليها هذا المنهج النبوي وعلامة الفقه في الدين .

* * *

المبحث السابع

أن دعوة الهدى دعوة إلى الله وإلى سبيله

قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦] قال ابن سعدي ـ رحمه الله ـ: « هذه الأشياء التي وصف بها رسوله محمداً ﷺ هي المقصود من رسالته وزبدتها وأصولها التي اختص بها »(١) وقوله : ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ أي « داعياً الخلق إلى عبادة ربهم عن أمره »(٢) وقال تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل:١٢٥]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣].

وعن عطاء بن يسار ، قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً » . [رواه البخاري]

وعن عبد الله بن زيد بن عاصم قال : لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس وفي المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً فكأنهم وجدوا إذ لم

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : (٦/ ٢٣١).

(٢) تفسير ابن كثير : (٣/ ٤٩٧).

يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال ﷺ: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي، كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنّ، قال: «ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ». قالوا: الله ورسوله أمنّ. قال: «لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا. ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار إنكم ستلقون بعدي أثرةً فاصبروا حتى تلقوني على الحوض».

[رواه البخاري]

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل:

الأولى: بيان المهمة التي بعث من أجلها رسول الله ﷺ.

الثانية: وعد الله لنبيه بإظهار دينه على الدين كله.

الثالثة: التنبيه بقوله تعالى بِإِذنه أي بإذن الله تعالى لى أن كل من دعا إلى الله يجب أن يتقيد بشرعه ففيها معنى قوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد». [رواه مسلم]

الرابعة: أنَّ دعوة الهدى هي الدعوة إلى الله وإلى سبيله بإذنه ويكون ذلك بالمتابعة والاقتداء بالنبي ﷺ لقوله: **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾**.

الخامسة: مطابقة صفة النبي ﷺ التي في التوراة لصفته في القرآن، ففيه معنى قوله تعالى: **﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾**.

السادسة: ما في قوله ﷺ: «**ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي... الخ**» من تأويل الآية الكريمة الأولى ففيها معنى قول عائشة حين سئلت عن خلقه ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن» متفق عليه.

السابعة: حكمته ﷺ في تعامله مع المؤلفة قلوبهم ومعالجته لما نجم عن ذلك لدى الأنصار حتى تحول ما يعد محنة إلى منحة يغبطون عليها.

الثامنة: عظم شأن الهجرة عند الله تعالى، وعظم منزلة الأنصار عند رسول الله ﷺ.

* * *

المبحث الثامن

أن من دعوة الهدى استمساك من يدعو إلى الله بهداه الذي أنزله على رسوله ﷺ

قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٥] أي على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد بتسديد الله إياهم(١). وهم المتقون ويدخل فيهم الدعاة إلى الله على بصيرة دخولاً أوليًا.

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

وقال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٨-٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس:١٥].

---

(١) تفسير الطبري: (١/٢٤٩).

وقال تعالى : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨].

قال الشيخ ابن سعدي : يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿قُلْ﴾ للناس ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ أي طريقي التي أدعو إليها وهي السبيل الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ أي أحث الخلق والعباد على الوصول إلى ربهم وأرغبهم في ذلك وأرهبهم مما يبعدهم عنه ومع هذا فأنا ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ من ديني أي على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية ﴿أَنَا﴾ وكذلك ﴿مَنِ اتَّبَعَنِي﴾ يدعو إلى الله كما أدعو على بصيرة من أمره ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ عما ينسب إليه مما لا يليق بجلاله أو ينافي كماله ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في جميع أموري بل أعبد الله مخلصاً له الدين(١) ولا شك أن من سبيله الاستمساك بهدى الله الذي أنزله عليه كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥-٦٦].

وقوله تعالى : ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف:٤٣]

وقال تعالى : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] واليقين : الموت كما قال سالم بن عبدالله – رحمه الله –(٢).

قال ابن كثير – رحمه الله – : «ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم وهذا كفر وضلال وجهل فإن الأنبياء عليهم السلام وأصحابهم

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤/ ٦٣).

(٢) رواه البخاري في التفسير معلقا بصيغة الجزم.

أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته وما يستحقه من التعظيم وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة وإنما المراد باليقين ههنا الموت»[١].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٣-١١٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء:٤٥] وهو الحكمة وهي البصيرة كما تقدم بيانه.

عن عبدالله بن عباس – رضي لله عنهما – قال: إن وفد عبد القيس لما أتوا النبي ﷺ قال: «من القوم أو من الوفد؟». قالوا: ربيعة. قال: «مرحباً بالقوم – أو بالوفد – غير خزايا ولا ندامى». فقالوا: يا رسول الله إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة وسألوه عن الأشربة: فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع؛ أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: «أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس». ونهاهم عن أربع؛ عن الحنتم[٢]

---

(١) تفسير ابن كثير: (٢/٥٦٠).

(٢) والحنتم: هي الجرة ونقل الحافظ في الفتح عن الحربي أنه روى في الغريب عن عطاء: أنها كانت تعمل من طين وشعر ودم والمراد الانتباذ فيها، والدباء هو القرع والمراد الباب منه، والنقير: ما ينقر في أصل النخلة فيتخذ منه وعاء، والمزفت: ما طلي بالزفت، والمقير: ما طلي بالقار. وعن أبي بكرة قال: «وأما الدباء كان أهل الطائف يأخذون القرع فيخرطون فيه العنب ثم يدفنونه حتى يهدر ثم يموت، وأما النقير: كان أهل اليمامة ينقرون أصل النخلة ثم ينبذون الرطب والبسر ثم يدعونه حتى يهدر ثم يموت وأما الحنتم فجرار كانت تحمل إلينا فيها الخمر وأما المزفت فهذه الأوعية التي فيها الزفت» رواه أبو داود الطيالسي في مسنده وحسنه الحافظ في الفتح.

والدباء والنقير والمزفت وربما قال : المقير . وقال: «احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم» . متفق عليه . فانظر إلى قوله ﷺ : «احفظوهن . .إلخ» . مع قولهم : «فمرنا بأمر فصل . .إلخ» تجد الربط بين القول والعمل» .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنهم خرجوا مع رسول الله (في سفر فنزلوا رفقاء . رفقة مع فلان ورفقة مع فلان قال: فنزلت في رفقة أبي بكر وكان معنا أعرابي من أهل البادية فنزلنا بأهل بيت من الأعراب وفيهم امرأة حامل فقال لها الأعرابي : إني لأبشرك أن تلدي غلاماً إن أعطيتني شاة، ولدت غلاماً فأعطته شاة وسجع لها أساجيع قال: فذبح الشاة فلما جلس القوم يأكلون قال رجل: أتدرون ما هذه الشاة؟ فأخبرهم . قال: فرأيت أبا بكر متبرزاً مستقبلاً يتقيأ[1] فانظر هذا الفعل من أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنك تجد فيه صدق الاستمساك وقوة المتابعة للشرع وشدة الخوف من الله .

وقال أبو الدرداء : إنما أخاف أن يكون أول ما يسألني عنه ربي أن يقول: قد علمت فما عملت فيما علمت ؟[2] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : فمجرد علم القلب بالحق إن لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه مثل محبة القلب له واتباع القلب له لم ينفع صاحبه بل أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»[3] وقال : «ليس لله ولي إلاّ من اتبعه باطناً وظاهراً فصدقه فيما أخبر به من الغيوب والتزم طاعته فيما فرض على الخلق من أداء الواجبات وترك المحرمات»[4] .

---

(١) رواه أحمد في كتاب الصحابة بسند صحيح .

(٢) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي : (٤١) .

(٣) مجموع الفتاوى : (١٠/٢٧١) .

(٤) المصدر نفسه : (١٠/٤٣١) .

وعن مسروق قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقالت : تنهى عن الواصلة ؟ قال : نعم ، قالت : فعله بعض نسائك فقال : ما حفظت وصية العبد الصالح إذاً ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾[1].

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى : إن أهل التقوى هم أهل الاستقامة على هدى الله في الحياة الدنيا وهم المفلحون في الآخرة وأن من دعا إلى الله على بصيرة فهو منهم.

الثانية : إن استمساك الداعي إلى الله بالهدى الذي جاءه من عند الله في غاية الأهمية وتركه تنكب عن الصراط وخروج عن الرشاد الذي هو العمل بالحق وأنه لا يليق بالداعية أن يخالف ما يدعو إليه لأن ذلك ينقص دعوته ويسقط حجته ويعرضه للعقوبة .

الثالثة : أن الدعوة إلى الله سعي في الإصلاح بقدر الاستطاعة ففيه معنى قوله تعالى : ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾.

الرابعة : أن الدخول في ملة الكفر افتراء على الله وأشده وأعظمه جرماً أن يدخل فيها من كان داعياً إلى الله وإلى توحيده وطاعته .

الخامسة : بيان منهج دعوة النبي ﷺ وأنها الدعوة إلى الله على بصيرة .

السادسة : أن أتباع النبي ﷺ يدعون إلى الله على بصيرة أيضاً .

السابعة : وجوب تنزيه الله عما لا يليق به سبحانه .

الثامنة : أن من أهم صفات الداعية إلى الله ترك الشرك والبراءة من أهله .

التاسعة : وجوب متابعة النبي ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى .

العاشرة : أن الشرك بالله تعالى محبط للعمل موجب لغضب الله مهما كان عامله فليحذر الداعية إلى الله الوقوع في هذا الداء العضال .

---

(١) تفسير ابن كثير : (٢/٤٥٧٧).

الحادية عشرة: وجوب ملازمة طاعة الله وعبادته حتى الموت وأن القول بخلاف ذلك زندقة وإلحاد بل هو كفر وضلال وجهل.

الثانية عشرة: تحريم الاستغفار للمشركين ولو كانوا من ذوي القربى لأن ما هم عليه يناقض التوحيد الذي يدعو إليه والبراءة من الشرك وأهله واجبة.

الثالثة عشرة : أن النذارة تكون بالوحي لاعتمادها على الخبر وذلك لا يكون إلاَّ بالوحي لأنه من الغيب وكذلك البشارة فهما من باب الوعد والوعيد ومصدرهما الوحي والمقصود أن الدعوة إلى الله لا بد فيها من التزام الوحي فيحذر الداعية أن يحمله اجتهاده على مخالفة الوحي وليأخذ من الأسباب والوسائل ما يندرج تحته دون ما يعارضه فليس في منهج الله كون الغاية تبرر الوسيلة وما يتوهم وجوده فيه فليس منه وإنما هو من باب تغليب المصالح أو تقديم الأهم.

الرابعة عشرة : منزلة أبي بكر الصديق رضي الله عنه من التقوى حتى تقيأ ما أكله حين علم أنه بوسيلة محرمة وهو مثال يحتذى في الاستمساك بمنهج الله تعالى.

الخامسة عشرة : منزلة أبي الدرداء رضي الله عنه من التقوى حيث يحاسب نفسه ويتخوف من المسألة يوم القيامة وذلك لأهمية العمل بالعلم فالعلم وحده لا يكفي.

السادسة عشرة : أن أولياء الله هم المتبعون لرسوله ﷺ طاعة له فيما أمر وتصديقاً له فيما أخبر واجتناباً لما نهى عنه وزجر ولا يعبدوا الله إلاَّ بما شرع.

السابعة عشرة : قول وفد عبدالقيس (فمرنا بأمر فصل ...الخ) يؤكد ما دلت عليه الآية من لزوم متابعة النبي ﷺ في الدعوة إلى الله.

* * *

المبحث التاسع

أن سبيل الله بمعنى سبله وأن منها صنائع المعروف التي تضمنها صراطه

قال الله تعالى : ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم:١٢] قال الشوكاني – رحمه الله – : «أي والحال أنه قد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه من هدايتنا إلى الصراط الموصل إلى رحمته، وهو ما شرعه لعباده وأوجب عليهم سلوكه»(١)، وقال أبو حيان : «وأي عذر لنا في أن لاّ نتوكل على الله ﴿وَقَدْ هَدَانَا﴾ فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه وهو التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذي يوجب عليه سلوكه في الدين»(٢).

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي – رحمه الله – : «واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب وهو التوكل على الله في إقامة دينه ونصره وهداية عبيده وإزالة الضلال عنهم وهذا أكمل ما يكون من التوكل»(٣).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: «والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا»(٤) قال القرطبي – رحمه الله –: «وهذا يتناول

---

(١) فتح القدير : (٣/٩٨).

(٢) البحر المحيط : (٥/٤١١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : (٤/١٣٠).

(٤) تفسير القرطبي : (١٣/٣٦٥/٣٦٤). والمراد بالهداية هنا هداية التوفيق.

بعموم الطاعة جميع الأقوال»[١] وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله «إنما قصر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا ، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا»[٢] .

وقال أبو سليمان الداراني : «ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين والرد على المبطلين وقمع الظالمين وعُظْمُه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله»[٣] .

وقال : ليس ينبغي لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر فإذا سمعه في الأثر عمل به وحمد الله حيث وافق ما في قلبه[٤] .

وقال الشيخ عبدالرحمن السعدي : «دل هذا على أن أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله ويسر له أسباب الهداية وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية خارجة عن مدرك اجتهاده وتيسر له أمر العلم فإنَّ طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله بل هو أحد نوعي الجهاد الذي لا يقوم به إلاّ خواص الخلق وهو الجهاد بالقول واللسان للكفار والمنافقين والجهاد على تعليم أمور الدين وعلى رد نزاع المخالفين للحق ولو كانوا من المسلمين»[٥] .

وقال الضحاك : «مثل السنة في الدنيا كمثل الجنة في العقبى من دخل الجنة في العقبى سلم، كذلك من لزم السنة في الدنيا سلم»[٦] .

---

(١) نفس المصدر .والمعنى أن قوله [طاعتنا] نكرة مضافة إلى معرفة [نا] والنكرة إذا أضيفت إلى معرفة أفادت العموم.

(٢) تفسير القرطبي : (٣٦٤/٣٦٥/١٣) .وهذا معنى قوله تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى) سورة محمد (١٧) وسعة العلم لا يزيد صاحبه إلا سعادة .

(٣) نفس المصدر.

(٤) تفسير الكريم الرحمن : (١٠٨/٦).

(٥) تفسير ابن كثير : (٤٢٢/٣).

(٦) تفسير القرطبي : (٣٦٥/١٣).

وقال تعالى : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٥-١٦] قال ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ سبل السلام طرق السلام ،والسلام هو الله عز ذكره(١)، وقال ابن كثير رحمه الله « أي طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة »(٢).

وقال تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥] قال الشوكاني رحمه الله : « سبيل الله هو الإسلام »(٣).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ : « الإيمان بضع وستون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان » . متفق عليه . قال البخاري رحمه الله « وهو ـ أي الإيمان ـ قول وفعل ويزيد وينقص »(٤).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : « فأما القول فالمراد به النطق بالشهادتين ، وأما العمل فالمراد به ما هو أعم من القلب والجوارح ليدخل الاعتقاد والعبادات »(٥) ونقل عن السلف قولهم : « هو اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالأركان »(٦).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : « أجمع السلف أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ومعنى ذلك أنه قول القلب وعمل القلب ثم قول اللسان

---

(١) تفسير الطبري : (١٠/١٤٥).

(٢) تفسير ابن كثير : (٢/٣٤).

(٣) فتح القدير : (٣/٢٠٣).

(٤) صحيح البخاري كتاب الإيمان.

(٥) فتح الباري : (١/٤٦).

(٦) المصدر نفسه.

وعمل الجوارح، فأما قول القلب فهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويدخل فيه الإيمان بكل ما جاء به الرسول ﷺ »(١).

ونقل النووي عن ابن الصلاح أن الإيمان يتناول ما فسر به الإسلام في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسائر الطاعات لكونها ثمرات للتصديق الباطن الذي هو أصل الإيمان ومقويات ومتممات وحافظات له(٢). فعلم من كل ما تقدم أن سبيل الله بمعنى سبله وأن منها صنائع المعروف من الجهاد والهجرة وتعليم العلم الشرعي وسائر الطاعات التي تضمنها صراطه وهو الإسلام.

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل:

الأولى: أن سبيل الله هو ما شرعه لعباده من الجهاد والهجرة وتعلم العلم الشرعي وتعليمه وسائر الطاعات التي تضمنها صراطه فهو بمعنى سبله.

الثانية: أن ما هدى الله إليه أولياءه من الإيمان والعمل الصالح هو سبيلهم وهو السبيل المنجي ولذا أضافوه إليهم وهو - أيضاً - سبيل الله لأنه هو الذي شرعه ولذا أضافه إلى نفسه.

الثالثة: أن «السبل» المضافة إلى الله أو إلى أوليائه يراد بها عموم الطاعات من فعل المأمورات وترك المنهيات.

الرابعة: أن هذا القرآن يهدي من اتبعه طرق السلام في الدنيا وفي الآخرة، فيخرجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان ويهديهم إلى صراط مستقيم لا اعوجاج فيه ولا خطأ.

الخامسة: أن سبيل الله هو الإسلام وهو الصراط المستقيم.

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/٦٧٢ .

(٢) شرح النووي على مسلم : (١/١٤٨).

السادسة : الأمر باتخاذ الوسائل الممكنة من إيصال الهدى إلى قلوب العباد من الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن وما يتفرع عن ذلك على ما سيأتي بيانه إن شاء الله .

السابعة : أن الإيمان ذو شعب أي خصال وقد جاء في رواية أخرى أن أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . رواه مسلم . والإيمان سبيل الله .

* * *

المبحث العاشر

في أن الحكمة التي أمر بها النبي ﷺ في دعوته هي ما أوحي إليه من الكتاب والسنة

قال تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ [الإسراء:٢٣-٣٩] قال ابن كثير – رحمه الله – : «يقول تعالى هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس»(٢).

وقال تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٠٦].

قال ابن جرير رحمه الله : «اتبع يا محمد ما أمرك به ربك في وحيه الذي أوحاه إليك فاعمل به وانزجر عما زجرك عنه فيه ودع ما يدعوك إليه مشركوا قومك من عبادة الأوثان والأصنام فإنه لا إله إلا هو. يقول لا معبود يستحق عليك إخلاص العبادة له إلا الله الذي هو خالق الحب والنوى وفالق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانًا ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ يقول: ودع عنك جدالهم وخصومتهم»(٣).

ومما أوحي إليه الدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن وتدخل الدعوة إلى الله في مطلق الأمر بالمتابعة. ومتابعة الوحي هي الحكمة وهي البصيرة كما سيأتي.

(١) تفسير ابن كثير : (٣/٤٠).

(٢) تفسير الطبري : (١٢/٣٢).

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧].

قال الشيخ ابن سعدي رحمه الله : «هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها وهو التبليغ لما أنزل الله إليه ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية فبلغ ﷺ أكمل تبليغ ودعا وأنذر وبشر ويسر وعلم الجهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين. وبلغ بقوله وفعله وكتبه ورسله فلم يبق خير إلا دلّ أمته عليه ولا شر إلا حذرها عنه»(١). ومتابعة الوحي في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله وغير ذلك من سائر الطاعات هي من تبليغ الوحي وهذا كله يفيد أن الحكمة المأمور بها في الدعوة هي متابعة الوحي الذي أنزل عليه – عليه الصلاة والسلام –.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «والرسول ﷺ قام بهذه الدعوة فإنه أمر الخلق بكل ما أمر الله به ونهاهم عن كل ما نهى الله عنه. أمر بكل معروف ونهى عن كل منكر ودعوته إلى الله هي بإذنه لم يشرع دينا لم يأذن به الله»(٢).

عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (مثل ما بعثني الله به من الهدى(٣) والعلم(٤) كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية(٥) قبلت الماء فأنبتت الكلأ(٦) والعشب(٧) الكثير وكان منها أجادب(٨) أمسكت الماء

(١) تفسير ابن سعدي : (٢/٣٢).
(٢) مجموع الفتاوى : (١٥/١٦١).
(٣) الهدى : الدلالة الموصلة إلى المطلوب.
(٤) العلم : المراد به معرفة الأدلة الشرعية.
(٥) نقية : في رواية طائفة طيبة.
(٦) الكلأ : يطلق على النبت الرطب واليابس.
(٧) العشب : النبت الرطب.
(٨) أجادب : الأرض الصلبة التي لا تنبت.

فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان(١) لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » . [متفق عليه]

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى : بيان المراد بالحكمة التي أمر بها النبي ﷺ في دعوته وأنها معرفة الحق وقوله والعمل به مما أوحاه الله إليه .

الثانية : أن هذا الدين يأمر بالأخلاق الجميلة وينهى عن الأخلاق الذميمة .

الثالثة : أن اتباع الوحي هو عين الحكمة التي أمر بها النبي ﷺ في دعوته لأمره إياه باتباعه ثم أمره باستعمال الحكمة فعلم أنهما بمعنى واحد لا سيما وأن الله أطلقها على أوامره ونواهيه كما سبق .

الرابعة : الأمر بالإعراض عن المشركين إذا كان في الاشتغال بهم مجانبة للشرع(٢) ففيها معنى قوله تعالى : ﴿**عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ .

الخامسة : أن الداعي إلى الله إنما هو مبلغ عباد الله ما أوحاه الله إلى رسوله ﷺ فلزم العلم به وهو معنى قوله تعالى : ﴿**أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ**﴾ .

السادسة : عظم إثم من كتم العلم الشرعي ففيها معنى قوله تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ**﴾ .

---

(١) قيعان : الأرض المستوية التي لا تنبت .

(٢) أو لشيء منه أو تفويت مصلحة شرعية عامة أو خاصة أو الوقوع في محظور شرعي .

السابعة: الحرص على تعليم الناس هذا الدين ما استطاع وأن لا يترك ذلك مخافة الناس[١].

الثامنة: انقسام الناس أمام الوحي إلى ثلاثة أقسام وأن خيرها من قبل هدى الله فعلم وعمل وعلم، وأن شرها من لم يقبل هدى الله.

التاسعة: أن في علوم الدين حياة القلوب كما أن بالغيث حياة الأرض[٢].

العاشرة: شدة حاجة الناس إلى دين الإسلام ولهذا شبهه بالغيث الكثير.

* * *

(١) من لوم وشتم مما يدخل في دائرة الإستطاعة.

(٢) وفي ذلك بيان لشدة الحاجة إلى العلم الشرعي دعوة وتعلماً وتعليماً.

المبحث الحادي عشر

في أن الحكمة التي أمر بها النبي ﷺ في دعوته هي البصيرة التي وصفت بها دعوته

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨] وقد أمره الله أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة ...إلخ ، فلن يكون سبيله فيها غير ما أمره الله به.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «يقول تعالى لرسوله إلى الثقلين الإنس والجن جميعًا آمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله أي طريقته ومسلكه وسنته وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسوله (على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي »[١]. وإنما يحصل اليقين بالبرهان وهو الحجة الواضحة وذلك لا يكون إلاّ بما أوحاه الله إلى رسوله ﷺ .

وقال تعالى : ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام:١٠٤].

قال أبو جعفر الطبري ـ رحمه الله ـ: «أي ما تبصرون به الهدى من الضلال والإيمان من الكفر. وهي جمع بصيرة ومنه قول الشاعر :

حملوا بصائرهم على أكتافهم وبصيرتي يعدو بها عتد

يعني بالبصيرة الحجة البينة الظاهرة.

---

(١) تفسير ابن كثير : (٤٩٥، ٤٩٦/ ٢).

وقال ابن زيد : «البصائر الهدى بصائر في قلوبهم لدينهم وليست ببصائر الرؤوس... وقال إنما الدين بصره وسمعه في هذا القلب»(١). وقال ابن كثير - رحمه الله -: «البصائر هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن وما جاء به الرسول ﷺ»(٢)، فحصل بهذا أن الحكمة التي أمر بها النبي ﷺ في دعوته هي البصيرة التي وصفت بها دعوته في الآية الأولى من هذا الباب لأن الحكمة كما تقدم هي ما أوحاه الله إليه والبصيرة كذلك كما دلت عليه آية الأنعام وسواء قلنا إن البصيرة والحكمة صفة للداعي أو للحجة التي يصير بها الداعي كذلك.

وقال تعالى : **﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾** [النساء:٨٠] وقال تعالى: **﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [الأنعام:١٦١] وقال تعالى: **﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾** [النجم:٣-٤] قال تعالى: **﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾** [الأنعام:٥٧] وقال تعالى: **﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾** [الأنعام:٥٠].

عن عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحق الإسلام وحسابهم على الله». [متفق عليه]، ولا آمر للنبي ﷺ إلاّ الله سبحانه وتعالى.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق(٣) حتى يكون صديقاً. وإن

(١) نفس المرجع.

(٢) تفسير ابن كثير : (١٦٢/٢). والعقد : الفرس الشديد الشام الحلق، السريع الوثبة، المعد للجري، ليس فيه إضطراب ولا رخاوة . والوآى: الفرس السريع الطويل المقتدر الحلق.

(٣) وفي رواية (ويتحرى الصدق).

الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب(١) حتى يكتب عند الله كذاباً». [متفق عليه]

قال النووي رحمه الله: «قال العلماء معناه أن الصدق يهدي إلى العمل الصالح الخالص من كل مذموم والبر: اسم جامع للخير كله، وقيل البر الجنة ويجوز أن يتناول العمل الصالح والجنة»(٢) قلت ولا منافاة بين القولين فالجنة طريقها العمل الصالح والعمل الصالح طريق الجنة قال: «وأما الكذب فيوصل إلى الفجور وهو الميل عن الاستقامة وقيل الانبعاث في المعاصي»(٣). وقال أيضاً: «قال العلماء: هذا فيه حث على تحري الصدق وهو قصده والاعتناء به، وعلى التحذير من الكذب والتساهل فيه فإنه إذا تساهل فيه كثر منه فعرف به وكتبه الله لمبالغته -أي في الصدق أو الكذب- صديقاً إن اعتاده أو كذاباً إن اعتاده»(٤)، وفي الفتح: «أصل الفجر الشق فالفجور شق ستر الديانة ويطلق على الميل إلى الفساد وعلى الانبعاث في المعاصي وهو اسم جامع للشر»(٥) والمقصود من إيراد هذا الحديث هنا كون هذا الإرشاد من البصيرة لأن الاهتداء لأسباب الخير لا يكون إلاّ بعلم وهو هنا علم الوحي وهو الحكمة وقد تقدم ما حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية عن بعض المشايخ من أنه كان إذا خاف على منصوحه النفرة يأمره بالصدق.

وعن أم كلثوم بنت عتبة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فَيُنْمِي خيراً أو يقول خيراً» متفق عليه. قال النووي - رحمه الله -: «معناه ليس الكذاب المذموم الذي يصلح بين الناس بل هو

(١) في رواية (ويتحرى الكذب).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٦٠/١٦).

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

(٥) فتح الباري: (٥٠٨/١٠).

محسن »[١] ومعنى (فينمي خيراً) يبلِّغ تقول: نَمَيْتُ الحديث أنْمِيه إذا بلغته على وجه الإصلاح وطلب الخير فإذا بلغته على وجه الإفساد والنميمة قلت نميته بتشديد الميم »[٢].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله : « قال العلماء المراد هنا أنه يخبر بما علمه من الخير ويسكت عما علمه من الشر ولا يكون ذلك كذباً لأن الكذب الإخبار بالشيء على خلاف ما هو به وهذا ساكت ولا ينسب لساكت قول »[٣]. والمعنى أن يذكر لصديقه من الخلال الجميلة التي يعلمها فيه مما هو بها مقر ويعمل على تقريب النفوس بناء على ذلك ولا يذكر من الخصال الذميمة شيئاً.

وقال الطبري : « ذهب طائفة إلى جواز الكذب لقصد الإصلاح... وقالوا: الكذب المذموم إنما هو فيما فيه مضرة أو ما ليس فيه مصلحة ، وقال آخرون : لا يجوز الكذب في شيء مطلقاً وحملوا الكذب المراد هنا على التورية والتعريض... واتفقوا على أن المراد بالكذب في حق المرأة والرجل إنما هو فيما لا يسقط حقاً عليه أو عليها أو أخذ ما ليس له أولها وكذا في الحرب في غير التأمين واتفقوا على جواز الكذب عند الاضطرار »[٤]. والمقصود من إيراد هذا الحديث ما تقدم في الذي قبله وهو بيان أوجه الحكمة والبصيرة في دعوته عليه الصلاة والسلام.

وقد تطلق على السنة كما في قوله تعالى ﴿**وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ**﴾ [الأحزاب:٣٤] فآيات الله القرآن والحكمة هي السنة المطهرة وقد تضمن هذان الحديثان من التوجيهات السديدة والأوامر الرشيدة ما يشفي العليل ويروي الغليل ويجلب الخير ويدفع الشر وما ذلك إلا لكونهما من الحكمة وهي البصيرة التي وصفت بها دعوة النبي ﷺ .

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم : (١٥٧/١٦).

(٢) فتح الباري : (٢٩٩/٥).

(٣) فتح الباري : (٢٩٩/٥).

(٤) نفس المصدر.

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى: أن البصيرة التي وصفت بها دعوة النبي ﷺ هي الحكمة التي أمر بها النبي ﷺ في الدعوة إلى الله. لقوله تعالى : ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ وقد قال الله له: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ....﴾ الآية فعلم من ذلك أن البصيرة هي الحكمة التي أمر بها.

الثانية: بيان صفة من يدعو إلى الله بحق وأنه الذي يجمع ثلاث صفات ، السلامة من الشرك، والبراءة من أهله ، والبصيرة في دعوته.

الثالثة: قيام الحجة على الناس بما أنزل الله من البصائر وهي الحجج الواضحات والدلائل البينات فمن أخذ بها فقد أبصر فتبين له الهدى من الضلال والحق من الباطل وفائدة ذلك عائدة إليه لأن بها نجاته ومن أعرض عنها فقد عمي فلا يبصر هدى ولا يعرف حقاً فتلتبس عليه الأمور وإنما وبال ذلك عليه وهو الجاني على نفسه.

الرابعة: وجوب طاعة الرسول ﷺ وأنها طاعة لله لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى.

الخامسة: أن الذي هدى الرسول عليه الصلاة والسلام إلى البصيرة في دعوته هو الله بما أوحاه إليه.

السادسة: أن الرسول ﷺ على بينة من الله في دعوته فهو متبع في جميع شئونه لما يوحى إليه من ربه سبحانه.

السابعة: بيان أن الله أمر رسوله ﷺ بمقاتلة الناس حتى يدخلوا في هذا الدين بأن يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ...الخ. ففيه تأويل قوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

الثامنة: أن الصدق من أسباب البر الذي هو جماع الخير وأن الكذب من أسباب الفجور الذي هو جماع الشر.

التاسعة: أن دعوة النبي ﷺ قائمة على الصدق والبر والبعد عن الكذب والفجور.

العاشرة: الرخصة في الكذب إذا أنْمى خيراً أو قال خيراً .. بأن كان على وجه الإصلاح وطلب الخير من غير أن يترتب عليه فقدان حق أو إثبات باطل.

الحادية عشرة: ذكر الخلاف في المراد بالكذب المأذون فيه وأن من العلماء من حمله على المعاريض واستعمال التورية، ومنهم من حمله على السكوت عن ذكر ما يعلمه من الشر والإخبار بما يعلمه من الخير وجواز ذلك في حال الاضطرار اتفاقاً.

الثانية عشرة: أن من البصيرة في الدعوة إلى الله توضيح ما يلتبس على الناس مما يظن دخوله في المحظورات وهو ليس منها.

* * *

المبحث الثاني عشر

أن من البصيرة تقديم النقل على العقل وضبط النفس عند الغضب وتقديم الأهم

قال الله تعالى : ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف:٤٣] ومن الاستمساك به تقديمه على العقل المجرد فإن من قدم العقل على النقل (وهو النص الشرعي) لم يستمسك بالذي أوحي إليه .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «أي خذ بالقرآن المنزل على قلبك فإنه هو الحق وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم الموصل إلى جنات النعيم والخير الدائم المقيم»(١) وقال ابن سعدي رحمه الله «وهذا مما يوجب عليك زيادة التمسك به والاهتداء إذا علمت أنه حق وعدل وصدق تكون بانياً على أصل أصيل إذا بنى غيرك على الشكوك والأوهام والظلم والجور»(٢) وقال تعالى : ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج:٥].

وقال تعالى : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل:١٠] قال الشيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ : «أي اصبر على دعوتك لقومك صبراً جميلاً لا تضجر فيه ولا ملل»(٣) وفسر ابن كثير ـ رحمه الله ـ الهجر الجميل بأنه الذي لا عتاب معه(٤) لأن التضجر والملل يقطعان الطريق على الداعية ويضعفان الهمة

---

(١) تفسير ابن كثير : (٤/١٢٨).

(٢) تسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : (٦/٦٥٠) .فيجب أن تعلم أنه حق وعدل وصدق .

(٣) تسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : (٨/٤٧١).

(٤) تفسير ابن كثير : (٤/٤٣٧).

ويطمعان العدو ويحجبان الرؤية عن مواطن الصواب وهو مع ذلك كله خلاف النقل الذي جاءنا من ربنا من الكتاب والسنة.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً ﴿٦٢﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ [النساء: ٦٠-٦٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «ومن هذه الآيات أنواع من العبر الدالة على ضلال من تحاكم إلى غير الكتاب والسنة، وعلى نفاقه وإن زعم أنه يريد التوفيق بين الأدلة الشرعية وبين ما يسميه هو عقليات من الأمور المأخوذة عن بعض الطواغيت من المشركين وأهل الكتاب وغير ذلك من أنواع الاعتبار»(١) فدل هذا على أن تقديم العقل المجرد على النص الشرعي ليس من سبيل المؤمنين وبالتالي ليس من البصيرة لأن الله وصف أهله في هذه الآية بالنفاق.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ١٢٥] (٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٨]. فدل هذا على أن توحيد الله تعالى هو أول

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: (١/٥٨).

(٢) سورة الأنبياء: (١٢٥). فامر بإفراده بالعبادة ولا تكون صحيحة إلا إذا كانت مبنية على الشرع. فعلى من يدعو إلى الله تعالى أن يكون جل اهتمامه في بيان حقيقة التوحيد ونواقضه ومايزيد فيه وما ينقصه حتى تقوم دعوته على مثل ماقامت عليه دعوة الرسل عليهم السلام.

ما دعت إليه الرسل وهو أهم فرائض الدين ولهذا قال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾** [النساء:٤٨]. فكان لذلك أولى بالتقديم وأجدر بالاهتمام.

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن النبي ﷺ بعث معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن فقال: «ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله» وفي رواية «إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة تؤخذ من أموالهم وترد على فقرائهم فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس». [متفق عليه واللفظ للبخاري]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الأصل كما قال نوح عليه السلام **﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾** وكذلك قال هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كلٌ يقول **﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾** لاسيما أفضل الرسل اللذين اتخذ الله كليهما خليلاً إبراهيم ومحمداً عليهما الصلاة والسلام»(١).

وعن أبي وائل قال: كنا بصفين فقام سهل بن حنيف فقال: أيها الناس: اتهموا أنفسكم فإنّا كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية ولو نرى قتالاً لقاتلنا فجاء عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: «بلى». فقال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال فعلام نعطى الدنية في ديننا؟ أنرجع ولمّا يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: «ابنَ الخطاب، إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً». فانطلق عمر إلى أبي بكر فقال له مثل ما قال للنبي ﷺ فقال: إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً. فنزلت سورة الفتح فقرأها رسول الله ﷺ

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/٥١).

على عمر إلى آخرها فقال عمر: يا رسول الله، أوفتح هو؟ قال: «نعم» متفق عليه. وفي رواية للبخاري: قال سهل بن حنيف: اتهموا رأيكم رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته. وفي رواية له: «اتهموا رأيكم في دينكم».

قال الحافظ في الفتح: «لا تعملوا في أمر الدين بالرأي المجرد الذي لا يستند إلى أصل من الدين وهو كقول عليٍّ فيما خرجه أبو داود بسند حسن لو كان الدين بالرأي لكان مسح أسفل الخف أولى من أعلاه»(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وأصل ضلال من ضل هو بتقديم قياسه على النص المنزل من عند الله واختياره الهوى على اتباع أمر الله»(٢).

وقال ـ رحمه الله ـ: «إذا تعارض الشرع والعقل وجب تقديم الشرع»(٣) وقال أيضاً: «أما الشرع فهو في نفسه قول الصادق وهذه صفة لازمة له لا تختلف باختلاف أحوال الناس والعلم بذلك ممكن ورد الناس إليه ممكن ولذا جاء التنزيل برد الناس إلى الكتاب والسنة»(٤).

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فاقتتلنا فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمت لله أأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تقتله» فقال: يا رسول الله إنه قطع إحدى يدي ثم قال ذلك بعدما قطعها فقال رسول الله ﷺ: «لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته». ومعناه أنه يصير معصوم الدم محرمًا قتله محكومًا بإسلامه بعد

(١) فتح الباري: (٢٨٨، ٢٨٩/١٣).
(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/٥١).
(٣) درء تعارض العقل والنقل: (١٣٨/١).
(٤) المصدر نفسه: (١٤٦/١).

قول لا إله إلا الله كما كنت أنت قبل أن تقتله ، وإنك بعد قتله غير معصوم الدم ولا محرم القتل؛ قصاصًا لا كفرًا، كما كان هو قبل قول: لا إله إلا الله لولا عذرك بالتأويل المسقط للقصاص عنك(١). وفيه أهمية ضبط النفس عند الغضب وتقديم الشرع على الرأي.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ : متى الساعة يا رسول الله ؟ قال : « ما أعددت لها »؟ قال : ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله . قال : « أنت مع من أحببت » متفق عليه. قال الكرماني ـ رحمه الله ـ : « سلك مع السائل أسلوب الحكيم وهو تلقي السائل بغير ما يطلب مما يهمه أو هو أهم »(٢). ففيه أن تقديم الأهم من الدين لصرف النبي ﷺ السائل إلى ذلك وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » متفق عليه.

الصرعة : الذي يصرع الناس كثيراً لقوته فالهاء فيه للمبالغة(٣) قال ابن حبان : « أراد لا تعمل بعد الغضب شيئاً مما نهيت عنه »(٤).

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى: الأمر بالاستمساك بالوحي وأن مبني هذا الدين على النقل لا العقل المجرد.

الثانية: الأمر بالصبر على الأذى والهجر الجميل وبيان معناهما.

الثالثة: أن من البصيرة في الدعوة إلى الله تقديم الأهم وأن أهم فرائض الدين التوحيد وهو إفراد الله بالعبادة وأن جميع الرسل دعوا أممهم إلى ذلك وقدموه على ما سواه وأن ذلك من سنة المرسلين.

---

(١) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم : (٢/١٠٦).

(٢) فتح الباري : (١٠/٥٦٠).

(٣) فتح الباري : (١٠/٥٢٠ ، ٥١٩).

(٤) نفس المصدر. وبذلك يعرف ضبط النفس

الرابعـة: اقتداء النبي ﷺ بمن قبله من الرسل في الاهتمام بالتوحيد وتقديم الدعوة إليه على جميع فرائض الدين «فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله»، «فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلاَّ الله وأني رسول الله».

الخامسة: العبرة العظيمة الواردة في حديث المقداد وهي تؤكد المسألة الأولى.

السادسة: فضل كف النفس عند الغضب وأن الشديد في الحقيقة هو الذي يملك نفسة عند الغضب فلا يعمل شيئاً مما نهي عنه.

السابعة: فضل حب الله ورسوله ﷺ ويتبع ذلك حب الصالحين.

الثامنة: أن الإسلام يجُبُّ ما قبله وأن من دخل في دين الله عصم دمه وماله إلاَّ بحقه.

التاسعة: أن الأحكام في هذه الشريعة مبناها على الظواهر وأن توكل السرائر إلى الله.

العاشرة: عظم كلمة التوحيد وأنها لا ترد بمجرد القرائن لدخول قائلها في الإسلام حكماً بيقين وأن اليقين لا يزول بالشك.

الحادية عشرة: مراعاة الداعية لأحوال الناس وتنبيههم إلى ما هو أجدى وأنفع.

الثانية عشرة: حرص الداعية على نفسه وعلى من معه بفعل الصالحات وتأمل قوله ﷺ للسائل عن الساعة «ما أعددت لها».

* * *

المبحث الثالث عشر

أن من البصيرة في الدعوة إلى الله تعالى الاحتجاج بتوحيد الربوبية على توحيد العبادة، وأن ذلك من سنن المرسلين عليهم الصلاة والسلام.

قال تعالى : ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد:١٦](١) .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: « يقرر تعالى أنه لا إله إلاّ هو ، لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السموات والأرض وهو ربها ومدبرها وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم وأولئك الآلهة لا تملك لنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعاً ولا ضرًّا أي لا تحصل لهم منفعة ولا تدفع عنهم مضرةً فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوقٍ غيره أي ليس الأمر كذلك فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله

---

(١) سورة الرعد : (١٦).المقصود الاحتجاج بالقدر الذي يؤمنون به من الحق على إثبات ماينفونه منه ، فالمشركون يثبتون توحيد الربوبية وينفون توحيد الإلهية وهما متلازمان .

ولا نِدٌّ له ولا عِدْل له ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم معترفون أنها مخلوقة له عبيد له كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك تملكه وما ملك»(١)

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود:٦٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم:٩-١٠].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : «يخبر تعالى عما دار بين الكفار و بين رسلهم من المجادلة وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له قالت الرسل: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ وهذا يحتمل شيئين (أحدهما) أفي وجوده شك فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولةٌ على الإقرار به فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطرار فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الذي خلقها وابتدعها على غير مثال سبق فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهرة عليها فلا بد لها من صانع وهو الله لا إله إلاّ هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه. والمعنى الثاني في قوله ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾

(١) تفسير ابن كثير: (٢/٥٠٧). وقوله من مخلوق غيره أي من خلق غيره

أي في ألوهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلاّ هو وحده لا شريك له فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى »(١).

وقال تعالى: **﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** [النحل:٦٠-٦٤].

عن أبي جري جابر بن سليم قال: رأيت رجلاً يصدر الناس عن رأيه لا يقول شيئاً إلاّ صدروا عنه. قلت من هذا؟ قالوا: هذا رسول الله ﷺ قلت: عليك السلام يا رسول الله. مرتين. قال: «لا تقل عليك السلام فإن عليك السلام تحية الميت قل السلام عليك». قال: قلت أنت رسول الله؟ قال: «أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك، وإن أصابك عام سنة فدعوته أنبتها لك وإذا كنت بأرض قفر أو فلاة فضلت راحلتك فدعوته ردها عليك». قال قلت: اعهد إلي؟ قال: «لا تسبن أحداً». قال فما سببت بعده حراً ولا عبداً ولا بعيراً ولا شاةً. قال: «ولا تحقرن شيئاً من المعروف، وأن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك إن ذلك من المعروف وارفع إزارك إلى نصف الساق فإن أبيت فإلى الكعبين وإياك وإسبال الإزار

(١) تفسير ابن كثير: (٢/٥٢٥).

فإنها من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة وإن امرؤ شتمك وعيرك بما فيك فلا تعيره بما تعلم فيه فإنما وبال ذلك عليه». رواه أبو داود بسند صحيح. وقوله: «لا تقل عليك السلام... الخ» قال الخطابي: هذا يوهم أن السنة في تحية الميت أن يقال له عليك السلام كما يفعله كثير من العامة وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه دخل المقبرة فقال: «السلام عليكم أهل دار مؤمنين»، فقدم الدعاء على اسم المدعو له كهو في تحيته الأحياء وإنما كان ذلك القول منه إشارة إلى ما جرت به العادة منهم في تحية الأموات إذ كانوا يقدمون اسم الميت على الدعاء وهو مذكور في أشعارهم، كقول الشاعر:

عليك سلام الله قيس بن عاصم ... ورحمته إن شاء أن يترحما

وكقول الشاعر:

عليك سلام من أمير وباركت ... يد الله في ذاك الأديم الممزق

والسنة لا تختلف في تحية الأحياء والأموات بدليل حديث أبي هريرة الذي ذكرناه والله اعلم»(١).

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : «وفيه نكتة حسنة وهي أن الدعاء بالسلام دعاء بخير والأحسن في دعاء الخير أن يقدم الدعاء على المدعو له كقوله تعالى ﴿**رَحْمَتُ اللَّهِ وبرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ**﴾ وقوله: ﴿**وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ**﴾ وقوله: ﴿**سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ**﴾ وأما الدعاء بالشر فيقدم المدعو عليه على الدعاء غالباً كقوله لإبليس: ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي**﴾ وقوله: ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ**﴾ وقوله: ﴿**عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ**﴾ وقوله: ﴿**وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ**﴾(٢).

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل:

الأولى: أن الإقرار بتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الإلهية وأن الاحتجاج بإقرار المشركين بذلك على توحيد الله في عبادته من البصيرة في الدعوة إلى الله تعالى.

(١) عون المعبود: (١١/١٣٨).

(٢) عون المعبود مع شرح ابن القيم: (١١/١٣٨).

الثانية: أنه لا حجة مع المشركين فيما جعلوا مع الله من الشركاء لأنه الخالق وحده فهو المستحق للعبادة لتفرده بالخلق.

الثالثة: احتجاج نبي الله صالح ﷺ على صحة دعواه بما يُقِرُّ بِهِ قومه من توحيد الربوبية ﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾.

الرابعة: أن هذه طريقة رسل الله جميعاً من نوح إلى نبينا محمد عليهم الصلاة والسلام حيث قالوا جميعاً لأممهم حين قابلوهم بالشك: ﴿**أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾.

الخامسة: بيان عظم قبح الشرك بالله تعالى وأنه محض افتراء على الله ففيه معنى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا**﴾ وأن من البصيرة في الدعوة إلى الله التفصيل في ذكر الحجج وبيان وجه الاحتجاج بكل دليل على حده ليكون أوقع في النفوس وأدعى للاعتراف بالحق.

السادسة: بيان عظم شخصية النبي ﷺ كما في حديث أبي جري رضي الله عنه وبيان معرفته بأحوال المدعوين وعاداتهم حيث أنكر على جري أسلوب سلامه لأنهم معتادون على ذلك في تحيتهم للموتى.

السابعة: أن السنة في السلام تأخير المدعوّ له عن الدعاء ولو كان ميتاً وإن ذلك هو الغالب في دعاء الخير وأن ما جاء في هذا الحديث إنما هو من باب التنبيه على العادات حيث وضعت في غير محلها مما يوهم خلاف المقصود. إذ لم يكن مقصود جري الاستخفاف بالنبي ﷺ.

الثامنة: احتجاج النبي ﷺ بتوحيد الربوبية وأن من البصيرة في الدعوة إلى الله ذكر الحجج مع الدعوى ولو لم تطلب.

التـاسـعـة: بيان محاسن هذا الشرع وكيف أن هذا الرجل بمجرد دخوله في الإسلام أخذ يتطلع إلى مطلب الشرع وأن الرسول عليه الصلاة والسلام أرشده إلى محاسن الآداب ومعالي الأمور.

العـاشـرة: إن من الآداب الحسنة ترك مجازاة السفيه وأن وبال ما يقوله من الشتائم والتعيير عليه هو.

* * *

المبحث الرابع عشر

أن من البصيرة في الدعوة إلى الله الموعظة الحسنة في الوقت المناسب

قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل:١٢٥] قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ: «يقول إلى شريعة ربك التي شرعها لخلقه، وهو الإسلام، ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ يقول: بوحي الله الذي يوحيه إليك وكتابه الذي نزله عليك، ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ يقول بالعبر الجميلة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه وذكرهم بها في تنزيله»(١).

وقال القرطبي: «هذه الآية نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة فهي محكمة في جهة العصاة من الموحدين ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين. وقد قيل: إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورجي إيمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة»(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فالقلوب التي لها فهم وقصد تدعى بالحكمة فيبين لها الحق علماً وعملاً فتقبله وتعمل به وآخرون يعترفون بالحق لكن لهم أهواء تصدهم عن اتباعه فهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة المشتملة على الترغيب في الحق والترهيب من الباطل»(٣).

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري: (٧/٦٦٣) ط ١ سنة ١٤١٢هـ ن/ دار الكتب العلمية – بيروت توزيع مكتبة الباز.

(٢) تفسير القرطبي: (١٠/٢٠٠). الصحيح أنها ليست منسوخة ولا تعارض بينها وبين آيات القتال.

(٣) مجموع الفتاوي: (١٩/١٦٤).

وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٤-١٦٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما : «نجا الناهون وهلك الفاعلون ولا أدري ما صُنع بالساكتين»(١) وقال : «أسمعُ اللهَ يقول : ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فليت شعري ما فعل بهؤلاء الذين قالوا : ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾»(٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦]

قال ابن كثير رحمه الله: «أي تقوموا قياماً خالصاً لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية فيسأل بعضكم بعضاً هل بمحمد من جنون فينصح بعضكم بعضاً ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ أي ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكر في ذلك»(٣).

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال: «**يا صباحاه**». فاجتمعت إليه قريش فقالوا : مالك ؟ فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقوني؟» قالوا : بلى. قال ﷺ: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تباً لك ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله عز وجل ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾». [رواه البخاري]

(١) تفسير ابن جرير : (١٣/١٩٥/١٩٤).

(٢) نفس المصدر.

(٣) تفسير ابن كثير : (٣/٥٤٣).

وعن عبدالله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فنادى ثلاث مرات فقال: «أيها الناس تدرون ما مثلي ومثلكم؟» قالوا: الله تعالى ورسوله أعلم. قال ﷺ: «إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتيهم فبعثوا رجلاً يتراءى لهم، فبينما هو كذلك أبصر العدو فأقبل لينذرهم وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فأهوى بثوبه أيها الناس أتيتم، أيها الناس أتيتم ثلاث مرات». [رواه أحمد]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي». لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟». قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾. [رواه البخاري]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ قال: «يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً يا بني عبدمناف لا أغني عنكم من الله شيئاً يا عباس بن عبدالمطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ويا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً ويا فاطمة بنت محمد ﷺ سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً». [رواه البخاري]

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل:

الأولى: أن الموعظة الحسنة من البصيرة في الدعوة إلى الله.

الثانية: بيان المراد بالموعظة الحسنة ومتى يحتاج المدعو إليها وعظم فائدتها.

الثالثة: أن الموعظة الحسنة من أسباب النجاة من عذاب الله تعالى.

الرابعة: خطر السكوت على الباطل وتأملْ قول ابن عباس: «لا أدري ما صُنِعَ بالساكتين».

الخامسة: أن الحق لا يحتاج في التعرف عليه سوى التجرد من الهوى والعصبية.

السادسة: حرص النبي ﷺ على إيصال الحق إلى الناس.

السابعة: من الموعظة الحسنة ضرب الأمثال تقريباً للفائدة إلى الأذهان.

الثامنة: بيان الفرق بين الإيمان والتصديق المجرد فقد أجمعت قريش على صدقه ﷺ ومع هذا كفروا به قال الله: ﴿**فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾.

التاسعة: عظم جهل المشركين بالله تعالى.

العاشرة: أن الأنساب لا تنفع عند الله تعالى إذا لم يكن معها إيمان وعمل صالح ففيه معنى قوله تعالى في شأن إبراهيم وابنه إسحاق: ﴿**وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ**﴾.

الحادية عشرة: شدة خوفه ﷺ على أمته من عذاب الله تعالى.

الثانية عشرة: قرب عذاب الله من المشركين وأن الرسل إنما بعثوا رحمة بالناس لينجوا من عذاب الله وسخطه فإن آمنوا نجوا وإن أبوا فقد قامت عليهم الحجة ففيه معنى قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾.

* * *

المبحث الخامس عشر

أن الدعوة بالموعظة الحسنة من سنة المرسلين عليهم الصلاة والسلام

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٢٣-١٤٠].

قال ابن كثير - رحمه الله -: «روى ابن أبي حاتم - رحمه الله - حدثنا أبي حدثنا الحكم بن موسى حدثنا الوليد حدثنا ابن عجلان حدثني عون بن عبدالله بن عتبة أن أبا الدرداء رضي الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان ونصب الشجر قام في مسجدهم فنادى: يا أهل دمشق. فاجتمعوا إليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ألا تستحيون ألا تستحيون تجمعون مالا تأكلون وتبنون ما لا تسكنون وتأملون مالا تدركون ، إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون ويبنون فيوثقون ويؤملون فيطيلون فأصبح أملهم غروراً وأصبح جمعهم بوراً

وأصبحت مساكنهم قبوراً ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين»(١).

وقد وعظ كل نبي قومه وقال الله لنبيه ﷺ: **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾** [الأنعام:٩٠].

وقال تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾** [إبراهيم:٥]. «أي بأياديه ونعمه عليهم في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه وإنجائه إياهم من عدوهم وفلقه لهم البحر وتظليله إياهم الغمام وإنزاله عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من النعم»(٢).

وقال تعالى: **﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾** [الشعراء:٢٠٨-٢٠٩].

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى: أن من الوعظ الحسن التذكير بنعم الله والتخويف من شدة بأسه.

الثانية: أن الدعوة إلى الله بالموعظة الحسنة من سنن المرسلين وعباد الله الصالحين.

الثالثة: أن سبيل رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله هي سبيل من تقدمه من أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام.

الرابعة: أن الوعظ يقال لجميع الناس ممن يحتاجون إليه وتأمل قول الله لموسى: **﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾**.

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/٣٤١).

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/٥٢٣).

الخامسة: العبرة مما حصل للأمم الهالكة بسبب رفضهم ما جاءت به الرسل من النذر ولهذا قال صالح بعد هلاك قومه: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:٧٩] وقال شعيب عليه السلام بعد هلاك قومه: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف:٩٣].

* * *

المبحث السادس عشر

أن تخصيص المنافقين بالوعظ من البصيرة في الدعوة إلى الله

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٠-٦٣].

قال ابن كثير رحمه الله: «هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله»(١).

وقال ابن جرير - رحمه الله -: «يقول فدعهم فلا تعاقبهم في أبدانهم وأجسامهم ولكن عظهم بتخويفك إياهم بأس الله أن يحل بهم وعقوبته أن تنزل بدارهم وحذرهم من مكروه ما هم عليه من الشك في أمر الله وأمر رسوله ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ يقول: مرهم باتقاء الله والتصديق به وبرسوله ووعده ووعيده»(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير: (١/٥١٩).

(٢) تفسير الطبري: (٨/٥١٥).

وعن أبي بردة البلوي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته**» رواه أبو داود. وقوله (في بيته) «أي ولو كان في بيته مخفيًا من الناس»(١).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتها أو قال في خدورها فقال: «**يا معشر من آمن بلسانه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته**» رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده.

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى: أن الرغبة عن التحاكم إلى الله ورسوله من صفات المنافقين.

الثانية: أن الخير كله في اتباع شرع الله وأن الشر في مخالفته وتأمل قوله تعالى: ﴿**وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً**﴾.

الثالثة: اعتذار المنافقين بحسن النية وبيان أنها لا تنفع مع مخالفة صريح النصوص الشرعية(٢).

الرابعة: أن من النفاق تحريف النصوص إذا خالفت الأهواء.

الخامسة: الأمر بوعظ المنافقين والمبالغة في ذلك لشدة حاجتهم إليه فالدواء يكون على قدر الداء.

السادسة: ذم من عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما.

---

(١) عون المعبود : (١٢/٢٢٤).

(٢) الاحتجاج بحسن النية مع الإصرار على مخالفة السنة كذب في الدعوى لأن الله تعالى قال: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ آل عمران: ٣١.

السابعة: التنبيه على أن اغتياب المسلمين من شعار المنافقين(١).

الثامنة: النهي عن تتبع عورات المسلمين والوعيد على ذلك ففيه معنى قوله ﷺ: «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب».

* * *

(١) المصدر نفسه: (١٣/٢٢٤)، فإنه قال: «فيه تنبيه على أن غيبة المسلم من شعار المنافق لا المؤمن».

المبحث السابع عشر

أن من الموعظة الحسنة التذكير بأيام الله وضرب الأمثال

قال الله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١] قال أبو جعفر الطبري رحمه الله : « يقول تعالى ذكره : لقد كان في قصص يوسف وإخوته عبرة لأهل الحجى والعقول يعتبرون بها وموعظة يتعظون بها »(١) وإذا كانت الموعظة الحسنة من الأساليب المأمور بها في الدعوة إلى الله فإن هذا نوع من أنواعها.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:٥].

قال ابن جرير – رحمه الله –: حدثني يونس ، قال: أخبرني ابن وهب قال : ابن زيد في قول الله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ قال: أيامه التي انتقم فيها من أهل معاصيه من الأمم. خوفهم بها وحذرهم إياها ، وذكرهم أن يصيبهم ما أصاب الذين من قبلهم »(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٧ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر:٢٧-٢٨]. فأخبر أن الغرض من ضرب الأمثال في القرآن الاتعاظ والاعتبار وقد قال الله تعالى لنبيه: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الأنعام:٧٠] فعلم بهذا دخول التذكير في الأمر بهذه الوسيلة.

---

(١) تفسير الطبري : (١٦/٣١٢).

(٢) تفسير ابن جرير الطبري : (١٦/٥٢٢).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي هم عاجزون عن خلق ذباب واحد بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك. هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها»(١).

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل:

الأولى: أن من الموعظة الحسنة المأمور بها في الدعوة إلى الله التذكيرَ بقصص السابقين لما فيها من الآيات الدالة على قدرة الله وعظيم سلطانه وعلى هذا كان أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام.

الثانية: التنبيه على ما في قصة يوسف وإخوته من العبر والعظات.

الثالثة: بيان من يستفيد من هذا القصص وأنهم أهل الحجا والعقول.

الرابعة: بيان الغاية من إرسال موسى عليه السلام وأنها إخراج قومه من الظلمات إلى النور وهي الغاية من بعثة كل رسول.

الخامسة: بيان فضل التذكير بأيام الله تعالى وأن ذلك من وسائل إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

السادسة: فضل الصبر والشكر وأن أهل هذين الوصفين هم المستفيدون من التذكير بنعم الله.

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/٢٣٥).

السابعة: بيان معنى أيام الله في هذه الآية الكريمة وأنها قد تأتي بمعنى وقائعه بأعدائه وهو المعنى الآخر للآية الكريمة وهو الذي ذكره ابن زيد والأكثر إطلاقاً على النعم وتقدم في الباب الحادي عشر.

الثامنة: بيان الحكمة من إكثار القرآن لضرب الأمثال ؛ وأنها للاتعاظ والاعتبار.

التاسعة: أن ضرب الأمثال من الموعظة الحسنة لما فيها من تقريب المعاني إلى الأذهان.

العاشرة: أن في ضرب الأمثال إقامة لحجة الله على الناس . وهي من مقاصد الدعوة إلى الله.

الحادية عشرة: بيان عجز من يُدْعَوْن من دون الله من الأصنام و الأوثان وغيرها وحقارتها وأن من ضعفها عدم استطاعتها على خلق ذباب واحد وعدم أخذ ما سلبه منها وهو من أضعف مخلوقات الله.

* * *

المبحث الثامن عشر

أن من البصيرة في الدعوة إلى الله المجادلة بالتي هي أحسن

قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦] فأرشد إلى مراعاة المقام ومنازل الناس في المجادلة ومع أن أهل الكتاب داخلون في الآية الأولى إلاّ أن ذكرهم بالتنصيص عليهم يفيد زيادة الاهتمام بهم.

قال ابن العربي رحمه الله: «ليست منسوخة وإنما هي مخصوصة، لأن النبي ﷺ بعث باللسان يقاتل به في الله ثم أمره الله بالسيف واللسان حتى قامت الحجة على الخلق لله، وتبين العناد، وبلغت القدرة غايتها عشرة أعوام متصلة فمن قُدِرَ عليه قتل، ومن امتنع بقي الجدال في حقه، ولكن بما يحسن من الأدلة ويجمل من الكلام بأن يكون منك للخصم تمكين وفي خطابك له لين، وأن تستعمل من الأدلة أظهرها وأنورها وإذا لم يفهم المجادل أعاد عليه الحجة وكررها كما فعل الخليل مع الكافر حين قال له إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فقال له الكافر: «أنا أحيي وأميت» فحسن الجدال ونقل إلى أبين منه بالاستدلال وقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ وهو انتقال من حق إلى حق أظهر منه ومن دليل إلى دليل أبين منه وأنور»(١).

(١) أحكام القرآن: (١٤٨٧، ١٤٨٨/٣).

وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ ..الآية [الإسراء:٢٥] وتدخل المجادلة بالتي هي أحسن في هذا الأمر.

قال ابن كثير – رحمه الله –: «يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم وأخرج الكلام ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم وعداوته ظاهرة بينه ولهذا نهي الرجل أن يشير إلى أخيه المسلم بحديدة فإن الشيطان ينزع في يده أي فربما أصابه بها»(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج:٦٨-٦٩] قال القرطبي – رحمه الله –: «قال مقاتل: هذه الآية نزلت على النبي ﷺ ليلة الإسراء وهو في السماء السابعة لما رأى من آيات ربه الكبرى فأوحى الله إليه «وإن جادلوك» بالباطل فدافعهم بقولك «الله أعلم بما تعملون» من الكفر والتكذيب. فأمره الله تعالى بالإعراض عن محاوراتهم صيانة له عن الاشتغال بتعنتهم ولا جواب لصاحب العناد» وقال «في هذه الآية أدب حسن علمه الله عباده في الرد على من جادل تعنتاً ومراءً ألاّ يجاب ولا يناظر ويدافع بهذا القول الذي علمه الله لنبيه ﷺ»(٢).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما الذي أوتيته وحيٌ أَوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». متفق عليه. قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «هذا دال على أن النبي لابد له من معجزة تقتضي إيمان من شاهدها بصدقه، ولا يضره

(١) تفسير ابن كثير: (٣/٤٥).
(٢) تفسير القرطبي: (١٢/٩٤).

من أصر على المعاندة »(١) وقال أيضاً « وليس المراد حصر معجزاته ﷺ فيه [أي القرآن] ولا أنه لم يؤت من المعجزات ما أوتيه من تقدمه بل المراد أنه [أي القرآن] المعجزة العظمى التي اختص بها دون غيره ؛ لأن كل نبي أعطي معجزة خاصة به لم يعطها غيره تحدى بها قومه وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه »(٢).

ووجه الاستشهاد بالحديث أن المجادلة تستلزم إيراد الحجج والبراهين ودل الحديث على أن القرآن هو المعجزة العظمى لرسالة النبي ﷺ كما قال تعالى : **﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾** [الطور:٣٤] فعلم بهذا أن الاحتجاج بالقرآن على الوجه الصحيح من المجادلة بالحسنى.

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى : أن المجادلة بالتي هي أحسن حين يستدعي المقام ذلك من البصيرة التي وصفت بها دعوته ﷺ.

الثانية : أن المجادلة المذكورة تكون بما يحسن من الأدلة السمعية والعقلية وما يجمل من الكلام.

الثالثة : أن تكرار الحجج والأدلة والانتقال من الواضح إلى الأوضح في جدال من لم يبلغ درجة العناد والمكابرة من البصيرة في الدعوة إلى الله.

الرابعة : التحذير من نزغات الشيطان وأن من المواطن التي يستغلها المحاورات والمخاصمات والإرشاد إلى استعمال الكلام الحسن الطيب لدفع هذا الشر لقوله تعالى : **﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾**.

الخامسة : أن من البصيرة في الدعوة إلى الله عدم الاشتغال بجدال أصحاب العناد والتعنت وأنه لا جواب لصاحب عناد إلا ما أرشد إليه رب العباد : **﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾**.

---

(١) فتح الباري : (٩/٦).

(٢) فتح الباري : (٩/٦).

السادسة: تأييد الله لأنبيائه بالمعجزات واختصاص كل نبي بمعجزة تناسب حال قومه.

السابعة: أن معجزة نبينا ﷺ التي اختص بها هي القرآن العظيم ورجاء النبي ﷺ أن يكون أكثر الأنبياء تابعاً وقد أجابه الله إلى تحقيقه فنصف أهل الجنة من هذه الأمة. كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ من حديث أبي سعيد الخدري(١) وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما(٢). بل جاء ما يفيد أن ثلثي أهل الجنة منها فلله الحمد والمنة وصدق الله حيث يقول: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]

* * *

(١) متفق عليه. رواه البخاري في كتاب الأنبياء وغيره باب قصة يأجوج ومأجوج ح (٣١٧٠) ومسلم في كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه. رواه البخاري في كتاب الرقاق ومسلم في كتاب الإيمان.

المبحث التاسع عشر

أن المجادلة بالتي هي أحسن من سنة المرسلين عليهم الصلاة والسلام

قال الله تعالى في شأن موسى وهارون عليهما السلام : ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ الآيات [الشعراء:١٦-٢٦].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

قال أهل العلم: إن هذا الملك أتى برجلين قد استحقا في نظره القتل ، فقتل أحدهما وعفا عن الآخر وكان هذا -كما قال ابن كثير- ادعاءً بأن لنفسه : «هذا المقام عناداً ومكابرة ويوهم أنه الفاعل لذلك وأنه هو يحيي ويميت»(١) فجعل

(١) تفسير ابن كثير : (١/٣١٣).

إبراهيم (هذا الجواب من الملك مقدمة للحجة الدامغة التي بهت بها «أي إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذراته وتسخير كواكبه وحركاته فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فإن كنت إلهاً كما ادعيت تحيي وتميت فائت بها من المغرب ؟ فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت أي خرس فلا يتكلم وقامت عليه الحجة»(١). وقد جادل كل رسول قومه كما ذكر الله عنهم في سورة الأعراف ويونس وهود وإبراهيم والحجر ومريم وطه والأنبياء والشعراء والنمل والقصص والعنكبوت وغيرها وقص الله علينا من ذلك في شأن نبينا ﷺ مع أهل العناد من قومه الكثير كما في سورة النحل والإسراء ، والمؤمنون وغيرها فلله الحمد والمنة.

عن عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – أن اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا، فقال لهم: «كيف تفعلون بمن زنى منكم؟». قالوا: نحممهما ونضربهما. فقال : «لا تجدون في التوراة الرجم؟». فقالوا: لا نجد فيها شيئاً. فقال لهم عبدالله بن سلام: كذبتم فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين. فوضع مدراسها الذي يُدَرِّسُها منهم كفه على آية الرجم فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ولا يقرأ آية الرجم فنزع يده عن آية الرجم فقال: ما هذه؟ فلما رأوا ذلك قالوا: هي آية الرجم فأمر بهما فرجما قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد فرأيت صاحبها يحنأ عليها يقيها الحجارة». متفق عليه وهذا لفظ البخاري في كتاب التفسير.

وفي حديث البراء عند مسلم: «فدعا رجلاً من علمائهم فقال: «أنشدك بالله وبمن أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزنى في كتابكم؟». قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجد الرجم.

(١) تفسير ابن كثير : (١/٣١٣).

قال النووي – رحمه الله –: «قال العلماء هذا السؤال ليس لتقليدهم ولا لمعرفة الحكم منهم وإنما هو لإلزامهم بما يعتقدونه في كتابهم ولعله ﷺ قد أوحي إليه أن الرجم في التوراة الموجودة في أيديهم لم يغيروه»(١).

وقال الحافظ ابن حجر – رحمه الله –: «وقال الباجي ظاهر الأمر أنهم قصدوا في جوابهم تحريف حكم التوراة والكذب على النبي ﷺ إما رجاء أن يحكم بينهم بغير ما أنزل الله وإما لأنهم قصدوا بتحكيمه التخفيف عن الزانيين واعتقدوا أن ذلك يخرجهم عما وجب عليهم أو قصدوا اختبار أمره»(٢) ومعنى نحممهما: نسود وجوههما بالحمم وهو الفحم، (ومدراسها) الذي يدرس كتبهم (ويحنا عليها): ينحني كما جاء مصرحاً به في بعض الروايات. فانظر كيف دخل (في جدالهم وكيف خرج منتصراً فإنه فتح باب الجدال معهم بالسؤال عن الحكم في كتابهم فكان الجواب خلاف الواقع فطلب الدليل: **﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** فانكشف أمرهم بما صنعوا حين التلاوة من الحيلة وما اعترف به عالمهم حين المناشدة.

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل:

الأولى: أن هارون عليه الصلاة و السلام من المرسلين.

الثانية: امتنان فرعون على موسى بتربيته إياه وليداً ولبثه فيهم سنين من عمره وتذكيره إياه بقتل القبطي فكان الجواب عن القتل بأنه عن جهل منبهاً عن المغفرة بذكر ما وهبه له ربه من الحكم والرسالة وأن ما امتن به عليه لا يكافئ استعباده لبني إسرائيل ولا يمكن أن تراعى على حساب هذا الحق العظيم.

(١) شرح النووي على مسلم: (١١/٢٠٨).
(٢) فتح الباري: (١٢/١٦٨).

الثالثة: مراعاة المقام في إيراد الحجج فانظر ما بين قول فرعون: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ وقول موسى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ من التناسب العظيم واستغلال المقام في غاية الحسن.

الرابعة: بيان ضلال أهل الكفر وانقطاع حججهم من أول الطريق واستغلالهم للسلطة بدلاً من المحاجة بالبراهين.

الخامسة: أن تذكير أهل الباطل بما ينبغي أن يسألوا عنه قبل اللجوء إلى استخدام السلطة من البصيرة في الدعوة إلى الله كما فعل موسى عليه الصلاة والسلام.

السادسة: أن من نظر إلى معجزات الأنبياء بلا عصبية ولا هوى هُدي إلى صراط مستقيم كما حدث لسحرة فرعون فإنه رغم تعلق قلوبهم بما وعدوا به من قبل فرعون إلا أن نظرهم إلى معجزة العصا كان مجرداً من الهوى.

السابعة: أن العاقبة للمتقين.

الثامنة: في قصة موسى معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾.

التاسعة: أهمية الصبر لمن دعا إلى الله وأنه لابد منه في طريق الدعوة إلى الله.

العاشرة: حسن استغلال إبراهيم عليه السلام للموقف في إيراد الحجج بجعله لما يجري على لسان خصمه مقدمة لإيراد حجة لا يستطيع دفعها حتى ولو أراد التمويه.

الحادية عشرة: أن عدم التشاغل بما يورده الخصم من الحجج على سبيل التمويه من البصيرة في الدعوة إلى الله فإن إبراهيم عليه السلام يعلم أن ما ذكره الكافر من كونه يحيي ويميت بالطريقة التي فعلها ليست جواباً على الحقيقة ومع هذا لم يتشاغل إبراهيم بردها على هذا الأساس لكونه يعلم أنه يريد التمويه على

الناس فجعل ما ذكره مقدمة لإيراد حجته الأخرى ولو تشاغل بذلك لما وصل إلى النتيجة التي وصل إليها: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

الثانية عشرة: فيه بشرى لأهل الدعوة إلى الله تعالى بأنه يهديهم وأنه لا يهدي عدوهم ففيها معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

الثالثة عشرة: أن طلب الدليل من الخصم من المجادلة بالحسنى وكذا مناشدته لبيان الحقيقة.

* * *

المبحث العشرون

أن من البصيرة في الدعوة إلى الله تعالى الرفق بالنفس

قال الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦] قال ابن كثير رحمه الله: «لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تذهب نفسك عليهم حسرات»(١).

وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل:٧٠]

قال ابن كثير رحمه الله: «﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي المكذبين بما جئت به ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي في كيدك ورد ما جئت به فإن الله مؤيدك وناصرك ومظهرٌ دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب»(٢).

وقال تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس:٧٦].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي نحن نعلم جميع ما هم فيه وسنجزيهم وصفهم ونعاملهم على ذلك يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً ولا صغيراً ولا كبيراً بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً»(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/٧٢).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣/٣٧٣).

(٣) تفسير ابن كثير: (٣/٥٨١).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩] عن ابن عباس رضى الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأول ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول»(١).

وقال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ أي ليس عليك هداهم فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وارفق بنفسك.

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٧٢] وقال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: «الوسع هو ما تسعه النفس ولا تضيق عنه ولا تعجز عنه»(٢).

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة قال: «من هذه؟». قالت: فلانة، تذكر من صلاتها. قال: «مه! عليكم من الأعمال بما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا، وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه». متفق عليه. قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله –: «أي اشتغلوا من الأعمال بما تطيقون المداومة عليه، فمنطوقه يقتضي الأمر بالاقتصار على ما يطاق من العبادة، ومفهومه يقتضي النهي عن تكلف ما لا يطاق»(٣) قلت بل هذا منطوق أيضاً لقوله عليه الصلاة والسلام: «مه!» فإنها كلمة زجر، وقال النووي – رحمه الله –: «أي يطيقون الدوام عليه بلا ضرر وفيه دليل على الحث على الاقتصاد في العبادة واجتناب التعمق وليس الحديث مختصاً بالصلاة بل عام في جميع أعمال البر»(٤)

(١) رواه ابن جرير في تفسيره: (١٥/٢١٢).

(٢) الاستقامة: (١/٢٧).

(٣) فتح الباري: (١/١٠٢).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم: (٦/٧٠).

وقال أيضاً: «وفي هذا الحديث كمال شفقته ﷺ ورأفته بأمته لأنه أرشدهم إلى ما يصلحهم وهو ما يمكنهم الدوام عليه بلا مشقة ولا ضرر فتكون النفس أنشط والقلب منشرحاً فتتم العبادة، بخلاف من تعاطى من الأعمال ما يشق فإنه بصدد أن يتركه أو بعضه أو يفعله بكلفة وبغير انشراح القلب فيفوته خير عظيم»(١) وقال أيضاً: «وفيه الحث على المداومة على العمل وأن قليله الدائم خير من كثير ينقطع وإنما كان القليل الدائم خيراً من الكثير المنقطع لأن بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر والمراقبة والنية والإخلاص والإقبال على الخالق سبحانه وتعالى وينمو القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافاً كثيرة»(٢) وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله». [متفق عليه]

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: «الرفق هو لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل وهو ضد العنف»(٣) وعنها - رضي الله عنها - قالت: (ما خير رسول الله بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه). [متفق عليه]

وقوله «بين أمرين» أي من أمور الدنيا يدل عليه قوله: «ما لم يكن إثماً» لأن أمور الدين لا إثم فيها. والأيسر الأسهل. وقوله: «ما لم يكن إثماً» ما لم يكن الأسهل مقتضيا للإثم فإنه يختار الأشد»(٤). قال النووي - رحمه الله -: «فيه استحباب الأخذ بالأيسر والأرفق ما لم يكن حراماً أو مكروها»(٥).

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: (٦/٧٠).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) فتح الباري: (١٠/٤٤٩).

(٤) المصدر نفسه: (٦/٥٧٥).

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٥/٨٣).

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى : أن الرفق بالنفس من البصيرة التي وصفت بها الدعوة إلى الله تعالى.

الثانية : أن ملاحظة ما جرت به المقادير من البصيرة في الدعوة ففيها معنى قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ وقوله تعالى : ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا**﴾.

الثالثة : أن على الداعي إلى الله أن لا يضيق صدره بكيد أعداء الله فإن الله كافيه ففيها معنى قوله تعالى : ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾.

الرابعة : أن الإعراض عما يقوله الأعداء من السفاهات من البصيرة في الدعوة إلى الله فالله يعلم ما يسرون وما يعلنون وسيجازيهم على ذلك بما يستحقون ففيها معنى قوله تعالى : ﴿**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا**﴾.

الخامسة : أن هداية من يهتدي بتوفيق الله وأن الله لو شاء لهدى الناس جميعاً ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك لحكمة بالغة : ﴿**لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ**﴾ ومنها لوازم التكليف ففيها معنى قوله تعالى : ﴿**مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**﴾ ومعنى قوله تعالى : ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ وهداية من اهتدى بفضله وضلال من ضل بعدله.

السادسة : أن الاشتغال بما يطاق من الأعمال والمداومة عليه وترك تكلف ما لا يطاق من البصيرة في الدين ومن ذلك الدعوة إلى الله تعالى.

السابعة : فضيلة الرفق وأن الله يحبه وبيان معناه.

الثامنة : أن من هدي النبي ﷺ اختيار أيسر الأمرين المخير فيهما وبيان المراد بذلك.

التاسعة: سماحة هذا الدين ويسر شرائعه ففيه معنى قوله ﷺ : «إن هذا الدين يسر».

العاشرة : حرص النبي ﷺ على إيصال الخير إلى الناس وأن هذا الحرص من البصيرة في الدعوة إلى الله ما لم يصل إلى حد الحزن وإهلاك النفس.

الحادية عشرة: أهمية الرفق في الدعوة إلى الله وذلك يناسب مشقة الطريق وطولها لئلا ينقطع به الطريق ففيها معنى «المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى».

الثانية عشرة: عناية الله ببيان هذه الدعوة بياناً يشمل غاياتها ووسائلها وأهلها.

الثالثة عشرة: أن الرفق مطلوب في أعمال البر كلها ومن أشرفها الدعوة إلى الله تعالى.

* * *

المبحث الواحد والعشرون

أن من البصيرة في الدعوة إلى الله تعالى الرفق بالناس

قال الله تعالى : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

[الأعراف:١٩٩]

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ: « معناه : خذ العفو من أخلاق الناس واترك الغلظة عليهم »(١) وقال ابن سعدي ـ رحمه الله ـ: « هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس وما ينبغي في معاملتهم ، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس أن يأخذ العفو أي ما سمحت به أنفسهم وما سهل عليهم من الأعمال بالأخلاق . فلا يكلفهم مالا تسمح به طبائعهم بل يشكر من كل أحد ما قابله به من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم ولا ينكر على الصغير لصغره ، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره ، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتنشرح له صدورهم « وأمر بالعرف » أي بكل قول حسن وفعل جميل وخلق كامل للقريب والبعيد فاجعل ما يأتي إلى الناس منك إما تعليم علم أو حثاً على خير من صلة رحم أو بر وتقوى أو زجر عن قبيح أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية. ولما كان لا بد من أذية الجاهل. أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله »(٢) .

وقال تعالى : ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر:٨٥] قال ابن سعدي ـ رحمه الله ـ: « هذا الصفح الذي لا أذية فيه بل قابل إساءة المسيء بالإحسان وذنبه بالغفران

---

(١) تفسير الطبري : (١٣/٣٢٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي : (١٣٤/ ١٣٥/ ٣).

لتنال من ربك جزيل الأجر والثواب فإن كل ما هو آت قريب، ثم ظهر لي أحسن مما ذكرت هنا وهو أن المأمور به هو الصفح الجميل أي الحسن الذي قد سلم من الحقد والأذيه القولية والفعلية دون الصفح الذي ليس بجميل وهو الصفح في غير محله فلا يصفح حيث يقتضي المقام العقوبة»(١).

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال عمرو بن عبسة السلمي كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً فقعدت على راحلتي فقدمت عليه فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً جرآءٌ عليه قومه فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له: ما أنت؟ قال: «نبي»، فقلت: وما نبي؟ قال: «أرسلني الله»، فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحّد الله ولا يشرك به شيء». قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: «حر وعبد»، قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به، فقلت: إني متبعك قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا ألا ترى حالي وحال الناس، ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني، قال: فذهبت إلى أهلي، وقدم رسول الله ﷺ المدينة وكنت في أهلي فجعلت أتخبرُ الأخبار وأسأل الناس حين قدم المدينة حتى قدم عليَّ نفر من أهل يثرب من أهل المدينة فقلت: ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة فقالوا: الناس إليه سراع وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك فقدمت المدينة فدخلت عليه فقلت: يا رسول الله أتعرفني؟ قال: «نعم، أنت الذي لقيتني بمكة». قال: فقلت: بلى. فقلت: يا نبي الله أخبرني عما علمكَ الله وأجهلُه؛ أخبرني عن الصلاة، قال: «صل صلاة الصبح ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس حتى ترتفع فإنها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار ثم صل فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى يستقل الظل بالرمح ثم أقصر عن الصلاة فإن حينئذ تُسجر جهنم، فإذا أقبل الفيء فصل فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي: (١٧٧/ ٣).

تصلي العصر ثم أقصر عن الصلاة حتى تغرب الشمس فإنها تغرب بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار قال: فقلت يا نبي الله فالوضوء حدثني عنه قال: «ما منكم رجل يقرب وضوءه فيتمضمض ويستنشق فينتثر إلاّ خرت خطايا وجهه وفيه وخياشيمه ، ثم إذا غسل وجهه كما أمره الله إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء ، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرت خطايا يديه من أنامله مع الماء ثم يمسح رأسه إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء ثم يغسل قدميه إلى الكعبين إلا خرت خطايا رجليه من أنامله مع الماء فإن هو قام فصلى فحمد الله وأثنى عليه ومجده بالذي هو له أهل وفرَّغ قلبه لله إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه». فحدث عمرو بن عبسة بهذا الحديث أبا أمامة صاحب رسول الله ﷺ فقال له أبو أمامة: يا عمرو بن عبسه انظر ما تقول : في مقام واحد يعطى هذا الرجل ؟ فقال عمرو: يا أبا أمامة لقد كبرت سني ورق عظمي واقترب أجلي وما بي حاجة أن أكذب على الله ولا على رسوله لو لم أسمعه من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً حتى عد سبع مرات ما حدثت به أبداً ولكني سمعته أكثر من ذلك. [رواه مسلم]

قال النووي : (معناه لو لم أتحققه وأجزم به لما حدثت به وذكر المرات بياناً لصورة حاله ولم يرد أن ذلك شرط)(١). وعن معاوية بن الحكم السلمي قال : بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم فقلت: واثكل أماه ! ما شأنكم تنظرون إليّ. فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبى هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن منه فوالله ما نهرني ولا ضربني ولا شتمني قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن». أو كما قال رسول الله ﷺ. [رواه مسلم]،

(١) شرح النووي على صحيح مسلم : (٦/١١٨).

وقوله: «ما نهرني» : أي ما انتهرني. قال النووي: «فيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق الذي شهد الله تعالى له به ورفقه بالجاهل ورأفته بأمته وحسن تعليمه واللطف به وتقريب الصواب إلى فهمه»(١).

وعن عائشة – رضي الله عنها – أن النبي ﷺ قال : «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه». [رواه مسلم]

قال الحافظ بن حجر ـ رحمه الله ـ: «المعنى أنه يتأتى معه من الأمور ما لا يتأتى مع ضده ، وقيل: المراد يثيب عليه ما لا يثيب على غيره والأول أوجه»(٢).

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من يحرم الرفق يحرم الخير». [رواه مسلم]

قال النووي : «وفي هذه الأحاديث فضل الرفق والحث على التخلق به(٣) وذم العنف. والرفق سبب كل خير»(٤).

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل:

الأولى: الأمر بالرفق بالناس وعدم الغلظة عليهم ففيه معنى قوله تعالى: **﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾**.

الثانية: بيان ما ينبغي أن يكون عليه من يدعو إلى الله عز وجل من مراعاة أحوال الناس وطباعهم.

الثالثة: أن من الرفق بالناس الإعراض عن جاهلهم وأن ذلك كله من البصيرة في الدعوة إلى الله تعالى.

---

(١) شرح النووي على مسلم : (٥/٢٠).

(٢) فتح الباري : (١٠/٤٤٩).

(٣) لفظ (به) ساقط من الأصل في النسخ التي لدي ولا تستقيم العبارة بدونه.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم : (١٦/١٤٥).

الرابعة: أن أذى الجاهل متوقع فالواجب نحوه الإعراض عنه ففيه توطين النفس على ذلك.

الخامسة: الاهتمام بسلامة المسلمين من الأعداء ولذا أرجأ (إظهار عمرو بن عبسة لإسلامه إلى ظهور أمره ﷺ وبين له السبب بقوله: «إنك لا تستطيع» واستشهد له بالواقع (ألا ترى حالي وحال الناس ففيه بيان ما عليه دعاة الهدى)[1].

السادسة: أهمية مفارقة المشركين ومخالفتهم ﷺ ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس حتى ترتفع فإنها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان وحينئذٍ يسجد لها الكفار) ففيه معنى قوله ﷺ : « من تشبه بقوم فهو منهم ».

السابعة: حرص الصحابة على حفظ حديث النبي ﷺ وتثبتهم في قبول الأخبار.

الثامنة: فضل الوضوء والصلاة بعده.

التاسعة: حسن خلقه ﷺ ورفقه بالجاهل وحسن تعليمه.

العاشرة: فضل الرفق وأنه « من حرم الرفق حرم الخير ».

* * *

---

(١) أي الرفق وذلك أن عمر بن عبسة رضي الله عنه لم يكن عشيرة ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم قوة يسطيع إل حمايته فارشده إلى الرجوع إلى أهله وانتظار ظهور أمرالنبي صلى الله عليه وسلم ...ألخ

المبحث الثاني والعشرون

أن من البصيرة في الدعوة إلى الله التيسير وعدم التعسير

قال الله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥] قال قتادة : « فأريدوا لأنفسكم الذي أراد الله لكم »[١]، وفي التعسير على الناس أو النفس من المشقة ما ينافي هذا المقصد الشرعي وهو إرادة التيسير وقال محمد بن صالح بن دينار التمار المدني قال : قلت للقاسم بن محمد : إنا نسافر في الشتاء وفي رمضان فإن صمت فيه كان أهون عليّ من أن أقضيه في الحر قال: قال تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ ما كان أيسر عليك فافعل »[٢] وقد تقرر لدى جمهور الأصوليين : أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. فيدخل في ذلك الدعوة إلى الله تعالى.

وقال الله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]

قال أبو جعفر الطبري : « يريد الله أن ييسر عليكم »[٣] ومن ذلك التيسير على الناس وعدم التعسير لاسيما وقد ختم هذا الخبر بقوله ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ وذلك كالتعليل للتخفيف وهي عامة فيدخل فيها جميع المدعوين.

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره : (٣/٤٧٦).

(٢) تفسير الطبري : (٣/٤٦٩).

(٣) تفسير الطبري : (٨/٢١٥).

وقال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

[النساء:٩٤]

قال أبو جعفر الطبري : ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ يقول فلا تعجلوا بقتل من أردتم قتله ممن التبس عليكم أمر إسلامه فلعل الله أن يكون قد منّ عليه من الإسلام بمثل الذي من به عليكم ، وهداه لمثل الذي هداكم له من الإيمان »[١].

وقال ابن عباس – رضى الله عنهما – : « حرم الله على المؤمنين أن يقولوا لمن شهد أن لا إله إلا الله (لَستَ مُؤمِنًا) ، كما حرم عليهم الميتة ، فهو آمن على ماله ودمه ولا تردوا عليه قوله »[٢] ولاشك أن من قال لا إله إلاّ الله في مواطن القتال قد يقصد به التخلص من القتل وقد يكون صادقاً والقرينة تشهد برجحان الأول وفي تقديم هذا الرجحان إزهاق نفس بغير يقين في استحقاق ذلك مع منافاته للتيسير ولأن اليقين متعذر حتى في مواطن الأمن فكان مقتضى التيسير أن تجرى الأحكام على الظواهر وتوكل السرائر إلى علاّم الغيوب .

وقال تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] .

وقال تعالى : ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [المؤمنون:٦٢]، يستوي في هذا ما يعمله المرء وما يطلبه من غيره.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» . [رواه البخاري]

---

(١) تفسير الطبري : (٩/٧١).

(٢) المصدر نفسه : (٩/٨١).

المشادة: المقاواة، والمعنى: لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب[١].

قال ابن المنير: «ليس المراد منع الأكمل في العبادة فإنه من الأمور المحمودة بل منع الإفراط المؤدي الى الملال، والمبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل»..[٢]
وقال الحافظ ابن حجر: «قد يستفاد من هذا الإشارة إلى الأخذ بالرخصة الشرعية فإن الأخذ بالعزيمة في موضع الرخصة تنطع»[٣] ومعنى «فسددوا وقاربوا وأبشروا» أي الزموا السداد وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط فإن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب منه وأبشروا بالثواب على العمل الدائم وإن قل والمراد تبشير من عجز عن العمل بالأكمل بأن العجز إذا لم يكن من صنيعه لا يستلزم نقص أجره وأبهم المبشر به تعظيماً وتفخيماً[٤].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا». [متفق عليه]، وفي رواية: «سكنوا ولا تنفروا».

قال الحافظ ابن حجر: «المراد تأليف من قرب إسلامه وترك التشديد عليه في الابتداء، وكذا الزجر عن المعاصي ينبغي أن يكون بتلطف يقبل وكذا تعليم العلم ينبغي أن يكون بالتدريج لأن الشيء إذا كان في ابتدائه سهلاً حبب إلى من يدخل فيه وتلقاه بانبساط وكانت عاقبته غالباً الازدياد بخلاف ضده»[٥] وقال أيضاً: «أمر بالتيسير والمراد به الأخذ بالتسكين تارة وبالتيسير أخرى من جهة أن التنفير يصاحب المشقة غالباً وهو ضد التسكين، والتيسير يصاحب التسكين غالباً وهو ضد التنفير»[٦].

---

(١) فتح الباري: (١/٩٥).
(٢) المصدر نفسه: (١/٩٥).
(٣) فتح الباري: (١/٩٥).
(٤) المصدر نفسه: (١/٩٥).
(٥) المصدر نفسه: (١٠/٥٢٥).
(٦) المصدر نفسه: (١٠/٥٢٥).

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى : أن هذا الدين مبني على التيسير وعدم التعسير وأن ذلك ما أراده الله بهذه الأمة فيما شرعه لهم من الشرائع .

الثانية : بيان السبب في تخفيف الله على عباده وهو قوله : **﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾** .

الثالثة : أن الحكم على الناس مبني على الظاهر وأما الباطن فيوكل إلى الله وفي ذلك من التيسير ما لا يخفى .

الرابعة : عظم حرمة المؤمن عند الله تعالى وأن مفتاح الإيمان (لا إله إلا الله) فمن قالها حرم ماله ودمه إلا بحقها وحسابه على الله .

الخامسة : الأمر بلزوم السداد في القول والفعل وأنه الصواب ولا يكون كذلك إلا إذا وقع موافقا للكتاب والسنة المطهرة .

السادسة : التحذير من الغلو والتعمق في الدين وأن ذلك بمنزلة المغالبة للدين ولن يغلبه أحد ولهذا قال النبي ﷺ : «عليكم من الأعمال بما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا» .

السابعة : أن من حرص على مقاربة الكمال إذا عجز عن بلوغه نال درجته ما لم يكن عجزه بسبب منه .

الثامنة : الحث على استغلال أوقات النشاط في فعل الطاعات (واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة)(١) .

التاسعة : الأمر بالتيسير على الناس والنهي عن التنفير وبيان المراد بهما .

---

(١) المعنى : استعينوا على مداومة العبادة بإيقاعها في الأوقات المنشطة . والغدوة : سير أول النهار ، والروحه : السير بعد الزوال ، والدلجة سير آخر الليل .

العاشرة: الأمر بتبشير الناس بما أعد الله لعباده من الثواب العاجل والآجل.

الحادية عشرة: الأمر بمراعاة، أحوال الناس من التيسير والتسكين والتبشير وأن السنة فعل كل واحد في الحال المناسبة له إذا لم يكن الفعل محدداً من قبل الشارع بوقت.

* * *

المبحث الثالث والعشرون

أن من البصيرة في الدعوة إلى الله تنزيل الناس منازلهم

قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩] وإذاً فالتسوية بينهم خلاف البصيرة وتنزيل كل شيء في منزلته لاسيما في مجال الدعوة إلى الله تعالى من البصيرة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وفي هذا دليل على تفاوت منازل الناس عند الله بحسب تقواهم لله تعالى وعلى المؤمنين أن يتمسكوا بهذا المنهج لا سيما الدعاة إلى الله وذلك مما يشد من دعوتهم ويقوي في أتباعهم صدق التوجه إلى الله وحسن التنافس في مجال تقوى الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم:٣٥] لأن المساواة بينهم ضرب من الجور والله منزه عن ذلك فعلى الداعية أن يتنبه في مقابلاته وحديثه وسائر معاملاته حتى لا ينتقض عليه أمره فيستريب الناس في دعوته.

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨] وإذا كان الله لم يجعلهم سواء فعلى الداعية أن يضع كلاً في منزلته التي أنزله الله إياها.

وقال تعالى: ﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:١٠٠].

قال ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ: «قل يا محمد لا يعتدل الرديء والجيد، والصالح والطالح، والمطيع والعاصي (وَلَو أَعجَبَكَ كَثرَةُ الخَبِيثِ) يقول: لا يعتدل

العاصي والمطيع لله عند الله ولو كثر أهل المعاصي فعجبت من كثرتهم لأن أهل طاعة الله هم المفلحون الفائزون بثواب الله يوم القيامة وإن قلوا دون أهل معصيته، وأن أهل معاصيه هم الأخسرون الخائبون وإن كثروا... فلا تعجبن من كثرة من يعصى الله فيمهله ولا يعاجله بالعقوبة فإن العقبى الصالحة لأهل طاعة الله عنده دونهم.. واتقوا الله بطاعته فيما أمركم ونهاكم واحذروا أن يستحوذ عليكم الشيطان بإعجابكم كثرة الخبيث فتصيروا منهم»(١). وفي هذا تنبيه هام جداً للمؤمنين عامة ولمن دعا إلى الله منهم على وجه الخصوص أن يضعوا الطيب من الناس في منزلته والخبيث منهم في منزلته مهما كثر الخبث وألاّ يغتروا بهذه الكثرة وهكذا الشأن في الأعمال والأقوال والمعتقدات(*).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج فقام عبد الله بن حذافه رضي الله عنه فقال: من أبي؟ فقال: «أبوك حذافة». ثم أكثر أن يقول: سلوني، فبرك عمر على ركبتيه، فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً. فسكت. [رواه البخاري ومسلم] وكان من مراعاة منزلة رسول الله ﷺ أن لا توجه إليه هذه الأسئلة وقد تنبه لهذا الخطأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ففعل ما فعله ﷺ. وعنه قال: سألوا رسول الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة فغضب فصعد المنبر فقال: «لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم». فجعلت أنظر يميناً وشمالاً فإذا كل رجل لافّ رأسه في ثوبه يبكي. فإذا رجل كان لاحي الرجال يدعى لغير أبيه، فقال: يا رسول الله من أبي؟ قال حذافة، ثم أنشأ عمر، فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، نعوذ بالله من الفتن، فقال رسول الله ﷺ:

(١) تفسير الطبري: (٩٦، ٩٧/١١).

(*) ولا يخفى أن وضع الطيب في منزلته، والخبيث في منزلته ومعاملة كل بما يليق بمقامه على الوجه الشرعي من الأمور المهمة التي تساعد على إظهار الحق وإبطال الباطل ونشر الفضيلة بين الناس والتنفير من الرذيلة.

« ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط ، إنه صُوِّرَتْ لي الجنة والنار حتى رأيتهما وراء الحائط » متفق عليه. قال النووي : « وأما بروك عمر رضي الله عنه وقوله ، فإنما فعله أدبا وإكراماً لرسول الله ﷺ وشفقة على المسلمين لئلا يؤذوا النبي ﷺ فيهلكوا »(١). وأحفوه : أي أكثروا في الإلحاح والمبالغة فيه. ومعنى قوله (لاحى) من الملاحاة وهي المخاصمة والسباب.

وقال الحافظ ابن حجر : « وفي الحديث.. مراقبة الصحابة أحوال النبي ﷺ وشدة إشفاقهم إذا غضب خشية أن يكون لأمر يعم فيعمهم »(٢).

وروي عن عيسي بن مريم عليه السلام أنه قال : « كن طبيباً رفيقا يضع دواءه حيث إنه ينفع »(٣) وذلك يستلزم معرفة منازل الناس.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « ما أنت محدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » أخرجه مسلم في المقدمة(٤) ومعرفة ما تبلغه عقول الناس يستدعي التعرف على منازلهم ليوضع كل في منزلته.

وقال عروة بن الزبير : (ما حدثت أحداً بشيء من العلم قط لم يبلغه عقله إلا كان ضلالاً عليه). [رواه مسلم] في المقدمة(٥) وقال عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما –: « حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله ». [رواه البخاري](٦).

وقال الزهري : « كان مجلس عمر مغتصاً من القراء شباباً وكهولاً فربما استشارهم، ويقول: لا يمنع أحدكم حداثة سنه أن يشير برأيه فإن العلم ليس على

(١) شرح النووي على صحيح مسلم : (١١٣/١٥).

(٢) فتح الباري : (٢٧٠/١٣).

(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر : (٤٤٧/١).

(٤) المصدر نفسه : (٥٣٩/١).

(٥) المصدر نفسه : (٥٣٩/١).

(٦) المصدر نفسه : (٥٤٠/١).

حداثة السن وقدمه ، ولكن الله يضعه حيث يشاء »[١] وفي هذا تنبيه هام على أن تنزيل الناس منازلهم لا يعني رد الحق إذا جاء من الأدنى بل يقبل الحق مهما كان قائله أو فاعله.

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل:

الأولى: فضل العلم وعلو منزلة العلماء وأن ذلك متقرر عند ذوي العقول من الناس.

الثانية: أن إنزال العالم منزلته من البصيرة في الدين[٢].

الثالثة: وجود التفاضل في الدنيا بين الناس وأن الآخرة أكبر تفاضلاً ففيه معنى قوله تعالى: **﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾**.

الرابعة: أن ميزان الكرامة عند الله تقواه فأكرم الناس عنده أتقاهم.

الخامسة: أن الله لا يضع المجرم في منزلة المسلم ولا المفسدين في الأرض منزلة الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

السادسة: أن الإيمان والعمل الصالح متلازمان فلا إيمان بلا عمل صالح مع الإمكان فمن جمع بينهما لم يصدر منه فساد في الأرض عن قصد وعمد فإن وقع فبجهالة، كما قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾** [الأعراف: ٢٠١].

السابعة: إطلاق الخبيث على من لا يؤمن بالله ورسوله ﷺ وأن من يؤمن بالله ورسوله فهو الطيب.

---

(١) المصدر نفسه: (١/٦١٩). ورواه أيضاً عبد الرزاق في مصنفه: (١١/٤٤٠).

(٢) فعلى الداعية مراعاة ذلك في حال نصحهم إن حاد منهم أحد عن الحق أو دعوتهم إن لم يكونوا مسلمين كما في حديث معاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن.

الثـامنة: التحذير من الاغترار بكثرة الخبيث ، والتنبيه بأن العاقل لا يقبل بذلك .

التاسعة: توقير النبي ﷺ والخوف من غضبه لئلا تنزل عقوبة الله بسبب ذلك .

العاشرة: معرفة عمر بالله ورسوله ﷺ ولذا برك بين يدي رسول الله مناشداً إياه أن يكف مستعيذاً بالله من الفتن وهذا من فقهه رضي الله عنه .

الحادية عشرة: التحذير من سؤال أهل العلم تعنتاً أو في أمر لا يترتب عليه عمل لا سيما إذا كان يترتب عليه فتنة .

الثانية عشرة: دفع كبرى المفاسد بصغراها ، فإن المفسدة الكبرى أن يشك في رسالة النبي ﷺ إذا لم يجب ، والصغرى ما يترتب على الجواب لو خالف ما يعرفه الناس مما عليه ظاهر الأمر ولهذا اشتد غضبه واخذ يقول اسألوني ويقول إن الجنة والنار صورتا له وراء الحائط إشارة إلى عظم الفتنة .

الثالثة عشرة: تشبيه عيسى ﷺ من يعلم الناس الخير بالطبيب الذي يعرف الداء ولا يصرف الدواء إلا حين يعلم أنه ينفع .

الرابعة عشرة: مراعاة عقول الناس وفهمهم فلا يخاطبون بما لا تدركه عقولهم لئلا يحملهم ضعف الفهم على تكذيب بعض ما يعرض عليهم من الحق فيهلكوا .

الخامسة عشرة: أهمية التعرف على الناس ومنازلهم حتى يتمكن الداعية من تنزيلهم منازلهم التي تليق بهم .

السادسة عشرة: تشجيع عمر على إلقاء كلمة الحق وأنه لا يشترط في قبولها سن معين بل تقبل ولو من حديث السن لأن العلم ليس بكبر سن ولا بحداثته ولكنه منحة من الله يضعها حيث يشاء .

السابعة عشرة: فقه الصحابة في الدين والبصيرة في الدعوة إلى الله رب العالمين ؛ ولهذا تأثروا من غضب النبي ﷺ وبكوا خشية لله تعالى فرضي الله عنهم أجمعين .

* * *

المبحث الرابع والعشرون

أن من البصيرة في الدعوة إلى الله تقدير المواقف

قال الله تعالى : ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:٤٤] وما ذلك إلاَّ لما هو فيه من خيلاء الملك وكبرياء السلطة فلو لم يقدر هذا الموقف ما كان لموسى أن يبلغه رسالة الله حتى تقوم عليه الحجة.

قال ابن كثير – رحمه الله – : «هذه الآية فيها عبرة عظيمة وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين»(١).

وقال وهب بن منبه: «قولا له إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة»(٢).

وقال ابن كثير : «والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين سهل رفيق ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع»(٣) وقوله : ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ أي لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة ﴿أَوْ يَخْشَى﴾ أي يوجد طاعة من خشية ربه.. فالتذكر الرجوع عن المحذور والخشية تحصيل الطاعة(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير : (٣/١٥٣).

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : فكما أن الخوف من الله يستلزم العلم به ، فالعلم به يستلزم خشيته ، وخشيته تستلزم طاعته . [مجموع الفتاوى ٢٤/ ٧].

وقال تعالى : ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء:٥٣] وذلك أن حال الخصومات من مواطن الزلل التي يحرص عليها الشيطان فأمر المؤمنين أن يقدروا هذا الموقف ليكونوا أشد احترازاً من الزلل منهم في أي موطن آخر ومن يتأمل مواطن الدعوة يعلم أن كثيراً منها يندرج تحت هذا الحكم بل هي أولى.

قال ابن كثير – رحمه الله – : «يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباده المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم وأخرج الكلام إلى الفعال ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة»(١).

وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤، ٣٥] وذلك أن دفع الشر بمثله يزيده إيقاداً فأمر النبي ﷺ بتقدير هذا الموقف بأن يدافع بالإحسان وأخبر الله أن ذلك نافع في كسر شر العداوة وتحويلها إلى ضدها من الموالاة والمحبة.

قال ابن عباس : «أي ادفع بحلمك جهل من جهل عليك»(٢) وقال : «أمره الله تعالى في هذه الآية بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل والعفو عند الإساءة فإذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم»(٣).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : «هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة فدخل بها قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة ، فقيل: دخل

(١) تفسير ابن كثير : (٣/٤٥).
(٢) تفسير القرطبي : (١٦/٣٦٢ ، ٣٦١).
(٣) نفس المرجع.

إبراهيم بامرأة هي من أحسن النساء فأرسل إليه أن يا إبراهيم من هذه التي معك؟ قال: أختي. ثم رجع إليها فقال: لا تكذبي حديثي، فإني أخبرتهم أنك أختي، والله ما على الأرض مؤمن غيري وغيرك. فأرسل بها إليه فقام إليها فقامت تتوضأ وتصلي، فقالت: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي الكافر فغط حتى ركض برجله»(١) رواه البخاري وفي رواية له: «فأتى سارة فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني. فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده. فأُخذ، فقال: ادعي الله ولا أضرك فدعت الله فأطلق. ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد فقال: ادعي الله لي ولا أضرك. فدعت فأطلق فدعا بعض حجبته فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان إنما أتيتموني بشيطان. فأخدمها هاجر فأتته وهو يصلي فأومأ بيده مهيم. قالت: رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره وأخدم هاجر»(٢) وفي رواية أنها قالت: «اللهم إن يمت فيقال هي قتلته فأرسل في الثانية أو في الثالثة»(٣) وعند مسلم «فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك فإن سألك فأخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام»(٤) فانظر كيف أن الخليل عليه السلام قدر هذا الموقف فاستعمل أخوة الإسلام مكان أخوة النسب من باب التورية تقليلاً للشر.

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «اختلف في السبب الذي حمل إبراهيم على هذه الوصية مع أن ذلك الظالم يريد اغتصابها على نفسها أختاً كانت أو زوجة، فقيل كان من دين ذلك الملك أن لا يتعرض إلا لذوات الأزواج كذا قيل

---

(١) كتاب البيوع حديث: (٢١٠٤).

(٢) كتاب الأنبياء حديث: (٣١٧٩).

(٣) كتاب البيوع حديث: (٢١٠٤).

(٤) كتاب الفضائل فضائل إبراهيم.

ويحتاج إلى تتمة وهو أن إبراهيم أراد دفع أعظم الضررين بارتكاب أخفهما وذلك أن اغتصاب الملك إياها واقع لا محالة لكن إن علم أن لها زوجاً في الحياة حملته الغيرة على قتله وإعدامه أو حبسه وإضراره بخلاف ما إذا علم أن لها أخاً فإن الغيرة تكون حينئذ من قبيل الأخ خاصة لا من قبيل الملك فلا يبالي به»(١) قلت القول بأن دين الملك أن لا يتعرض إلا لذوات الأزواج فيه نظر، لأن في القصة أنه أراد اغتصابها مع أنه قيل له بأنها أخته لكن التتمة يشهد لها ظاهر الوصية.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «لما صالح رسول الله ﷺ أهل الحديبية كتب عليّ بينهم كتاباً، فكتب محمد رسول الله ﷺ فقال المشركون: لا تكتب محمداً رسول الله، لو كنت رسولاً لم نقاتلك. فقال لعلي: «امحه» فقال عليّ: ما أنا بالذي أمحوه، فمحاه رسول الله ﷺ بيده وصالحهم على أن يدخل هو وأصحابه ثلاثة أيام ولا يدخلوها إلا بجلبان السلاح فسألوه ما جلبان السلاح فقال القراب بما فيه». [متفق عليه] وفي رواية «قالوا لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً ولكن أنت محمد بن عبد الله. فقال: «أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله». فتأمل كيف تنزل النبي ﷺ مع أهل مكة في الصلح فمحى لفظ «رسول الله» وهي حق تقديراً لموقف القوم إذ هم لا يعترفون بذلك ولو أصر على ذلك لم يتم الصلح وليس فيما أثبته النبي ﷺ ما يناقض دعوته وينافي رسالته.

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى: أن ملاطفة كبار القوم ذوي الغطرسة والكبرياء لغرض إبلاغهم دين الله من البصيرة في الدعوة إلى الله وذلك من تقدير المواقف.

الثانية: التأمل في كلام ابن كثير رحمه الله على هذه الآية الكريمة.

الثالثة: أن من الملاطفة واللين في الدعوة إلى الله التذكير بعفو الله وسعة رحمته.

(١) فتح الباري: (٦/٣٩٣).

الرابعة: بيان معنى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾.

الخامسة: أمر الله لعباده في مواقف النزاع والخصام أن يقولوا التي هي أحسن(١).

السادسة: بيان ما ينبغي فعله عند مواجهة الجهل والغضب والإساءة وأن ذلك كله يدفع بالحلم والصبر والعفو.

السابعة: بيان منزلة من تخلق بهذا الخلق الكريم.

الثامنة: أن من هدي الأنبياء تنبيه الأصحاب والأتباع والأهل وسائر الأقارب بما يتوقع تعرضهم له ليستعدوا لذلك بما يناسب المقام.

التاسعة: أن من تقدير المواقف دفع أعظم الضررين بأخفهما وأن ذلك من البصيرة.

العاشرة: منزلة سارة (زوج إبراهيم) من الإيمان وإخلاصها في الدعاء وتقديرها للموقف الذي هي فيه.

الحادية عشرة: مشروعية التوسل إلى الله بالعمل الصالح وكيفيته حيث قالت: (اللهم إن كنت آمنت بك .... إلخ) فاستجاب الله لها.

الثانية عشرة: مشروعية الفزع إلى الصلاة في الملمات وفيها معنى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ وهو ما كان يفعله رسول الله ﷺ.

الثالثة عشرة: قدرة الله على خلقه وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

الرابعة عشرة: ضعف ابن آدم وأنه حين تحل به عقوبة الله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً وتأمل كيف عرف هذا الجبار أن قوته لا تخلصه مما وقع فيه فطلب الدعاء

---

(١) في هذا تنبيه على أن في كل موقف مخرج حسن وأحسن والمطلوب أن يجتهد المسلم والداعية على وجه الخصوص في إختيار الأحسن.

منها وقد أدرك هذا فرعون من بعده فقال ﴿ **السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ** ﴾ .

الخامسة عشرة : جهل الكفار بالله عز وجل ، فهذا الجبار حين حصل له ما حصل أسند ذلك الفعل إلى الشياطين ولم يسنده إلى قدرة الله وعظيم سلطانه سبحانه وتعالى وقد يكون هذا من قبيل التعمية على الأتباع .

السادسة عشرة : موافقة الرسول ﷺ للمشركين في عدم كتابة لفظ « محمد رسول الله » ووضع مكانها « محمد بن عبد الله » وقوله (أنا محمد رسول الله ، وأنا محمد بن عبد الله) تقديراً للموقف وأن ذلك من البصيرة في الدعوة إلى الله و ليس في ذلك ما ينفي نبوته .

السابعة عشرة : تقديره ﷺ لموقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين قال : ما أنا بالذي أمحوه حيث لم يكرر عليه الأمر ولم يدخل معه في جدل ولا وجه له لوماً بل تناول الكتاب ومحاه بيده الشريفة تحقيقاً للمصلحة وأن كل ذلك من البصيرة في الدعوة إلى الله تعالى .

الثامنة عشرة : إباحة استعمال المعاريض عند الضرورة (إنها أختي) (وإنك أختي في الإسلام) .

التاسعة عشرة : أن إجابة السائل تكون من حيث الصدق والكذب بحسب توجه السؤال إلى المقصود ولذا سماه الخليل كذباً مع أنه مطابق للواقع نظراً لكونه غير مسئول عنه مع علمه بما يريده السائل لكنه مباح هنا للضرورة بل قد يتعين كما هو الحال هنا لو افترض غير إبراهيم نظراً لعظم مكانة الأنبياء عند الله تعالى وقوة توكلهم عليه .

* * *

المبحث الخامس والعشرون

أن من البصيرة في الدعوة إلى الله الحذر من أن يفتن الداعي عن بعض ما أنزل الله على رسوله ﷺ

قال الله تعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة:٤٨] ينهى الله نبيه عن اتباع أهل الكتاب في أهوائهم المخالفة لما جاءه من الحق وفي ذلك تنبيه على أن ما خالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو من الأهواء الفاسدة فليكن المؤمن على حذر.

قال أبو جعفر الطبري - رحمه الله -: «اعمل بكتابي الذي أنزلته إليك إذا احتكموا إليك فاخترت الحكم عليهم ولا تتركن العمل بذلك اتباعاً منك أهواءهم وإيثاراً لها على الحق الذي أنزلته إليك في كتابي»(١) وقال ابن سعدي - رحمه الله -: «أي لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق بدلا عما جاءك من الحق فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير»(٢).

وقال ابن كثير - رحمه الله -: «قوله: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي آراءهم التي اصطلحوا عليها وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسله ولهذا قال تعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء»(٣).

(١) تفسير الطبري: (١٠/٣٨٣).
(٢) تفسير ابن سعدي: (٢/٣٠٠).
(٣) تفسير ابن كثير: (٢/٦٦).

وقال تعالى: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة:٤٩].

قال أبو جعفر الطبري رضي الله عنه: «واحذر يا محمد هؤلاء اليهود الذين جاءوا إليك محتكمين إليك، أن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك من حكم كتابه فيحملوك على ترك العمل به واتباع أهوائهم»(١) وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «أي واحذر أعداءك اليهود أن يلبسوا عليك الحق فيما ينهونه إليك من الأمور فلا تغتر بهم فإنهم كذبة كفرة خونة»(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٢٠].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «ليست اليهود ولا النصارى راضية عنك أبداً فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم وأقبل على طلب رضى الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ أي قل يا محمد إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى يعني هو الدين(٣) المستقيم الصحيح الكامل الشامل. وقال على قوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ إلخ. فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة عياذاً بالله من ذلك فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمته »(٤).

---

(١) تفسير الطبري: (١٠/٣٩٢).

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/٦٧).

(٣) تفسير بن كثير: (١/١٦٣).

(٤) نفس المرجع.

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : «إن الله عز وجل أنزل **﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾**، **﴿... فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**، **﴿... فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** قال ابن عباس أنزلها الله عز وجل في الطائفتين من اليهود وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا –واصطلحوا– على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقاً وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق ، فكانوا على ذلك حتى قدم النبي ﷺ فذلت الطائفتان كلتاهما لمقدم رسول الله ﷺ ويومئذ لم يظهر ولم يوطئهما عليه وهو في الصلح فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلاً فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا إلينا بمائة وسق ، فقالت الذليلة : وهل كان هذا في حيين قط دينهما واحد ونسبهما واحد وبلدهما واحد ، دية بعضهما نصف دية بعض ؟ إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا وفرقاً منكم فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم ذلك فكادت الحرب تهيج بينهما فاصطلحوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم، ثم ذكرت العزيزة فقالت : والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم . ولقد صدقوا ما أعطونا هذا إلا ضيماً منا وقهراً لهم فدسوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه فدسوا إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول الله ﷺ فلما جاء رسول الله ﷺ أخبر الله رسوله ﷺ بأمرهم كله وما أرادوا فأنزل الله عز وجل : **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ﴾** إلى قوله : **﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾** ثم قال : فيهما والله أنزلت ، وإياهم عنى الله عز وجل رواه أحمد ومعنى قوله (لم يظهر) أي لم يظهر من إحدى الطائفتين تعدٍ على الأخرى وقوله (لم يوطئهما) أي لم يوافقهما النبي ﷺ على ما اصطلحا عليه من الدية .

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (قال كعب بن أسد وابن صوريا وناس من قيس بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فأتوه فقالوا : يا محمد ، إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وسلداتهم وإنا إنْ اتبعناك اتَّبَعَنا يهود ولم يخالفونا وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم ونؤمن لك ونصدقك. فأبى رسول الله ﷺ فأنزل الله فيهم: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(١) فانظر كيف يدخلون أهواءهم ويضعون لها من المبررات ما يشعر بأن القوم على حق وما هم كذلك ولكن الله عصم نبيه.

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل :

الأولى: بيان أن ما أنزل الله على رسوله ﷺ هو الحق.

الثانية: النهي عن اتباع أهواء أهل الكتاب وغيرهم من باب أولى.

الثالثة: وجوب العمل بما أنزل الله على رسوله ﷺ والحكم به بين الناس ولو كانوا أهل كتاب وعدم الالتفات إلى مصطلحاتهم المخالفة لأمر الله.

الرابعة: التحذير من فتنة أهل الكتاب لاسيما مع قوله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم».

الخامسة: بيان مكر أهل الكتاب في إيقاع الفتنه بدعاة الحق.

السادسة: تصريح بعضهم لبعض بهذه الرغبة أعاذنا الله من مكرهم .

السابعة: التنبيه على أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح وذلك أن الحكم بغير ما أنزل الله بين أهل الكتاب مفسدة وإيمانهم واتباعهم لرسول الله ﷺ كما يزعمون مصلحة فقدم النبي ﷺ دفع المفسدة على جلب المصلحة.

---

(١) تفسير الطبري : (١٠/٣٩٣).

الثامنة: التنبيه على تقديم المصالح المحققة على المظنونة.

التاسعة: أن ترك العمل بما أنزل الله بحجة توقع مصلحة عظمى فتنة وليس حكمة.

العاشرة: عناية الله برسوله ﷺ حيث أنزل عليه بيان ما عزم أهل الكتاب عليه قبل وصولهم إليه ففيه معنى قوله: ﴿**يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ**﴾.

الحادية عشرة: أن الله لا يرضى بالجور في الحكم ولو كان المتحاكمان غير مسلمين ففيه معنى قوله تعالى: ﴿**فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾.

الثانية عشرة: بيان كيف يزين الشيطان لبني آدم سوء أعمالهم فهذا الرهط من يهود يعلمون أنهم ظلمة فيما ألزموا به إخوانهم الآخرين بشأن الديات مع اتفاقهم في الدين والنسب ومع هذا يسعون في تثبيت هذا الظلم وتبريره أمام النبي ﷺ وإغراء النبي ﷺ بالوعود الكاذبة ليحملوه على موافقتهم على هذا الظلم والله لا يحب الظالمين.

* * *

المبحث السادس والعشرون

في بيان أن من البصيرة في الدعوة إلى الله الصبر على الأذى فيها

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً﴾ [المعارج:٥] يأمر الله نبيه بهذا النوع من الصبر في دعوته وهي التي وصفت بالبصيرة فعلم أن الصبر على الأذى من البصيرة. قال القرطبي: «هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله»(١).

وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧]. قال ابن كثير -رحمه الله-: «تأكيد للأمر بالصبر وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانته وحوله وقوته»(٢)، وقال الله عن رسله عليهم الصلاة والسلام أنهم قالوا لقومهم: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ [إبراهيم:١٢] وقد أمر النبي ﷺ بالاقتداء بهم.

قال ابن جرير: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ في الله وعلى ما نلقى منكم من المكروه فيه بسبب دعائنا لكم إلى ما ندعوكم إليه من البراءة من الأوثان والأصنام وإخلاص العبادة له»(٣).

وقال تعالى في شأن لقمان ووعظه لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧].

قال ابن سعدي: «لما علم أنه لا بد أن يبتلى إذا أمر ونهى وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس أمره بالصبر على ذلك»(٤).

(١) تفسير القرطبي: (١٨/٢٨٤).
(٢) تفسير ابن كثير: (٢/٥٩٢).
(٣) تفسير الطبري: (١٦/٥٣٩).
(٤) تفسير ابن سعدي: (٧/١٥٩).

وقال ابن العربي: «روى علماؤنا عن مالك: أن لقمان قال لابنه: يا بني إن الناس قد تطاول عليهم ما يوعدون وهم إلى الآخرة سراعاً يذهبون وإنك قد استدبرت الدنيا منذ كنت واستقبلت الآخرة وإن داراً تسير إليها أقرب إليك من دار تخرج عنها، وقال لقمان: يا بني، ليس غنىً كصحة، ولا نعمة كطيب نفس. وقال لقمان لابنه: يا بني لا تجالس الفجار ولا تماشهم، اتق أن ينزل عليهم عذاب من السماء فيصيبك معهم. وقال: يا بني، جالس العلماء وماشهم عسى أن تنزل عليهم رحمة فتصيبك معهم»(١). فقوله: «إن الناس قد تطاول عليهم ما يوعدون» يشير إلى سبب الإعراض عن الآخرة وذلك سبب للأذى المتوقع منهم فلا بد من توطين النفس على الصبر ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: «ولا بد للإنسان من شيئين: طاعته بفعل المأمور وترك المحظور وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور فالأول هو التقوى والثاني هو الصبر»(٢).

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: «إن استطعت أن تعمل بالرضا على اليقين فافعل وإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً»(٣).

عن قيس بن أبي حازم قال: (سمعت خباباً يقول: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة فقلت: يا رسول الله ألا تدعو الله لنا. فقعد وهو محمر وجهه فقال: «لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب وما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله» زاد بيان: «والذئب على غنمه» وفي رواية: «ولكنكم تستعجلون». [رواه البخاري]

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي: (١٤٩٥، ١٤٩٦/ ٣).

(٢) مجموع الفتاوى: (٦/ ١٠).

(٣) المصدر نفسه: (٤٠/ ١٠).

قال ابن التين : « كان هؤلاء الذين فعل بهم ذلك أنبياء أو أتباعهم » قال : « وكان في الصحابة من لو فعل به ذلك لصبر إلى أن قال : وما زال خلق من الصحابة وأتباعهم ممن بعدهم يؤذون في الله ولو أخذوا بالرخصة لساغ لهم »(١).

وعن عروة بن الزبير قال : سألت ابن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ قال : بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ قال : « أَتَقتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ » . [متفق عليه]

وعن على بن أبي طالب رضي الله عنه أنه خطب فقال : (من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت . قال: أما إني ما بارزني أحد إلا أنصفت منه ولكنه أبو بكر ، لقد رأيت رسول الله ﷺ أخذته قريش فهذا يجؤه وهذا يتلقاه ويقولون له: أنت تجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ويدفع هذا ويقول ويلكم: « أَتَقتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ » ثم بكى عليٌّ ، ثم قال: أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون أفضل أم أبو بكر ؟ فسكت القوم ، فقال:عليٌّ والله لساعة من أبي بكر خير منه ، ذاك يكتم إيمانه وهذا يعلن إيمانه » [رواه البزار](٢)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : «ولا تقع فتنة إلاّ من ترك ما أمر الله به فإنه سبحانه أمر بالحق وأمر بالصبر فالفتنة إما من ترك الحق أو من ترك الصبر »(٣).

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل :

الأولى: الأمر بالصبر الجميل وبيان معناه.

---

(١) فتح الباري : (٧/١٦٧).

(٢) انظر فتح الباري : (١٦٩، ١٧٠ /٧).

(٣) الاستقامة : (١/٣٩).

الثانية: حلم الله على من عصاه حيث لم يعاجلهم بالعقوبة وهو عليهم قادر.

الثالثة: أن الصبر الجميل من البصيرة في الدعوة إلى الله حيث أمر به.

الرابعة: أهمية الاستعانة بالله وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

الخامسة: أن الصبر على الأذى في الله دأب الصالحين من عباد الله.

السادسة: أن الصبر في الله من عزائم الأمور التي لا يقوى عليها إلا أولوا العزم من الرجال.

السابعة: بيان ما لقيه الصحابة من الأذى قبل الهجرة وجواب النبي ﷺ لخباب في هذا الشأن.

الثامنة: تشابه مواقف الكفار من المؤمنين وقوة إيمان هؤلاء الذين ذكرهم النبي ﷺ وعظم صبرهم في الله.

التاسعة: أن العاقبة للمتقين.

العاشرة: شدة ما لاقاه النبي ﷺ من الأذى وصبره على ذلك.

الحادية عشرة: شجاعة أبي بكر الصديق وقوة إيمانه.

الثانية عشرة: فضل أبي بكر الصديق رضى الله عنه وحسن بلائه في الدعوة إلى الله تعالى.

الثالثة عشرة: معرفة الصحابة قدر أبي بكر الصديق رضى الله عنهم أجمعين ولهذا نبه علي رضي الله عنه على فضله ففيه بيان ضلالة من طعن فيه ﷺ ونال من قدره.

الرابعة عشرة: معرفة الصحابة بالله تعالى حيث لا تفاضل عندهم إلا بالتقوى والعمل الصالح.

الخامسة عشرة: عظم رحمة الله بعباده وجميل عدله وسعة فضله حيث أمر بالصبر في الدعوة لتبليغ الناس ولتقوم عليهم الحجة ففيه معنى قوله تعالى: **﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾** وقوله تعالى : **﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾**.

* * *

المبحث السابع والعشرون

أن وسائل الدعوة موزونة بميزان الشرع فيما يجوز وما لا يجوز وأن ضبطها بذلك من البصيرة في الدعوة إلى الله تعالى

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

قال أبو جعفر الطبري –رحمه الله– : «يعني بذلك: والذين يعملون بما في كتاب الله ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ بحدودها، ولم يضيعوا أوقاتها ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: فمن فعل ذلك من خلقي فإني لا أضيع أجر عمله الصالح»[١] وفي قوله (يمسكون) قراءتان. الأولى: بالتشديد من مسّك بمعنى تمسّك والثانية بالتخفيف من أمسك قال في الدر المصون: «ولكن أمسك متعد قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ﴾ فعلى هذه مفعوله محذوف تقديره «يمسكون دينهم وأعمالهم بالكتاب» فالباء يجوز أن تكون للحال وأن تكون للآلة أي مصاحبين للكتاب أي لأوامره ونواهيه»[٢].

وقال القرطبي: «والقراءة الأولى أولى، لأن فيها معنى التكرير والتكثير للتمسك بكتاب الله تعالى وبدينه فبذلك يمدحون فالتمسك بكتاب الله والدين يحتاج إلى الملازمة والتكرير لعقل ذلك»[٣]، ومن التمسك بالكتاب الدعوة إلى الله تعالى واستخدام الوسائل الممكنة شرعاً لتحقيق مقاصدها.

(١) تفسير الطبري: (١٣/٢١٦).

(٢) الدرر المصون: (٥/٥٠٩).

(٣) تفسير القرطبي: (٧/٣١٣).

وقال تعالى : ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩] وقد جاء في معنى الحكمة أقوال لأهل العلم فروي عن ابن عباس –رضي الله عنهما– أنها :– المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله .وروي عن مجاهد –رحمه الله– أنها الإصابة في القول ، وعنه أيضاً أنها : العلم والفقه والقرآن.

وروي عن أبي العالية –رحمه الله– أنها خشية الله فإن خشية الله رأس كل حكمة ، وعنه أيضاً أنها الكتاب والفهم . وعن أبي مالك أنها : السنة .

قال الإمام مالك : «وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة هي الفقه في دين الله وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلاً في أمر الدنيا إذا نظر فيها وتجد آخر ضعيفاً في أمر دنياه عالماً بأمر دينه بصيراً به يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا فالحكمة الفقه في دين الله» ويرى السدي أنها : النبوة ، حكى ذلك كله ابن كثير – رحمه الله – وقال : «والصحيح أن الحكمة كما قاله الجمهور لا تختص بالنبوة بل هي أعم منها وأعلاها النبوة . والرسالة أخص ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع»(١) وقد رجح ابن جرير –رحمه الله– : أن الحكمة هي الإصابة في القول والفعل وقال إن جميع الأقوال داخلة في هذا القول «لأن الإصابة في الأمور إنما تكون عن فهم وعلم ومعرفة»(٢).

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ

(١) تفسير ابن كثير : (١/٣٢٢).

(٢) تفسير ابن جرير : (٥/٢٧٩).

كُتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴿١٢٠﴾ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

قال ابن كثير -رحمه الله- : «يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها ومن أحياء العرب ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر؛ لأنهم ﴿لا يصيبهم ظمأ﴾ وهو العطش ﴿ولا نصب﴾ وهو التعب ﴿ولا مخمصة﴾ وهي المجاعة ﴿ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار﴾ أي ينزلون منزلاً يرهب عدوهم ﴿ولا ينالون﴾ منه ظفراً وغلبة عليه ﴿إلا كتب لهم﴾ بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قُدرهم وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ كقوله : ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾ ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نفقة صغيرة ولا كبيرة﴾ أي قليلاً ولا كثيراً ﴿ولا يقطعون واديا﴾ أي في السير إلى الأعداء ﴿إلا كتب لهم﴾ ولم يقل ههنا به؛ لأن هذه أفعال صادرة عنهم ولهذا قال: ﴿ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾ وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية حظ وافر ونصيب عظيم وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجزيلة»(١) فانظر كيف اعتبر آثار الوسائل التي استخدمت في سبيل الله أعمالاً صالحة مع أنها ليست داخلة في قدراتهم وفي ذلك من الترغيب والتحريض على استخدام الوسائل المؤدية إلى تحقيق إعلاء كلمة الله تعالى والصبر على ما يلحق المؤمن من المشقة ما فيه فسبحانه من إله كريم جل جلاله وعظم سلطانه ولا إله غيره. أما نفس الوسائل فقد كتبها في سبيله، بل جعل مثل هذا كله لمن عجز عن المشاركة

(١) تفسير ابن كثير : (٢/٤٠٠).

ونفسه متعلقة بذلك فعن جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنه قال: «كنا مع الرسول ﷺ في غزاة فقال: «إن في المدينة رجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتكم وادياً إلاّ كانوا معكم حبسهم المرض» وفي رواية «إلاّ شركوكم في الأجر» رواه مسلم وعن أنس رضي الله عنه قال: رجعنا من غزوة تبوك مع النبي ﷺ فقال: «إن أقواماً خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلاّ وهم معنا حبسهم العذر». [رواه البخاري]

وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة:١٠٧-١١٠]، قال أبو جعفر الطبري - رحمه الله - : «كان أصحاب مسجد الضرار قد أتوا وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه! فقال: «إني على جناح سفر وحال شغل». أو كما. قال ﷺ: «ولو قد قدمنا أتيناكم إن شاء الله فصلينا لكم فيه». فلما نزل رسول الله ﷺ بذي أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم، أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي أو أخاه عاصم بن عدي أخا بني العجلان فقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه». فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن دخشم فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي! فدخل إلى أهله فأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله

فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه ونزل فيه من القرآن ما نزل»(١) وقال أيضاً فتأويل الكلام : والذين ابتنوا مسجداً ضراراً لمسجد رسول الله ﷺ وكفراً بالله لمحادتهم بذلك رسول الله ﷺ ويفرقوا به المؤمنين ليصلي فيه بعضهم دون مسجد رسول الله ﷺ وبعضهم في مسجد رسول الله ﷺ فيختلفوا بسبب ذلك ويفترقوا ﴿وَإِرصَادًا لِمَن حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبلُ﴾ يقول : وإعداداً له لأبي عامر الكافر الذي خالف الله ورسوله وكفر بهما وقاتل رسول الله ﷺ ﴿مِن قَبلُ﴾ (يعني من قبل بنائهم ذلك المسجد) . وذلك أن أبا عامر هو الذي كان حزب الأحزاب يعني حزب الأحزاب لقتال رسول الله ﷺ فلما خذله الله لحق بالروم يطلب النصر من ملكهم على نبي الله وكتب إلى أهل مسجد الضرار يأمرهم ببناء المسجد الذي كانوا بنوه فيما ذكر عنه ليصلي فيه فيما يزعم إذا رجع ففعلوا ذلك وهذا معنى قول الله جل ثناؤه ﴿وَإِرصَادًا لِمَن حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾(٢) .

وقال ابن كثير – رحمه الله – : (كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب وقد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير فلما قدم الرسول ﷺ مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وسار للإسلام كلمة عالية وأظهره الله يوم بدر شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحبار العرب وقدموا عام أحد فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله عز وجل وكانت العاقبة للمتقين... وكان رسول الله دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن فأبى أن يسلم وتمرد فدعى عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً فنالته

(١) تفسير الطبري : (١٤/٤٦٨).

(٢) المصدر نفسه : (١٤/٤٧٠،٤٦٩).

هذه الدعوة وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر رسول الله ﷺ في ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه وأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك»[١] ... إلخ .

وقال القرطبي –رحمه الله– : «قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وإذا كان المسجد الذي يتخذ للعبادة وحض الشرع على بنائه فقال : «من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاه بنى الله له بيتاً في الجنة» يهدم وينزع إذا كان فيه ضرر بغيره فما ظنك بسواه بل هو أحرى أن يزال ويهدم حتى لا يدخل ضرر على الأقدم»[٢] فانظر إلى شياطين الإنس كيف عمدوا إلى وسيلة هي في الأصل من أفضل القرب وأقوى أسباب جمع الكلمة وألفة القلوب ووضعوها في غير موضعها لتحقيق عكس مقاصدها الشرعية من تفريق الكلمة وتشتيت القلوب وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله فكشف الله سترهم وفضح أمرهم وأزال كيدهم فله الحمد والمنة وهكذا ينبغي أن ينظر في الوسائل الشرعية في عينها وكيفية وضعها ومكانها فقد تستقيم في عينها وكيفيتها وتنحرف في مكانها كالقراءة في السجود والركوع فإنه لا يجوز مع كونه في الأصل من أفضل القرب في موضعها .

وقال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [المائدة:٣٥] والوسيلة : القربة في قول أكثر المفسرين[٣] .

---

(١) تفسير ابن كثير : (٢/ ٣٨٧،٣٨٨) .

(٢) تفسير القرطبي : (٨/ ٢٥٥) .

(٣) انظر تفسير الطبري : (١٠/ ٢٩٠،٢٩١) .

وقيل المحبة ، قاله ابن زيد وقرأ قوله تعالى : ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ**﴾ [الإسراء:٥٧](١) والقول بأنها القربة أعم.

وفي حديث جابر بن عبدالله –رضي الله عنهما– : أن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامة » . [رواه البخاري]

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني –رحمه الله – : « الوسيلة هي ما يتقرب به إلى الكبير يقال : توسلت . أي تقربت وتطلق على المنزلة العلية ووقع ذلك في حديث عبدالله بن عمر وعند مسلم بلفظ « فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلاّ لعبد من عباد الله » . . . الحديث . ونحوه للبزار عند أبي هريرة . ويمكن ردها إلى الأول بأن الواصل إلى تلك المنزلة قريب من الله فتكون كالقربة التي يتوسل بها »(٢) . ومن لا حظ الأمر بالتقوى والجهاد عرف صحة ما قاله الحافظ وعليه فتدخل كل قربة في هذا الأمر من الوسائل والمقاصد .

وعن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك » . [متفق عليه]

قال النووي : « وأما هذه الطائفة فقال البخاري هم أهل العلم ، وقال أحمد بن حنبل إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم . قال القاضي عياض : إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد أهل الحديث قلت : ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين منهم شجعان مقاتلون ومنهم فقهاء ومنهم

(١) نفس المرجع.

(٢) فتح الباري : (٢/٩٥).

محدثون ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ومنهم أنواع أخرى من الخير ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض .وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة فإن هذا الوصف ما زال بحمد الله تعالى من زمن النبي ﷺ إلى الآن ولا يزال حتى يأتي أمر الله المذكور في الحديث »[١] وصدق –رحمه الله – فإنه ما زال ظاهراً إلى يومنا هذا وسيظل حتى يأتي أمر الله.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سمع بالدجال فلينأ عنه ، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات أو لما يبعث به من الشبهات ». رواه أبو داود . وفيه دليل على وجوب ابتعاد المؤمن عن أصحاب الشبهات إذا لم يكن لديه من الفقه في الدين والعلم بالكتاب المبين والسنة المطهرة ما يقيه الوقوع في حبائلهم وأما خصوص الدجال فهو واجب على الكل لعظم فتنته واليأس من هدايته وقد جاء الأمر لعموم المؤمنين فيؤخذ على عمومه وفيه مشروعية التحذير من أصحاب الشبهات حماية للدين ووقاية للمؤمنين ، والله المستعان.

وعن علي رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد الغنوي والزبير بن العوام وكلنا فارس قال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعه إلى المشركين ». فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ فقلنا : الكتاب. فقالت : ما معنا كتاب ، فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتاباً فقلنا : ما كذب رسول الله ﷺ لتخرجنّ الكتاب أو لنجردنك. فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها ، وهي محتجزة بكساء فأخرجته فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ فقال عمر : يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني فلأضرب عنقه فقال النبي ﷺ : « ما حملك على ما صنعت؟ ».

---

(١) شرح النووي : (١٣/٦٧،٦٦).

قال حاطب : والله ما بي أن لا أكون مؤمناً بالله ورسوله ﷺ ، أردت أن يكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي وليس أحد من أصحابك إلا له من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله . فقال النبي ﷺ : «صدق، ولا تقولوا له إلا خيراً» فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني فلأضرب عنقه فقال: «أليس من أهل بدر؟» فقال: «لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم، فقد وجبت لكم الجنة أو قد غفرت لكم». فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم. [رواه البخاري]

فتبين بهذا أن الوسائل ليست توقيفية فقد أمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وصاحبيه رضي الله عنهم بالانطلاق ولم يحدد لهم الوسيلة فأشار علي رضي الله عنه إليها بقوله «وكلنا فارس» وأخبرهم ﷺ بوجود الكتاب مع هذه المرأة ولم يحدد لهم كيفية الحصول عليه منها ففعلوا من الوسائل ما توصلوا به إلى المطلوب وتدرجوا من السهل إلى الأشد وهددوا بارتكاب ما هو محظور لدفع ما هو أشد حضراً ، وأن الوسائل إذا لم تكن مباحة لم يجز استخدامها إلا لدفع ما هو أشد ولهذا أبطل الله الوسيلة التي استخدمها حاطب، ووقى المسلمين شرها واعتبرت زلة غفرها الله لمكانه في غزوة بدر.

قال ابن العربي – رحمه الله – : «إن دلسة حاطب على النبي ﷺ بما كتب به إلى أهل مكة من جملة المعاصي الكبائر والذنوب الفواحش لكنها لم تخرجه من الإيمان لما كانت من معاصي الأعمال وكان قلبه خالصاً لكنه توهم أمراً عصى بفعله لأجله وكان في كتابه تعظيم الإسلام فإنه قال فيه إن رسول الله ﷺ وارد عليك بجنود كالسيل في الليل»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ حين أراد حنيناً: «منزلنا غداً –إن شاء الله– بخيف بني كنانة ، حيث تقاسموا على الكفر» رواه

(١) عارضة الأحوذي : (١٢/١٩٢).

البخاري في المغازي ورواه في الحج من طريق الأوزاعي وفيه : « قال النبي ﷺ من الغد يوم النحر وهو بمنى : « نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر » يعني ذلك المحصب وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب أو بني المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ . قال أبو عبدالله (يعني البخاري) بني المطلب أشبه.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : « قيل إنما أختار النبي ﷺ النزول في ذلك الموضع ليتذكر ما كانوا فيه فيشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه من الفتح العظيم وتمكنه من دخول مكة ظاهراً على رغم أنف من سعى في إخراجه منها ومبالغة في الصفح عن الذين أساءوا ومقابلتهم بالمن والإحسان ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء »(١). وقال عن اختلاف الروايتين : « ويحتمل التعدد »(٢) ولاشك أن في ذلك إظهاراً لما أنعم الله به عليه من النصر وحسن العاقبة وذلك من الشكر كما أن فيه تذكيراً بتحقيق وعد الله ليزداد الذين آمنوا إيماناً . وصفحاً جميلاً عمن أساء إليه فما نزل في هذا المنزل إلاّ نزول الشاكرين الكرماء عليه الصلاة والسلام.

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل :

الأولى : فضل التمسك بكتاب الله وأن من التمسك به الدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم العلم واستخدام وسائلها ولهذا قال الله: **﴿وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾** إذ كلها مأمور بها في الكتاب أصالة أو تبعاً.

الثانية: التنويه بشأن الصلاة لعظم شأنها وأهميتها من الدين.

الثالثة: فضل الحكمة وبيان معناها . وتأمل قول الإمام مالك رحمه الله.

(١) فتح الباري : (٨/١٥).

(٢) المرجع السابق.

الرابعة: أن الوسائل لها أحكام المقاصد وأنها تشرف بشرف مقاصدها وأن الله يثيب عليها وعلى آثارها المترتبة عليها ولو لم تكن في مقدور فاعلها . وتأمل في أقوال النبي ﷺ في أصحاب الأعذار.

الخامسة: أن الوسيلة تقبح بقبح مقصدها فانظر إلى مسجد الضرار كيف تحول إلى منكر تجب إزالته حين كان لقصد تفريق المسلمين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ﷺ وفي ذلك عظة عظيمة وتنبيه هام على أهمية الفقه في الدين حتى يستطيع المؤمن التمييز بين الوسائل المشروعة والوسائل غير المشروعة وربط ذلك بمقاصدها وأن الوسيلة ولو كانت في الأصل مشروعة فإنها إذا وضعت في غير موضعها الذي شرعت له تنقلب إلى الضد.

السادسة: الأمر بالتقرب إلى الله عز وجل بما هو أهله من فعل الطاعات وترك المنهيات ويدخل في ذلك فعل الوسائل المؤدية لعمل الطاعات وترك الوسائل المؤدية إلى معاصيه سبحانه وتعالى.

السابعة: بيان معنى الوسيلة الواردة في قوله تعالى : ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾.

الثامنة: الإخبار بقيام طائفة من أمته بأمر الله وظهورهم على من خالفهم فيدخل في ذلك استخدام كل وسيلة تمكنهم من الظهور على عدوهم في حدود القيام بأمر الله تعالى مما لا معارضة فيه لشرعه ، ففيه التنبيه على قيد المتابعة وهو معنى قوله ﷺ : «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

التاسعة: مشروعية الابتعاد عن مواطن الفتن بل وجوب البعد عنها لاسيما لمن قل علمه وضعف فقهه في دين الله تعالى .

العاشرة: عظم فتنة الدجال وأنه يجب البعد عنه ما أمكن يستوي في ذلك العالم فمن دونه ففيه أن السلامة في الدين مقدمة على ما سواها.

الحادية عشرة: أن المقاصد الشرعية إذا لم تحدد وسائلها تخير المكلف من الوسائل أفضلها ولا يأخذ بوسيلة محظورة إلاّ عند العجز عن استعمال المباح وترتب على تركها فوات مصلحة أعظم أو حصول مفسدة أشد، وإنما تعرف المصالح والمفاسد من الشرع وفي ذلك يقول العز بن عبد السلام – رحمه الله –: «وأما مصالح الآخر ومفاسدها فلا تعرف إلاّ بالنقل»(١) وقال أيضاً: «أما مصالح الدارين وأسبابها ومفاسدها فلا تعرف إلاّ بالشرع فإن خفي منها شيء طلب من أدلة الشرع وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس المعتبر والاستدلال الصحيح»(٢) وقال: «فكل مأمور به ففيه مصلحة الدارين أو إحداهما وكل منهي عنه ففيه مفسدة فيهما أو في إحداهما فما كان الاكتساب محصلاً لأحسن المصالح فهو أفضل الأعمال وما كان محصلاً لأقبح المفاسد فهو أرذل الأعمال»(٣).

الثانية عشرة: أن مقاصد الشرع منها ما حددت وسائلها ومنها ما لم تحدد. فما حدد لم يجز إحداث شيء سواه كوسائل الصلاة لتوقفه على الشرع وما لم يحدد فليس بتوقيفي كما في قصة حاطب ابن أبي بلتعة.

الثالثة عشر: حرص النبي ﷺ على إظهار نعم الله عليه والتذكير بصدق موعوده وإظهار الحق في المكان الذي أظهر فيه الباطل ليزداد إيمان المؤمنين حين يذكرون صولة الباطل وكيف زالت شوكته وعاد أكثر أهله مع المسلمين أنصاراً لدين الله تعالى فللّه الحمد والمنة.

* * *

(١) قواعد الأحكام لابن عبدالسلام ص: (٨، ١٠).

(٢) نفس المرجع.

(٣) نفس المرجع.

الباب الثاني

في دعاة الضلالة وبيان دعوتهم

المبحث الأول

بيان دعوة الضلالة وأنها الدعوة إلى مخالفة أمر الله

قال الله تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ الآيات [الأعراف:١٩-٣٦] فانظر كيف دعاهما إلى مخالفة أمر الله.

قال ابن كثير - رحمه الله - : «يذكر الله تعالى أنه أباح لآدم عليه السلام وزوجه حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلاّ شجرة واحدة ...فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في المكر والوسوسة والخديعة ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن»[١] وقال تعالى في معرض الحديث عن إبليس لعنه الله وأعاذنا منه ومن حزبه: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ [الأعراف:١٦، ١٧].

قال مجاهد: ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يعني الحق[٢] وقال ابن عباس في قوله ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أشككهم في آخرتهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أرغبهم في

(١) تفسير ابن كثير: (٢/٢٠٥).

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/٢٠٤).

دنياهم ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ أُشهِّي لهم المعاصي(١) وقال ابن جرير: «فأخبر أنه يقعد لبني آدم على الطريق الذي أمر الله أن يسلكوه وهو ما وصفنا من دين الله دين الحق فيأتيهم من ذلك من كل وجوهه من الوجه الذي أمر الله به فيصدهم عنه»(٢). وعن سبرة بن أبي قاسم رضي الله عنه قال: سمعت رسول لله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك ؟ قال :فعصاه فأسلم. ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال أتهاجر وتذر أرضك وسماءك ؟ وإنما مثل المهاجر مثل الفرس في الطِّوْل. قال فعصاه فهاجر. قال: ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له: هو جهد النفس والمال فتقاتل فتنكح المرأة ويقسم المال. قال: «فعصاه فجاهد» فقال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة أو قتل كان حقاً على الله عز وجل أن يدخله الجنة وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة أو وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة».

[رواه أحمد والنسائي بسند صحيح]

وعن المسيب بن حزن قال :لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة قال: رسول الله ﷺ لأبي طالب: «يا عم قل لا إله إلاّ الله كلمة أشهد لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبدالمطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم، هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلاّ الله فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرنّ لك مالم أنه عنك». فأنزل الله تعالى ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى﴾ الآية. [متفق عليه] فتأمل دعوة هذين

---

(١) المصدر نفسه (٢/٢٠٤).

(٢) تفسير الطبري: (١٢/٣٤١).

الرجلين لعم النبي ﷺ إلى مخالفة أمر النبي ﷺ تجدها تسير على نفس الخط الذي يسير عليه الشيطان وسار عليه في الوقيعة بأبينا آدم عليه الصلاة والسلام .ومن هذا الباب ما نقل عن بعض دعاة النصرانية أنه قال: «إن مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها»(١). وقال آخر «إن عدونا الأول في العالم هو الإسلام»(٢) فانظر إلى أي شيء يدعون الناس؟ !إنها الدعوة إلى مخالفة أمر الله عز وجل.

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: أن الحسد والسعي بالمكر والخديعة من صفات دعاة الباطل.

الثانية: أن دعوة أهل الباطل مخالفة لشرع الله وبذلك يعرفها علماء الشرع فيردونها ولهذا أرشد الله إلى سؤالهم ﴿ فَاسأَلُوا أَهلَ الذِّكرِ إِن كُنتُم لاَ تَعلَمُونَ﴾.

الثالثة: أن من مكر دعاة الباطل تصوير أوامر الشرع بصور تنفر منها نفوس الناس ليتمكنوا منهم فيضلونهم.

الرابعة: أن من مكر دعاة الباطل تظاهرهم بالنصح حين يدعون الناس إلى مخالفة أمر الله وتأكيد دعواهم بالأيمان الكاذبة.

الخامسة: أن دعاة الباطل يأتون إلى الناس من يأبي الشهوات والشبهات وبذلك يتمكنون من صد كثير من الناس عن الهدى(٣).

(١) أثر الإسلام في تكوين الشخصية الجهادية للفرد والجماعة: ص١٢.

(٢) أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية: ص١١.

(٣) يجب على المسلم والداعية على وجه الخصوص أن لا يغتر بما يلقه أهل الباطل من الألقاب التي يلصقونها بأعمال المسلمين أو أقوالهم أو عقيدتهم، فإنهم يهدفون من ورائها إلى تنفير الناس من شريعة الله وهدي رسوله ﷺ ونع هذا يجب عرض الأعمال والأقوال والمعتقدات على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فما كان الأمر قد ثبت به أو النهي عنه فإمتثال خير وصلاح وبر وإحسان ولا وجه لما يطلقونه، وما لم يثبت ولم يكن له أصل منها يحمل عليه ترك فالحق أحق أن يتبع وإن كنا نجزم أن أهل الباطل لا يريدون للمسلمين خيراً.

السادسة : بيان السبب في حرص الشيطان على غواية ابن آدم وأنه الكبر والحسد.

السابعة : قعود الشيطان في جميع طرق الحق ليصد الناس عن دين الله .

الثامنة : فضل من خالف دعوات الشياطين من الإنس والجن فتمسك بالحق الذي أنزله الله على رسوله عليه الصلاة والسلام.

التاسعة : أن من خداع ومكر دعاة الباطل التشكيك والتلبيس على الناس في أمر دينهم وترغيبهم في الدنيا على وجه يخالف شرع الله تعالى.

العاشرة : أن من مكر دعاة الباطل تزيين المعاصي للناس ودفعهم إليها.

الحادية عشرة : أن دعاة الباطل لا مكان لهم مع وجود علماء الشريعة الربانيين وإنما يقوم سوقهم عند ذهاب هؤلاء العلماء حساً أو معنى(١) .

الثانية عشرة : حرص دعاة الباطل على باطلهم حتى في أصعب الحالات مثل حال أبي طالب واستخدام الأساليب المؤثرة.

الثالثة عشر : إدراك أعداء الإسلام أن مكمن القوة للمسلمين في هذا الدين، وحرصهم على إبعادهم عنه حتى يستطيعوا السيطرة عليهم.

* * *

(١) ذهاب العلماء (حساً) بأن يموتوا ولم يكن لهم من يرث منهم العلم والعمل، ومعنى بأن يمنعوا من قول الحق ونشر العلم.

المبحث الثاني

بيان دعاة الضلالة وما هو فيه من العمى والغواية

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١] فهذه الأفعال الثلاثة (الكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء، وقتل الذين يأمرون بالقسط) تدل على تخبط القوم في الضلالة.

كما قال الشاعر:

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

فإن جحد آيات الله مع وضوحها وقتل الأنبياء وهم قادة الإصلاح وأئمة الهدى في كل أمة وقتل من يأمر بالعدل لا يفعله إلا من يعيش في العمى والغواية.

قال ابن كثير – رحمه الله –: «هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب بما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً التي بلغتهم إياها الرسل استكباراً عليهم وعناداً لهم وتعاظماً على الحق واستنكافاً عن اتباعه ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم إلا لكونهم دعوهم إلى الحق»(١).

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج:٨-١٠] فأخبر أن جدالهم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وهذا غاية الجهل والضلال.

(١) تفسير ابن كثير: (١/٣٥٥).

قال ابن كثير– رحمه الله –: «أي بلا عقل صحيح ولا نقل صريح بل بمجرد الرأي والهوى»(١).

عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين» رواه الترمذي وتقدم بيانه في القسم الأول .وإنما وصفوا بهذا الوصف لأنهم على ضلالة عمياء ويدعون الناس إليها(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بالله من إمارة الصبيان» قالوا وما إمارة الصبيان؟». قال: «إن أطعتوهم هلكتم - أي في دينكم - وإن عصيتموهم أهلكوكم». (أي في دنياكم بإزهاق النفس أو بإذهاب المال أو بهما). [رواه ابن أبي شيبة](٣) وهذا لا يحصل إلاّ من أهل الضلال ولا يفعل ذلك من كان على بصيرة من دينه ويحصل بذلك من الحرج لمأشار إليه الحديث. وفي كتاب النبي ﷺ إلى هرقل عظيم الروم: «أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين». [رواه البخاري] وذلك انه على ضلالة فبقاؤه على حاله يعني إصراره على الضلالة. والناس - كما قيل - على دين ملوكهم فيهلكون بسببه ويكون عليه مثل آثامهم. قال الخطابي :«أراد أن عليك إثم الضعفاء والأتباع إذا لم يسلموا تقليداًله، لأن الأصاغر أتباع الأكابر»(٤) قال الحافظ بن حجر: ط«قلت وفي الكلام حذف دل المعنى عليه وهو: فإن عليك مع إثمك إثم الأريسيين، لأنه إذا كان عليه إثم الأتباع بسبب أنهم تبعوه على استمرا ر الكفر فلأن يكون عليه إثم نفسه أولى»(٥).

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/٢٠٨).

(٢) إن كلمة "أئمة "تشير إلى عظم البلاء الذي يحصل للناس لهم من تزعمهم لطريق الباطل وصدهم عن سبيل الله كثيراً وإخراجهم الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل.

(٣) انظر :فتح الباري: (١٣/١٠).

(٤) المصدر نفسه (١/٣٩). (٥) المصدر نفسه: (١/٣٩).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بعث علي رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بذهيبة فقسمها بين الأربعة الأقرع بن حابس الحنظلي ثم المجاشعي ، وعيينه بن بدر الفزاري ، وزيد الطائي ثم أحد بني نبهان وعلقمة بن علاثة العامري ثم أحد بني كلاب ، فغضبت قريش والأنصار قالوا: يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا ؟ قال «إنما أتألّفهم». فأقبل رجل غائر العينين ، مشرف الوجنتين ، ناتئ الجبين ، كث اللحية محلوق، فقال: اتق الله يا محمد! فقال: «من يطع الله إذا عصيت؟ أيأمنني الله على أهل الأرض ولا تأمنوني! فسأله رجلٌ قَتْلَه - أحسبه خالد بن الوليد - فمنعه فلما ولَّى قال: «إن من ضئضيء هذا - أو من عقب هذا - قوم يقرؤون القرآن لا يتجاوز حناجرهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية ، يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد». [متفق عليه]. قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: «قوله: (لا يجاوز) يحتمل أنه لا تفقهه قلوبهم ويحملونه على غير المراد ويحتمل أن يكون المراد أن تلاوتهم لا ترتفع إلى الله ، وقوله «يمرقون من الدين» إن كان المراد به الإسلام فهو حجة لمن يكفر الخوارج ويحتمل أن يكون المراد بالدين الطاعة فلا يكون فيه حجة وإليه جنح الخطابي»(١) وقال في كتاب المغازي: «قوله (يمرقون من الدين) في رواية سعيد بن مسروق «من الإسلام وفيه رد على من أوَّل الدين هنا بالطاعة، وقال: إن المراد أنهم يخرجون من طاعة الإمام كما يخرج السهم من الرميَّة وهذه صفة الخوارج الذين كانوا لا يطيعون الخلفاء. والذي يظهر أن المراد بالدين الإسلام كما فسرته الرواية الأخرى وخرج الكلام مخرج الزجر وأنهم بفعلهم ذلك يخرجون من الإسلام الكامل»(٢) وقوله: (فسأَلَهُ رجلٌ قَتْلَه) أي أن يأذن له في قتله. وقوله: أحسبه خالد بن الوليد. وفي رواية: فقال عمر.

---

(١) انظر :فتح الباري : (٦/٦١٨).

(٢) المصدر نفسه: (٨/٦٩).

قال ابن حجر – رحمه الله –: « لا ينافي قوله في تلك الرواية (فقال خالد) لاحتمال أن يكون كل منهما سأل في ذلك »[١].

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: الوعيد الشديد لمن كفر بآيات الله وقتل الأنبياء والآمرين بالعدل من أتباعهم.

الثانية: عظم جرم هذه الفئة من الناس لما ينشأ عن فعلهم هذا من تثبيت الباطل ومنع الحق أن يصل إلى الناس وتثبيت الجهل.

الثالثة: تفسير ابن كثير للآية الأولى وبيان أنها ذم لأهل الكتاب وهم اليهود والنصارى لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فتعم[٢].

الرابعة: بيان أن دعاة الضلالة يقيمون جدالهم على مجرد الرأي والهوى لا يعتمدون على عقل صحيح ولا نقل صريح.

الخامسة: خوف النبي ﷺ على أمته من الأئمة المضلين[٣].

السادسة: استعاذة النبي ﷺ من إمارة الصبيان وبيان العلة في ذلك.

السابعة: التنبيه على أنه لا يأمر بمعصية الله وهو يعلم أنها كذلك إلاّ سفيه لأن الخير كل الخير في طاعة الله ولهذا وصفوا « بالصبيان ».

الثامنة: التنبيه على أن الصبا قرين السفه في الغالب ولذا فسر إمارة الصبيان بهذا التعريف.

التاسعة: أن هذا التفسير يدل على أن المراد بالصبي صغير السن وصغير القدر كما نبه على ذلك الحافظ ابن حجر في الفتح[٤].

---

(١) المصدر نفسه: (٦/٦١٨).

(٢) فتعم كل من اتصف بصفاتهم التي ذكرت في الآية.

(٣) وإنما ذلك لعظم البلاء بهم.

(٤) المصدر نفسه: (٩/١٣).

العـاشـرة: عظم المسئوليـة على الأئمة وأن عليهم إثم أتباعهم إن كانوا ضالين كما أن لهم مثل أجورهم إن كانوا صالحين كما تقدم.

الحـادية عـشـرة: بيان تخبط أهل الضلال في ضلالهم من أهل الفرق الضالة (يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان) ومع هذا يزعمون أنهم يدعون إلى الله وينصرون دينه.

* * *

المبحث الثالث

في كون أهل النفاق من دعاة الباطل وبيان بعض صفاتهم

قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩] فأخبر أن المنافقين يتخذون الكافرين أولياء بمعنى أعواناً وأنصاراً وإنما ذلك ضد الحق وأهله فيما يفعلون من المكايد وما يبثونه من الإشاعات وما يقومون به من كشف عورات المسلمين لأعدائهم.

قال القرطبي: « تضمنت المنع من موالاة الكافرين وأن يتخذوا أعواناً على الأعمال المتعلقة بالدين »(١).

وقال ابن كثير :« وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين بمعنى أنهم معهم في الحقيقة يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة ويقولون لهم إذا خلوا بهم إنما نحن معكم إنما نحن مستهزءون أي بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة » ثم قال : « المقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله والإقبال على عبوديته والانتظام في جملة عباده الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد »(٢).

وقال تعالى: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧] فهذا منهجهم وهذه دعوتهم أمر بالمنكر ونهي عن المعروف .

(١) تفسير القرطبي : (٥/٤١٦).

(٢) تفسير ابن كثير : (١/٥٦٦).

قال ابن كثير – رحمه الله –: «يقول تعالى منكراً على المنافقين الذين على خلاف صفات المؤمنين ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الإنفاق في سبيل الله»(١).

عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المنافق كالشاة العائرة بين غنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة» رواه مسلم .ففيه بيان لبعض صفاتهم كما قال تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ﴾ [النساء:١٤٣]

قال النووي: العائرة المترددة الحائرة لا تدري لأيهما تتبع ومعنى تعير أي تردد وتذهب»(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ الآية[آل عمران:١٨٨](٣) [متفق عليه]

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: الوعيد الشديد للمنافقين والسخرية بهم من قبل الله رب العالمين حيث استعمل في الوعيد لفظ البشرى على سبيل التهكم والسخرية.

الثانية: بيان السبب الذي استحق به المنافقون هذا الوعيد وهو اتخاذهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

(١) تفسير ابن كثير: (١/٣٦٨).

(٢) شرح النووي على مسلم: (١٧/١٢٨).

(٣) نص الآية: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:١٨٨].

الثالثة : تحقير هذا الفعل من المنافقين وتسفيه أحلامهم.

الرابعة : تنبيه القرطبي رحمه الله على مسألة الاستعانة بالكفار في أمور الدين.

الخامسة : التهييج على طلب العزة من الله تعالى والترهيب الشديد من طلب ذلك من غير الله .

السادسة : أن المنافقين على خلاف صفات المؤمنين فيما يأمرون به وما ينهون عنه.

السابعة : تشبيه النبي ﷺ المنافقين بالشاة العائرة ، ففيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ **مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً** ﴾ [النساء:١٤٣] .

الثامنة : إن من صفات المنافقين أنهم يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا بخلاف المؤمنين فإنهم يعملون ويخافون ألاّ يقبل منهم.

* * *

المبحث الرابع

في بيان بعض دعاة الضلالة وأن طريقهم عمياء

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج:٨-٩] فانظر إلى حال هؤلاء الناس في جدالهم: ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ فلا عقل صحيح ينظرون به ولا نقل صريح يعتمدون عليه وإنما هو الهوى واتباع الظنون مع هذا كله يتكبرون ويتعالون على الحق إذا عرض عليهم بحججه.

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا». [رواه مسلم]

فإذا انتصب الجاهل للفتوى فقد دخل الضلال من أوسع أبوابه دعوة وعملاً فهلك وأهلك غيره فدل هذا الحديث أن من دعاة الضلالة الذين يفتون الناس بغير علم.

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: أن دعاة الباطل لا يعتمدون في دعوتهم على عقل صحيح ولا نقل صريح بل بمجرد الهوى واتباع الظنون (وتقدم).

الثانية: ما عليه دعاة الباطل من الكبر والتعالي على الحق.

الثالثة: أن من أفتى بغير علم فقد ضل وأضل غيره.

الرابعة: أن الفتوى لا تغير حكم الله وإنما هي من باب الخبر عن الله ورسوله ﷺ فإن كانت بعلم فنعما هي وإلاَّ فويل له من الله.

* * *

المبحث الخامس

أن دعاة الضلالة يتعمدون الكذب على الله ويختارون الضلالة ويؤثرون الدنيا

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٧-٧٨] ﴿ يَلْوُونَ﴾ يعني يحرفون. فأخبر أنهم يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً وهي عروض هذه الدنيا الفانية وأنهم يحرفون الكتاب الذي أنزل عليهم بقصد إيهام الناس أنه من عند الله وأنهم يتعمدون الكذب على الله فهذه ثلاث صفات لهؤلاء القوم وهي وان كان ظاهرها في أهل الكتاب إلاّ أن السلف الصالح كانوا يحتجون بالآية الأولى على كل من كتم شيئاً من الحق طمعاً في شيء من حطام الدنيا أخذاً بعموم اللفظ.

يقو ل ابن كثير – رحمه الله –: «يقول تعالى يعتاضون عما عاهدوا الله عليه من اتباع محمد ﷺ وذكر صفته للناس وبيان أمره، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة بالأثمان القليلة الزهيدة وهي عروض هذه الدنيا الفانية الزائلة: ﴿ أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ أي لا نصيب لهم فيها ولا حظ لهم منها: ﴿ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أ ي برحمة منه لهم يعني لا يكلمهم الله كلام لطف ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿ وَلا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي من الذنوب والأدناس بل يأمر بهم إلى النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١) ومعنى يعتاضون: يتخذونه عوضاً.

(١) تفسير ابن كثير: (١/٣٧٥).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف يمين صبر ليقتطع منها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان». فأنزل الله تصديق ذلك ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ** ﴾ إلى آخر الآية. قال: فدخل الأشعث بن قيس وقال: ما يحدثكم أبو عبدالرحمن؟ قلنا. كذا وكذا. قال: فيّ أُنزلت، كانت لي بئر في أرض ابن عم لي قال النبي ﷺ: «بينتك أو يمينه». فقلت: إذاً يحلف يا رسول الله. فقال النبي ﷺ: من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم وهو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان». [رواه البخاري] والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب بل إن من تعمد الكذب على الله واختار الضلالة إيثاراً للدنيا على الآخرة يدخل في هذا العموم من باب أولى.

وعن عبدالله بن عبيدالله بن أبي مليكة أن امرأتين كانتا تخرزان(١) في بيت وفي الحجرة، فخرجت إحداهما وقد انفذ بإشفى(٢) في كفها فادعت على الأخرى فرفع أمرها إلى ابن عباس، فقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «لو يعطى الناس بدعواهم لذهب دماء قوم وأموالهم». ذكّروها بالله واقرءوا عليها: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ** ﴾ فذكّروها فاعترفت فقال ابن عباس: قال النبي ﷺ «اليمين على المدعى عليه». [رواه البخاري ومسلم]

قال الحافظ ابن حجر: «فيه إشارة إلى العمل بما دل عليه عموم الآية لا خصوص سبب نزولها»(٣).

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: إن دعاة الباطل يؤثرون الدنيا على الآخرة ويتركون الحق والهدى مع علمهم به طمعاً في حطام الدنيا ولذاتها.

(١) تخرزان: تخيطان.

(٢) بإشفى: مثل المسلة (الإبرة) له مقبض يخرز به.

(٣) فتح الباري: (٨/٢١٤).

الثـانيـة: أن من صفات أهل الباطل التلبيس على الناس وإظهار الباطل في صورة الحق ، وتزيين الشر، والكذب على الله وتحريف شرعه(١) .

الثالثة: تفسير قوله تعالى: ﴿**يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ**﴾ الآية وأن المراد تحريف ما أنزل الله عليهم من الكتاب والتلبيس بذلك على الناس وأنهم يفعلون ذلك طمعاً في الدنيا.

الرابعـة: الوعيد الشديد لمن فعل ذلك بأن ﴿**لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾.

الخامسة: بيان سبب نزول هذه الآية وأنها فيمن حلف يمين صبر ليقتطع بها مال امرئ مسلم واليمين الصبر هي الفاجرة.

السادسة: استدلال ابن عباس -رضي الله عنهما- بالآية اعتباراً بعموم اللفظ وتنبيه الحافظ ابن حجر على ذلك.

السـابعـة: أن الذكرى ينتفع بها المؤمن ولهذا اعترفت هذه المرأة لما ذكّرت بهذه الآية ففيها معنى قوله تعالى: ﴿**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ وقوله تعالى: ﴿ **سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ**﴾ .

الثـامنة: عظم حرمة المؤمن عند الله تعالى حيث جاء الوعيد الشديد لمن اقتطع مال امرئ مسلم بيمينه الفاجرة وما جاء في الآية الكريمة من الوعيد .

التاسعة: أن البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه وأن هذه القاعدة فيها عصمة لدماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم .

* * *

(١) ومن ذلك ما يفعله بعضهم من بتر النصوص حيث يحذفون من النص ما يثبت به الحق ويذكرون منه ما يوافق هواهم لما يحصل من الحذف من تغير المعنى ، وكذلك تحريف النصوص وصرفها عن معانيها المقصودة لغة وشرعاً إلى معان لا تتفق مع النصوص لا لغة ولا شرعاً ، بغية التضليل.

المبحث السادس

أن دعاة الضلالة يأمرون بالفحشاء وينهون عن المعروف ويحذرون منه

قال تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٨].

قال أبو جعفر الطبري - رحمه الله -: «﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ﴾ أيها الناس بالصدقة وأدائكم الزكاة الواجبة عليكم في أموالكم أن تفتقروا ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ يعني ويأمركم بمعاصي الله عز وجل وترك طاعته»(١).

وقال الشوكاني(٢): «﴿ يَعِدُكُمُ﴾ معناه: يخوفكم الفقر أي بالفقر لئلا تنفقوا وقال: ﴿بِالْفَحْشَاءِ﴾: الخصلة الفحشاء وهي المعاصي والإنفاق فيها والبخل عن الإنفاق في الطاعات والمغفرة: الستر على عباده في الدنيا والآخرة. والفضل: أن يخلف عليهم أفضل مما أنفقوا فيوسع لهم أرزاقهم وينعم عليهم في الآخرة بما هو أفضل وأكثر وأجل وأجمل».

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦] والصد عن سبيل الله أشد أنواع النهي عن المعروف.

وقال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧] فأنكروا على شعيب

(١) تفسير الطبري: (٥/٥٧١).

(٢) فتح القدير: (١/٢٨٩).

أمره إياهم بتوحيد الله تعالى ونهيه إياهم عن التطفيف في الكيل والميزان وأن يبخسوا الناس أشياءهم وأن يعثوا في الأرض مفسدين وهو بعينه منهج الشيطان الذي تقدم في الآية.

قال ابن كثير: «﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ فنترك التطفيف عن قولك وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد»[1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن يجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ رواه الترمذي والنسائي وأخرجه ابن حبان في صحيحه.

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: أن دعاة الضلالة على عكس ما عليه دعاة الهدى.

الثانية: أن من أساليب دعاة الضلالة التخويف من فعل الخير.

الثالثة: أن من أساليب دعاة الضلالة الأمر بالفحشاء وبيان معناها.

الرابعة: أن دعاة الهدى على خلاف ما عليه دعاة الضلالة فهم يعِدُون على فعل الخير بمغفرة من الله لذنوبهم وفضل منه عليهم وبيان معناها.

الخامسة: أن دعاة الضلالة يسترخصون الأموال في الصد عن سبيل الله وطاعته ويستكثرونها إن كانت في طاعة الله.

السادسة: سوء عاقبة دعاة الضلالة الذين ينفقون أموالهم للصد عن سبيل الله وعظم ما ينتظرهم عند الله من العذاب.

---

(١) تفسير ابن كثير: (٢/٤٥٦).

السابعة: القاعدة العظيمة في تمييز عمل الشيطان من عمل الملك فيما ينتاب الإنسان من الخواطر عند فعل الخير وهكذا ينبغي أن يفعل المؤمن حين يلتقي بدعاة الهدى والضلالة أو تبلغه دعوتهم أن يميز بينهم بهذه القاعدة.

* * *

المبحث السابع

في بيان أن اتباع المتشابه من الكتاب وترك المحكم من أحوال أهل الزيغ

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

قال ابن كثير – رحمه الله –: «يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه وحكم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى ومن عكس أنعكس»(١) قال أبو جعفر الطبري – رحمه الله –: «حدثنا أبو حميد: قال حدثنا سلمه عن محمد بن إسحاق قال حدثني محمد بن جعفر بن الزبير: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾ فيهن حجة الرب، وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل ليس لها تصريف ولا تحريف عما وضعت عليه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ في الصدق لهن تصريف وتحريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم في الحلال والحرام لا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق»(٢).

وقال أبو جعفر أيضاً: «وأما المحكمات فإنهن اللواتي قد أحكمن بالبيان والتفصيل، وأثبتن حججهن وأدلتهن على ما جعلن أدلة عليه من حلال وحرام وما

(١) تفسير ابن كثير: (١/٣٤٤).

(٢) تفسير الطبري: (٦/١٧٧).

أشبه ذلك» وقال: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يعني بذلك أنهن أصل الكتاب الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود وسائر ما بالخلق إليه الحاجة من أمر دينهم، وما كلفوا من الفرائض في عاجلهم وآجلهم. وإنما سماهن ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ لأنهن معظم الكتاب وموضع مفزع أهله عند الحاجة إليه»(١).

قال ابن كثير: «إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه لأنه دافع لهم وحجة عليهم ولهذا قال الله تعالى ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن وهو حجة عليهم لا لهم كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وتركوا الاحتجاج بقوله ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ وبقوله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله وعبد ورسول من رسل الله»(٢).

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية إلى قوله ﴿إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ قالت :قال رسول الله ﷺ فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله، فاحذروهم». [رواه البخاري]. قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله –: «والمراد التحذير من الإصغاء إلى الذين يتبعون المتشابه من القرآن وأول ما ظهر ذلك من اليهود كما ذكره ابن إسحاق في تأويلهم الحروف المقطعة وأن عددها بالجمل مقدار مدة هذه الأمة ثم أول ما ظهر في الإسلام من الخوارج حتى جاء عن ابن عباس أنه فسر بهم الآية وقصة عمر في إنكاره على ضبيع لما بلغه أنه يتبع المتشابه فضربه على رأسه حتى أدماه .أخرجه الدارمي وغيره»(٣).

---

(١) المصدر نفسه: (١/١٧٠).

(٢) تفسير ابن كثير: (١/٣٤٥).

(٣) فتح الباري: (٨/٢١١).

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: بيان المراد بالمحكم والمتشابه في الآية الكريمة.

الثانية: أن المحكم هو معظم الكتاب ويرد إليه المتشابه عند أهل الحق.

الثالثة: بيان السبب في اختيار المتشابه وأنه زيغ القلب عن الحق.

الرابعة: أن دعاة الضلالة يختارون المتشابه يقصدون بذلك الفتنة وإيهام أتباعهم بأنهم يتبعون القرآن وإنما يتبعون أهواءهم.

الخامسة: الفرقان بين أهل الزيغ والفساد وبيان أهل الحق والهدى في متابعة القرآن.

السادسة: بيان الحكمة من وجود المتشابه وأنه ابتلاء من الله للعباد.

السابعة: اعتبار هذا الموقف من أهل الزيغ قاعدة يعرفون بها فيحذرون.

الثامنة: بيان ابن كثير لكيفية اتباع المتشابه بما ضربه من المثل وكذلك الحافظ ابن حجر العسقلاني.

* * *

المبحث الثامن

أن دعاة الضلالة يعتمدون على الدعوى المجردة في دينهم وسائر سلوكهم

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٢٣-٢٥] فأخبر تعالى أن قولهم ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ كذب وافتراء عليه وأن هذه الفرية غرتهم في دينهم فصاروا يعتمدون عليها فيما يقعون فيه من المخالفات الشرعية .

قال ابن كثير – رحمه الله –: «يقول تعالى منكراً على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم اللذين بأيديهم وهما التوراة والإنجيل وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد ﷺ تولوا وهم معرضون عنه ، وهذا في غاية ما يكون من ذمهم والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي إنما حملهم وجرأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم»(١) .

وقال في قوله تعالى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ «أي ثبتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياماً

(١) تفسير ابن كثير : (١/٣٥٥).

معدودات وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم واختلقوه ولم ينزل الله به سلطاناً »(١).

عن المقدام بن معدي كرب الكندي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « يوشك الرجل متكئاً على أريكته يحدث بحديث من حديثي فيقول بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وان ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله » . [رواه الترمذي وابن ماجه] فهذا الرجل بنى قوله على دعوى أن الكتاب يغني عن السنة وأنه لا حاجة إليها وهي دعوى ينبني عليها ترك كثير من أمور الدين مما لا يمكن فهمه إلاّ عن طريق السنة.

وقال علي رضي الله عنه: إنه لا خير في عبادة لا علم فيها ولا علم لا فهم فيه ولا قراءة لا تدبر فيها » وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عليكم بالعلم فإن أحدكم لا يدري متى يفتقر إليه أو يفتقر إلى ما عنده وستجدون أقواماً يدعون إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم. عليكم بالعلم وإياكم والبدع والتنطع والتعمق وعليكم بالعتيق » رواه الدارمي .وذلك أن البدع مبناها على الدعوى المجردة من الدليل فنجد أهل البدع عندهم من الحرص عليها والاجتهاد فيها مالا يوجد له مثيل عند غيرهم وكل ذلك مبني على دعوى نسجوها من تلقاء أنفسهم أو نسجت لهم والواقع ما قال الله تعالى في شأن أهل الكتاب **﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** وقد قال النبي ﷺ : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » .

[رواه مسلم]

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: اعتماد أهل الضلالة فيما يعتقدون على الظن والأوهام ففيه معنى قوله تعالى عنهم: **﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾**.

---

(١) المصدر نفسه : (١/٣٥٦).

الثانية: أن أهل الكتاب كذبوا على الله وخدعوا أنفسهم حين قالوا: **﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾**.

الثالثة: أن الأخبار الشرعية مبناها على النقل دون زيادة أو نقصان فإن كان صحيحاً فهي صحيحة وإلاّ فلا، وأن من أُخبر بثواب أو عقاب على عمل أو أشخاص دون أن يعتمد على نقل صحيح فقد كذب على الله وظلم نفسه ومن اقتدى به ففيه معنى قوله تعالى **﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾**

[النحل:١١٦]

الرابعة: الوعيد الشديد على من كذب على الله ففيه معنى قوله تعالى **﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾**

[الزمر:٣٢]

الخامسة: عظم مكانة السنة من القرآن وأن من اعتمد على القرآن – بزعمه – وترك السنة لا يكون بمنجاة من عذاب الله إذا ارتكب مخالفة سنة رسول الله ﷺ في أمره ونهيه.

السادسة: أن ما حرم رسول الله ﷺ في سنته مثل ما حرم الله في كتابه وأنه يجب الأخذ بالسنة ولو لم يرد لما ذكرته من الأحكام شيء من القرآن، ففيه معنى قوله تعالى: **﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾** [النساء:٨٠] وقوله تعالى: **﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾**

[الحشر:٧]

السابعة: بيان منهج دعاة الضلالة وأنهم لا يحبون السنة ويتعللون بالأخذ بالقرآن وحده وليسوا على شيء.

الثـامنة: قول علي رضي الله عنه: «لا خير في عبادة لا علم فيها ...الخ» وما بعده فيه بيان للمنهج الصحيح في العبادات والقراءة وتلقي العلوم.

التاسعة: تحريض ابن مسعود على طلب العلم وبيان السبب في ذلك وتحذيره من دعاة الضلالة وكشف النقاب عن زيف دعوتهم وأن دعواهم التمسك بكتاب الله من باب التمويه والتعمية على الناس أو من باب الجهل المركب.

* * *

المبحث التاسع

أن من وسائل التضليل لدى دعاة الضلالة نسبة بعض الصالحين إليهم

قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠] فأخبر سبحانه أن نسبتهم إبراهيم إلى اليهودية أو النصرانية إنما هو من باب التضليل وكتمان الشهادة ولهذا قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آ عمران: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥]

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [آ عمران: ٦٥] فاحتج عليهم بالتاريخ إذ كيف يكون يهوديا أو نصرانياً والتوراة التي عليها اليهود والإنجيل الذي عليه النصارى فيما يزعمون ما أنزلتا إلاّ بعده بزمن طويل جداً.

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾

[النساء:١٢٣-١٢٥] فأخبر تعالى أن الجزاء عنده دائر بين الفضل والعدل فمن يعمل سوءاً يجز به أياً كان نسبه ومن يعمل صالحاً فلا يظلم شيئاً بل يضاعف له الجزاء كرماً وإحساناً وأن إبراهيم ليس على ما عليه أهل الكتاب والمشركون من اليهودية أو النصرانية أو الشرك بل هو إمام يقتدى به في الإخلاص لله وعدم الإشراك به والمتابعة لله في أمره ونهيه.

وقال تعالى عن أنبيائه ورسله ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٨٣-٩٠] فأخبر تعالى أن أنبياءه بما فيهم موسى وعيسى عليهم السلام لم يكونوا معتمدين في دينهم على الأماني والانتساب إلى الأخيار من الأباء والأجداد بل كل منهم مهتد بهدى الله الذي أنزله إليه محسن فيما يتقرب به إلى الله تعالى وبهذا يتميز دعاة الضلال من دعاة الهدى والرشاد.

وقال البخاري – رحمه الله –: «قال موسى (يعني ابن عقبة) حدثني سالم بن عبدالله – ولا أعلمه إلا تحدث به عن ابن عمر – أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي عالماً من اليهود فسأله عن دينهم فقال: إني لعلّي أن أدين بدينكم فأخبرني. فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ

بنصيبك من غضب الله. قال زيد ما أفر إلاّ من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنّى أستطيعه؟ فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلاّ أن يكون حنيفاً. قال زيد: وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلاّ الله. فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى، فذكر مثله فقال :لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله، قال: ما أفر إلاّ من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً وأنّى أستطيع؟ فهل تدلني على غيره؟ قال ما أعلمه إلاّ أن تكون حنيفاً قال: وما الحنيف قال: دين إبراهيم ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلاّ الله. فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم خرج، فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم» وقد دل هذا الأثر على أن اليهود والنصارى حين قالوا عن إبراهيم بأنه يهودي أو نصراني كان ذلك منهم محض افتراء وأنهم يعلمون أنه لم يكن كذلك.

قال الطبري - رحمه الله -: ﴿حَنِيفًا﴾ يعني متبعاً أمر الله وطاعته، مستقيماً على محجة الهدى التي أمر بلزومها. ﴿مُّسْلِمًا﴾ يعني خاشعاً لله بقلبه متذللاً له بجوارحه مذعناً لما فرض عليه وألزمه من أحكامه»(١).

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: دعوى اليهود والنصارى والمشركين أن إبراهيم كان على دينهم وأنها دعوى باطلة.

الثانية: أن هذه الدعوى قائمة على قصد التمويه والتضليل فهم يعلمون أنه ليس كذلك وتأمل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾.

الثالثة: إبطال هذه الدعوى بنفيها وإثبات ما عليه إبراهيم من الدين المغاير لما عليه اليهود والنصارى والمشركون.

---

(١) تفسير الطبري: (٦/٤٩٤).

الرابعة : بيان فائدة التاريخ وأن الله أحتج به على إبطال هذه الدعوى **﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ﴾** فكيف يكون على دين اليهود والنصارى ولم يكن لها وجود في عهده ولا قبله .

الخامسة : أن الله حكم عدل **﴿لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾**.وأنه لا قيمة للأماني المبنية على الدعاوى الباطلة وأن الجزاء من جنس العمل .

السادسة : بيان ما عليه أنبياء الله من التوحيد وصلاح العمل وأن اليهود والنصارى على خلاف ذلك ففيها إبطال كونهم على ما جاءت به رسلهم من الهدى .

السابعة : بيان حقيقة دعوى اليهود والنصارى أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً وأنهم يعلمون أنه على خلاف ذلك **﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾** ولهذا أرشدوا زيد بن عمرو بن نفيل إلى دين إبراهيم وأنه الحنيفية .

الثامنة : تفسير الطبري لكلمتي : الحنيف والمسلم .

* * *

المبحث العاشر

أن من وسائل التضليل لدى دعاة الضلالة الدخول في الإسلام ثم الخروج منه لتسمع دعواهم فيه بالباطل

قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران:٧٢].

قال ابن كثير – رحمه الله –: هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين»(١). وقال العوفي عن ابن عباس – رضي الله عنهما –: «قالت طائفة من أهل الكتاب إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فآمنوا وإذا كان آخره فصلوا صلاتكم لعلهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا»(٢).

عن عبدالله بن عباس – رضي الله عنهما – قال: «لعن الله من كمه أعمى عن السبيل» وفي رواية «ملعون من كمه أعمى عن الطريق». [رواه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان. وقال الساعاتي: سنده حسن] ومعنى (كمه): عمى عليه الطريق وأضله. فإذا كان هذا في شأن التضليل عن الطريق الحسي مع إمكان وجود من يصحح مساره فيكتشف الخطأ ويصل إلى الصواب فكيف بالتضليل لأعمى البصيرة بسبب

(١) تفسير ابن كثير: (١/٣٧٣).

(٢) نفس المصدر.

الجهل حتى يوهمه أنه على هدى وليس كذلك ؟ ولهذا قال تعالى : **﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** [الأنعام:١٤٤]

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل :

الأولى : إمعان دعاة الضلالة من أهل الكتاب في الصد عن سبيل الله كما قال تعـالى : **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾** [آل عمران ٩٩] .

الثـانيـة : أن من سمات دعاة الضلالة المكر والخداع والحيل بضعفاء الناس ليصدوهم عن سبيل الله.

الثالثة : أعمال الحيل الظاهرة والباطنة في دفع ما جاءت به الرسل.

الرابعـة : الإقرار بالحق ليتوصلوا به إلى دفعه. وهذه والتي قبلها من مسائل الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله(١) .

الخامسة : أن الدعاوى لا تقبل بدون بينة وأن الحق إنما يعرف بدليله.

السادسة : خطر التقليد الأعمى وكيف يستغله دعاة الضلالة.

السابعة : أن دعاة الضلالة يستغلون ما لهم من مكانة عند ضعفاء الناس في صدهم عن الحق وإشباع رغباتهم بخلاف دعاة الهدى فإنه لا يزيدهم تقدير الناس إياهم إلاّ نصحاً لهم وسعياً في مصالحهم ودفع الأذى عنهم وخوفاً من الله فيهم.

الثـامنة : لعن رسول الله ﷺ : « من أضل الأعمى عن الطريق » فمن أضله عن الحق كان أولى وعمى البصيرة أشد من عمى البصر قال تعالى : **﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾** [الحج:٤٦] .

---

(١) مسائل الجاهلية من مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب : (١/٣٤٤) .

المبحث الحادي عشر

أن من سمات دعاة الضلالة عدم استمرار العلم الصحيح في قلوبهم وعدم ظهوره على جوارحهم وإن تشدقوا به وظهروا في صور العلماء بألسنتهم

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٦] فانظر كيف يسألون هذا السؤال وهم من ضمن الحاضرين وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢-٣] فأخبر تعالى أن الفعل بما يخالف القول ممقوت عنده سبحانه فإذا كان ذلك بقصد التضليل كان أولى بالمقت (والمقت شدة الغضب) نسأل الله العافية.

قال ابن كثير – رحمه الله –: (إنكار على من يعد وعداً أو يقول قولاً لا يفي به)(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ [المائدة:٦١].

قال ابن كثير: «هذه صفة المنافقين منهم (أي أهل الكتاب) أنهم يصانعون المؤمنين في الظاهر وقلوبهم منطوية على الكفر»(٢).

وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون:١].

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/٣٥٧).

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/٧٤).

قال ابن كثير: «لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه»[1].

وقال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة:٦٧]. «أي الخارجون عن طريق الحق الداخلون في طريق الضلالة»[2] وما كان لهم أن يفعلوا ذلك ولا أن يقبل منهم لولا أنهم يظهرون بمظهر العالم الناصح فيحصل للعامة اغترار بأقوالهم فيقعون في الهلاك وذلك بترك الحق والأخذ بالهوى وتأمل في قوله: ﴿يَأْمُرُونَ﴾ ﴿وَيَنْهَوْنَ﴾.

عن أبي عثمان النهدي قال: إني لجالس تحت منبر عمر وهو يخطب الناس فقال في خطبته: سمعت رسول الله ﷺ يقول إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة (وفي لفظ على أمتي) كل منافق عليم اللسان. رواه أحمد وقال المنذري ورواته محتج بهم في الصحيح، وقال الهيثمي رجاله موثوقون. قال الساعاتي: «أي كثير علم اللسان جاهل القلب والعمل، أتخذ العلم حرفة يتأكل بها ذا هيبة وأبهة يتعوذ بها ويتعاظم بها، يدعو الناس إلى الله ويفر هو منه»[3].

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: أن مخالفة الفعل للقول ممقوت عند الله أشد المقت وعداً كان أو غيره.

الثانية: أن هذا ليس من صفات المؤمنين ولهذا شدد النكير على فاعليه وفي الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان».

الثالثة: وجوب الوفاء بالوعد.

(١) تفسير ابن كثير: (٣٦٨/٤).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣٦٨/٢).

(٣) بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني للشيخ أحمد البنا: (٢٣٢/١٩).

الرابعة: أن من أهل الكتاب منافقين يقولون مالا يعتقدون.

الخامسة: تفنن أهل النفاق في مخاطبة المؤمنين وتعزيز قولهم بأنواع المؤكدات مبالغة في خداع المؤمنين وإيهامهم بأنهم صادقون **﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾**.

السادسة: أن من أبرز صفات دعاة الضلالة من المنافقين كونهم على خلاف طريق المؤمنين فلا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر .بل على العكس من ذلك وهذا مخالفة في الفعل لما يقولونه من دعوى الإيمان ففيه معنى قوله تعالى: **﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾**.

السابعة: أن العلم إذا لم يتخذ للعمل كان خطراً على الناس أيما خطر ووبالاً على صاحبه.

* * *

المبحث الثاني عشر

أن من دعاة الضلالة من يرى في الخروج على ولاة الأمر فضيلة وفي طاعتهم ذل ومهانة وأنهم على خلاف منهاج النبوة المطهرة

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء:٥٩].

وهذه الآية هي الأصل في السمع والطاعة لولاة الأمر. قال ابن العربي – رحمه الله –: «والصحيح عندي أنهم (أي أولي الأمر) الأمراء والعلماء، أما الأمراء فلأن أصل الأمر منهم والحكم إليهم، وأما العلماء فلأن سؤالهم واجب متعين على الخلق، وجوابهم لازم وامتثال فتواهم واجب»(١) وقال ابن كثير – رحمه الله –: «والظاهر– والله أعلم – أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء»(٢).

عن عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة». [متفق عليه] والمراد: لا سمع ولا طاعة في المعصية وعدم الطاعة في المعصية لا يلزم منه الخروج على الإمام ولا يبرره فلزوم الجماعة باق مع ذلك.

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال: «من كره من أميره شيئاً فليصبر فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية». [متفق عليه]

(١) أحكام القرآن لابن العربي: (١/٤٥٢).

(٢) تفسري ابن كثير: (١/٥١٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبية أو يدعو إلى عصبية فقتل فقتلة جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي لذي عهد عهده فليس مني ولست منه» رواه مسلم. والعمية: هي الأمر الأعمى لا يستبين وجهه»(١) وقوله: «مات ميتة جاهلية» أي على صفة موتهم من حيث هم فوضى لا إمام لهم»(٢) فهذا منهاج النبوة في هذا الباب فيما يجب وما يحرم. ودعاة الضلالة على خلافه.

وقال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة:٤٧-٤٨] وقوله ﴿إِلاَّ خَبَالاً﴾ أي فساداً بتخذيل المؤمنين فهؤلاء على خلاف منهاج النبوة فإن التخذيل والإسراع بالنميمة وطلب الفتنة كل ذلك مما حرمه الله على المؤمنين.

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى -: «﴿وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة» وقال في قوله ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ﴾ «أي لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماده مدة طويلة»(٣).

وقال تعالى عن المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ [المنافقين:٨] يعنون بذلك رسول الله ﷺ. قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - في مسائل الجاهلية بأنهم يرون «مخالفة ولي الأمر وعدم الانقياد له فضيلة وأن السمع والطاعة له ذل ومهانة فخالفهم رسول الله ﷺ وأمر بالصبر على

(١) شرح النووي على مسلم: (٢/٢٣٨).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تفسير ابن كثير: (٢/٣٦١).

جور الولاة وأمر بالسمع والطاعة لهم والنصيحة وغلظ في ذلك وأبدى فيه وأعاد»(١) وقال أيضاً: «أمر الله بالاجتماع في الدين ونهى عن التفرق فيه» وقال: «إن من تمام الاجتماع السمع والطاعة لمن تأمر علينا ولو كان عبداً حبشياً»(٢).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنه لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بأمارة، ولا أمارة إلا بطاعة». [رواه الدارمي]. وقوله: «لا إسلام إلا بجماعة» المقصود - والله أعلم - عند وجود الجماعة لأنه قد جاء في حديث حذيفة «فإن لم يكن إمام ولا جماعة قال: اعتزل تلك الفرق كلها» ولما تقدم في هذا الباب من الأحاديث.

وقال فروة بن نوفل - وكان من الخوارج -: «والله ما أدري على أي شيء نقاتل علياً»(٣) لأنه كان تحت راية عمية. ولما طلب أهل الكوفة من عثمان بن عفان رضي الله عنه أن يعزل سعيد بن العاص فأبى أن يعزله خرج الأشتر النخعي من ليلته في نفر، فسار عشراً إلى الكوفة واستولى عليها وصعد المنبر وقال: هذا سعيد بن العاص قد أتاكم يزعم أن السواد بستان لأغيلمة من قريش، والسواد مساقط رؤوسكم ومراكز رماحكم فمن كان يرى عليه لله حقاً فلينهض إلى الجرعة، فخرج الناس فعسكروا بالجرعة فأقبل سعيد حتى نزل العذيب، فجهز الأشتر إليه ألف فارس مع يزيد بن قيس الأرحبي وعبدالله بن كنانة العبدي فقال: سيروا وأزعجاه وألحقاه بصاحبه فإن أبى فاضربا عنقه، فأتياه فلما رأى الجد رجع. وصعد الأشتر منبر الكوفة وقال: يا أهل الكوفة ما غضبت إلا لله ولكم وقد وليت أبا موسى الأشعري صلاتكم، وحذيفة بن اليمان فيئكم ثم نزل وقال: يا أبا موسى اصعد. فقال ما كنت لأفعل، ولكن هلموا فبايعوا لأمير المؤمنين وجددوا البيعة في رقابكم

---

(١) مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب: (١/٣٣٥).
(٢) المصدر نفسه: (١/٣٩٤).
(٣) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك: (٥/١٣٤).

فأجابه الناس وكتب إلى عثمان بما صنع فأعجب عثمان بما صنع وولاه على الكوفة(١) فانظر كيف استثار الناس بالكذب وادعى على سعيد ما لم يقله ليصل إلى مراده من إثارة الفتنة والخروج على سلطان المسلمين فأطفأ الله الفتنة بهذا الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل :

الأولى : وجوب طاعة ولاة الأمر في غير معصية الله ورد ما تنوزع فيه إلى الكتاب والسنة وأن ذلك مقتضى الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر.

الثانية : بيان المراد بولاة الأمر وأنهم الأمراء والعلماء .

الثالثة : أن عدم طاعة ولي الأمر في المعصية لا يعني الخروج عليه ولا يبرره ففيه معنى قول أبي هريرة في شأن معاوية – رضي الله عنهما –: «أطعه في طاعة الله وأعصه في معصية الله» . [رواه مسلم]

الرابعة : وجوب الصبر على ولاة الأمر لما في ذلك من المصالح الشرعية العظيمة الدينية والدنيوية ففيه معنى قوله ﷺ : «إذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه فأكرهوا عمله ولا تنزعوا يداً من طاعة» . [رواه مسلم]

الخامسة : الترهيب من الخروج على السلطان.

السادسة : الترهيب من القتال تحت راية عمية وبيان معنى ذلك.

السابعة : الترهيب من عدم مراعاة حقوق أمة محمد ﷺ .

الثامنة : أن طاعة ولاة الأمر من تمام الاجتماع في الدين وأنه لا يرغب في الخروج على ولاة الأمر إلاّ ذو جاهلية وهي الضلالة.

التاسعة : حرص دعاة الضلالة على الوقيعة بالمسلمين.

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (عهد الخلفاء) ص٣٤١ .

العاشرة: أن من أهل النفاق من يرى نفسه أعز من ولي أمر المسلمين تكبراً عليه واستنكافاً عن طاعته.

الحادية عشرة: التشديد على قضية الجماعة لما فيها من حفظ هيبة المسلين وحقن دمائهم وقوة شوكتهم ففيه معنى قول عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا وعلى أن لا ننازع الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم». [رواه مسلم]

الثانية عشرة: العبرة من فتنة الأشتر النخعي وما صاحبها من الكذب والخداع من أجل استثارة الناس ضد ولي الأمر ثم موقف الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ثم موقف الخليفة الراشد رضي الله عنه.

* * *

المبحث الثالث عشر

أن من دعاة الضلالة من يتتبعون أخطاء العلماء -ولو تَقَوُّلاً- للنيل منهم وصد الناس عن الاستفادة منهم

قال تعالى في شأن موسى عليه السلام وفرعون لعنه الله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٨-٢١] فذكر أنه قام بتربيته وليداً وأن موسى لم يرع حق النعمة بل قابل ذلك بما فعله من القتل جاحداً نعمته عليه وكل ذلك من أجل التعريض به إظهاراً لعيوبه وصداً للناس عنه قال ابن كثير - رحمه الله -: «أي أما أنت الذي ربيناه فينا وفي بيتنا وعلى فراشنا، وأنعمنا عليه مدة من السنين ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة أن قتلت منا رجلاً وجحدت نعمتنا عليك ولهذا قال ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي الجاحدين»(١).

عن جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما - قال: كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال الأنصاري: ياللأنصار! وقال المهاجري: ياللمهاجرين! فسمع ذاك رسول الله ﷺ فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟» قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال: دعوها فإنها منتنة. فسمع بذلك عبدالله ابن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة

(١) تفسير ابن كثير: (٣/٣٣٢).

ليخرجن الأعز منها الأذل. فبلغ النبي ﷺ فقام عمر، فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «دعه». لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه». [متفق عليه] ومعنى كسع: ضرب دبره وعجيزته. فانظر كيف يتتبع هذا المنافق عورات المسلمين مبتغياً الفتنة مدعياً لنفسه وقومه العزة ولرسول الله ﷺ والمهاجرين الذلة قبحه الله.

وعن عثمان بن عبدالله بن وهب قال: جاء رجل من أهل مصر يريد حج البيت فرأى قوماً جلوساً فقال: من هؤلاء القوم؟ قالوا: هؤلاء قريش. قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر. قال: يا بن عمر! إني سائلك فحدثني، هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد؟ قال نعم. قال: هل تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهدها؟ قال: نعم. قال: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم. قال: الله أكبر. قال ابن عمر: تعال أبين لك، أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه. وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة فقال رسول الله ﷺ: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه». وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة لبعثه، فبعث رسول الله ﷺ عثمان إلى مكة فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى هذه يد عثمان فضرب بها على يده وقال: «هذه لعثمان». ثم قال ابن عمر: اذهب بها الآن معك». [رواه البخاري] فهذا الرجل جاء في هذا المكان الطاهر وعمد إلى حلقة ابن عمر في المسجد الحرام وبث سمومه على وجه لو نجح فيه لقام ذلك المجلس المبارك بحمل فتنته والاصطلاء بنارها ولكن الله سلم بما وفق له هذا الحبر العظيم والعالم الجليل عبدالله بن عمر حيث أبطل كل دعاويه واحدة واحدة وحولها إلى فضائل لذلك الرجل الكريم المبشر بالجنة الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وعن مرة بن كعب قال: سمعت رسول الله ﷺ وذكر الفتن فقربها فمر رجل مقنع في ثوب فقال: «هذا يومئذ على الهدى» فقمت إليه فإذا هو عثمان بن

عفان. قال: فأقبلت عليه بوجهه فقلت: هذا ؟ قال: نعم. [رواه الترمذي وابن ماجه]، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. فتأمل هذه التزكية من رسول الله ﷺ، وقابلها بقصة المصري وما دار بينه وبين عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - يتبين لك ما عليه القوم من الباطل.

وقال زرعة بن البرح – وهو ممن خرج على الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه –: «أما والله يا علي لئن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله لأقاتلنك اطلب بذلك رحمة الله ورضوانه»(١) وهو يعلم أن علياً ممن شهد لهم رسول الله بالجنة وأنه يحب الله ورسوله، وهو أعلم منه بالله ورسوله ﷺ واتقى، وعند علي ومعه من المهاجرين والأنصار من فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر، ولكنه الهوى والجهل بالله تعالى. أعاذنا الله من ذلك.

وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع قال: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لاتؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله». [رواه الترمذي] وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً: إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط». [حديث حسن صحيح رواه أبو داود]. وعلي رضي الله عنه ممن اجتمعت فيه هذه الخصال ولكن القوم لا يعظمون الله في واقع أمرهم وإن ادعوا ذلك.

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: شكا أهل الكوفة سعداً إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعزله، واستعمل عليهم عماراً فشكوا حتى ذكروا أنه لا يحسن يصلي. فأرسل إليه فقال :يا أبا إسحاق، إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن

(١) البداية والنهاية (٧/٢٨٥).

تصلي. قال أبو إسحاق: أما والله فإني كنت أصلي بهم صلاة رسول الله ﷺ ما أخرم عنها، أُصلي صلاة العشاء فأركد في الأولين وأخف في الأخريين. قال: ذاك الظن بك يا أبا إسحاق. فأرسل معه رجلاً أو رجالاً إلى الكوفة فسأل عنه أهل الكوفة ولم يدع مسجداً إلاّ سأل عنه ويثنون معروفاً حتى دخل مسجداً لبني عبس فقال رجل منهم يقال له أسامة بن قتادة يكنى أبا سعدة قال: أمّا إذ نشدتنا فإن سعداً كان لا يسير فينا بالسرية ولا يقسم بالسوية ولا يعدل في القضية. قال سعد والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً قام رياء وسمعة فأطل عمره وأطل فقره وعرّضْه للفتن .وكان بعد إذا سئل يقول: شيخ كبير مفتون أصابتني دعوة سعد.

قال عبدالملك: «فأنا رأيته بعدُ قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر وإنه ليتعرض للجواري في الطرق يغمزهن» رواه البخاري وفي رواية له: قال عمر لسعد: «لقد شكوك في كل شيء حتى الصلاة».

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: تذكير فرعون لموسى بخطئه حين قتل القبطي لينال منه ولهذا قال: ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

الثانية: استغلال عبدالله بن أبي ابن سلول رئيس المنافقين لفعل المهاجري بالأنصاري وقوله: فعلوها... !الخ.

الثالثة: تتبع أهل الزيغ لعورة أمير المؤمنين عثمان بن عفان للنيل منه رضي الله عنه وكيف فرح هذا المصري بجواب ابن عمر على أسئلته بنعم ظنا منه أنه قد أوصل مهمته لهذا الجمع من الناس في حرم الله، من التشهير بالخليفة والتنقص به ولكنه باء بالفشل حين بين له ابن عمر الأسباب وأنها تحولت إلى فضائل لو أن القوم يهتدون بهدى الله فيسألون إذا لم يعلموا.

الرابعة: عظم فقه ابن عمر ودقة حكمته حيث استدرج هذا المصري حتى عرف أهدافه ثم كر عليه بإبطال ما توهمه وقوله: (اذهب بها الآن معك).

الخامسة: الفائدة العظيمة فيما ورد في شأن عثمان من الطعون التي وجهها أعداؤه وما خاض فيه بعض المؤرخين وأنها كلها باطلة وأن الرجل على الهدى بشهادة رسول الله ﷺ وفيها العبرة في كشف حبائل أهل الزيغ وأنهم لا يتورعون في إلْصاق النقائص بأهل العلم والفضل مهما كانت منزلتهم.

السادسة: وقاحة الخارجي وهو يهدد أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه من أجل قضية التحكيم مع أنها قضية اجتهادية وما كان كذلك فإنه لا يبرر الخروج من الجماعة ولا إهانة ولي الأمر بالتهديد والتشهير به بين العامة كما فعل الخوارج قبحهم الله.

السابعة: عظم ضلال هؤلاء الخوارج حيث يطلبون رحمة الله بما يسخطه ففيه معنى قوله تعالى: **﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾**.

الثامنة: فضل علي رضي الله عنه حيث اتسع صدره لمثل هذا الكلام حرصاً منه على إطفاء الفتنة وإقامة الحجة وهو بذلك يأخذ بأسباب النصر وقد نصره الله.

التاسعة: فضل من أكرم ذا الشيبة المسلم ...الخ وأن ذلك من إجلال الله تعالى.

العاشرة: عظم الفرية التي قذف بها الرجل العبسي سعداً رضي الله عنه لينال منه بالوشاية به إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الحادية عشرة: فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وأن عمر لم يعزله لتهمة لقوله: «هذا الظن بك يا أبا إسحاق».

الثانية عشرة: أن سعداً من مجابي الدعوة وأن الله قد استجاب له في هذا الظالم ففيه معنى قوله تعالى في الحديث القدسي: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب» الحديث.

الثالثة عشرة: أن من أساليب دعاة الضلالة النيل من العلماء وافتراء الكذب عليهم لصد الناس عنهم فكم من خير حرمه أهل الكوفة بسبب هذه الفرية وقد قال له النبي ﷺ: «لعلك أن تعمر فينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون».

* * * * *



الرسول محمد ﷺ

الجزء الثالث

فهرس الموضوعات

الفهـــرس

الموضـــــوع	الصفحة

الفصل الثاني